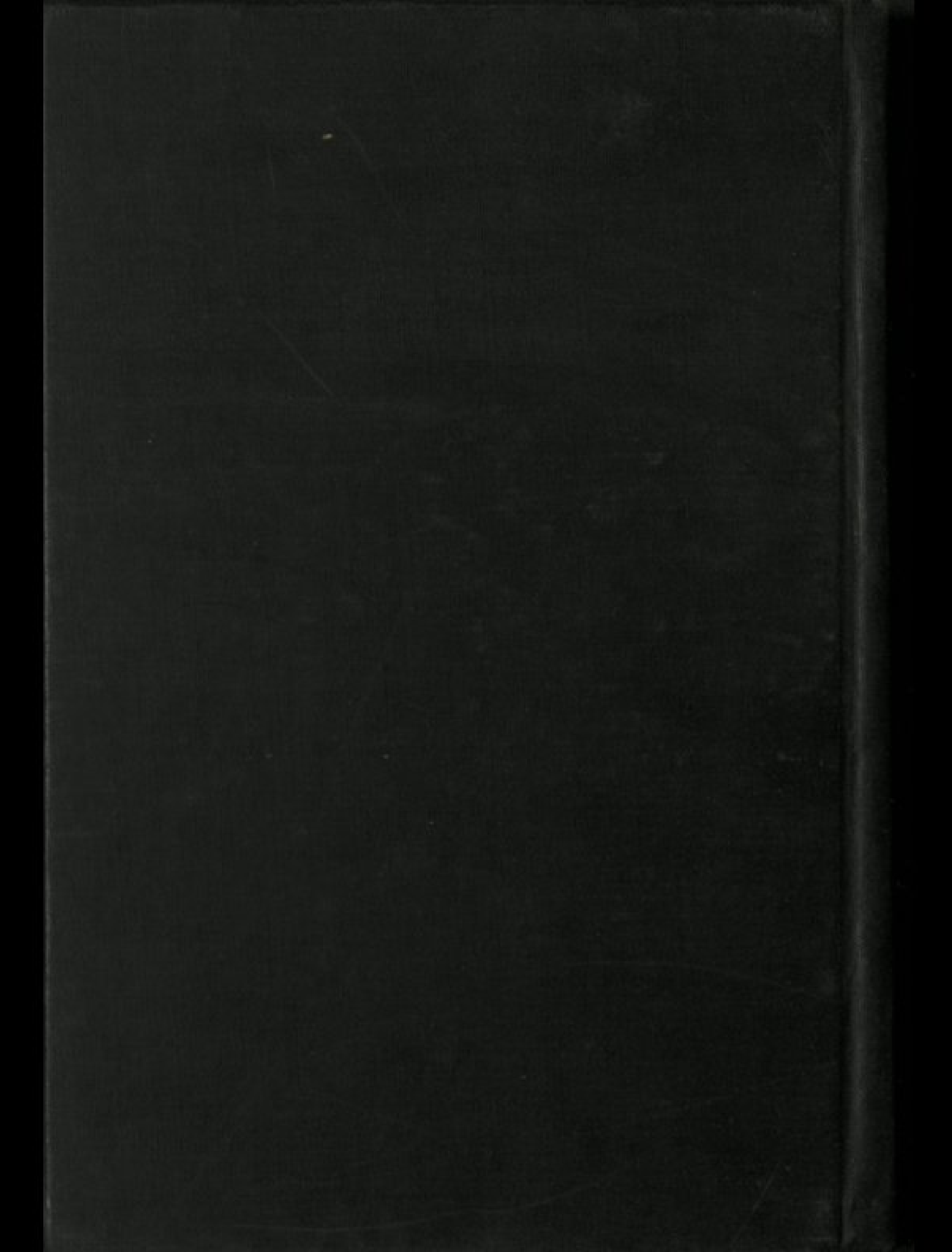


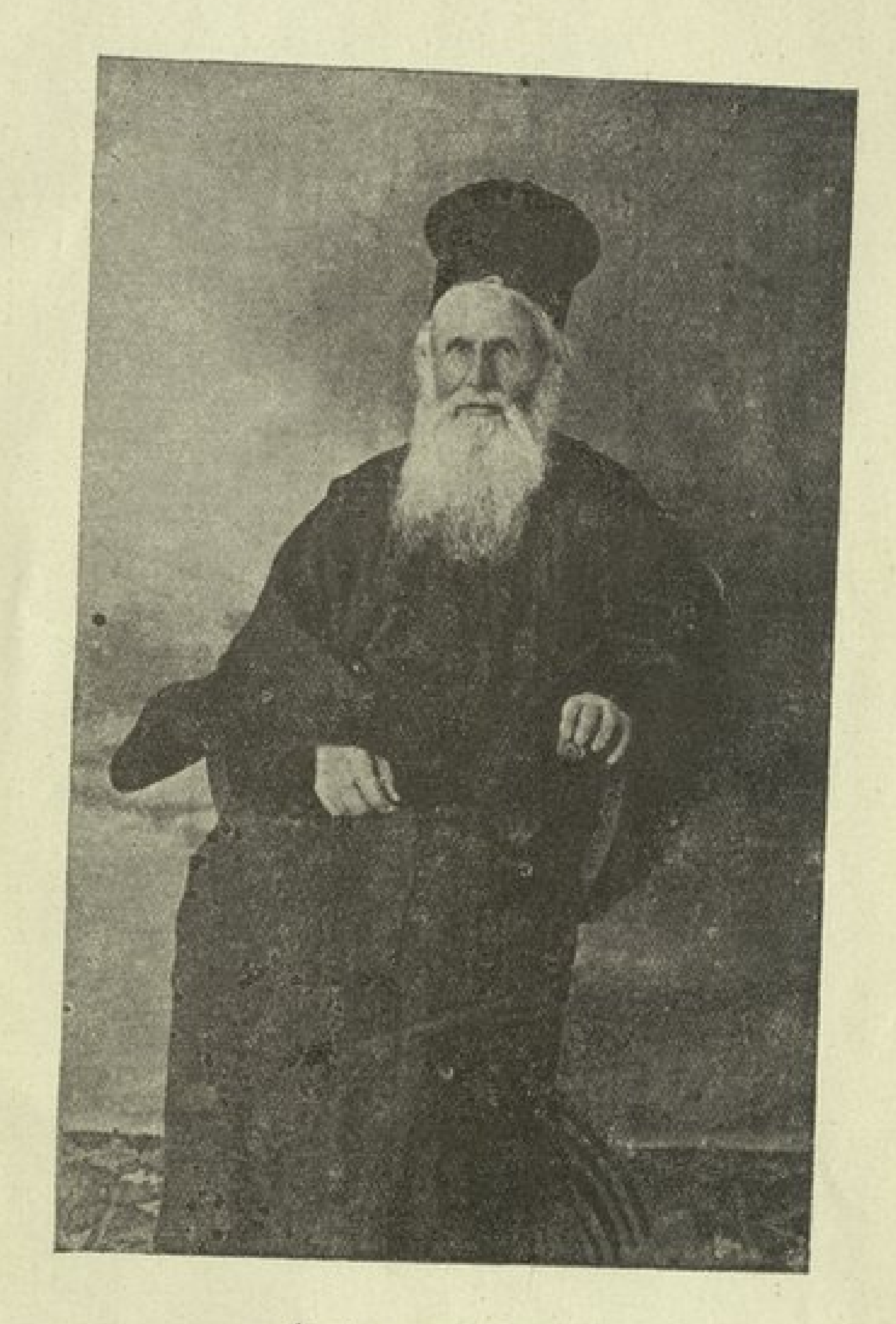
سيرة
الأب البار
بشارة ابي مراد
المخلّصي

بقلم

الخوري قسطنطين الباشا المخلّصي

مطبعة دير المخلّص
صيدا - لبنان

١٩٣٤



الخوري بشارة ابي مراد المخلصي

مقدمة الكتاب

في ذات يوم سنة ١٩٢٦ مررت بصيدا فوجدت الاب بشارة خارجاً من الكنيسة عائداً الى غرفته ضعيفاً مهزولاً. فسلمت عليه وسألته : كيف حالك. فأجابني : بخير الحمد لله. لكن لم اكتف بهذا الجواب بل رافقته الى غرفته لاتحقق خبره. وبعد ان دخل اليها أحضر له الحليب فتناوله كمن يشرب دواء. فسألت عن امره حضرة الاب الكسيوس الشتوي جاره في غرفته الذي كان حينئذ النائب العام لمطران صيدا. فقال لي : مرض المسكين مرضاً ثقيلاً اشرف به على الموت. ولا اظن انه يعيش طويلاً. ثم قال لي أسرع بكتابة تاريخ حياته فهو يستحق لذلك. وسيكون عملك هذا أفضل لك عند الله والناس. ولا بأس اذا كان وجيزاً في الاول. فلا بد ان يعاد طبعه. فتزيد عليه في الطبعات التالية ما يرد عليك من المعلومات الجديدة. فكان لكلامه وقع في نفسي اذ نبهني الى امر من أفضل ما ارغب لهذا الاب الصالح. ولم املك من

الجواب الا قولي له : نعم. ثم قلت له ولكن لا اعلم من امره شيئاً يروي الغليل في المدة التي قضاها في دير القمر وصيدا . فقال لي : هوّن عليك . فأنا اذهب معك الى دير القمر والقرى المجاورة لها لاستقصاء اخباره من اهلها . فقلت له : اكتب اذن عندك في مذكرة خاصة ما تعرفه عنه وما يصل اليك من اخباره .

وعدت الى الاب بشارة وقلت له : انك تعرفني انني اهتم كثيراً بالتاريخ والبحث عن آثاره . وكل الاصحاب والمحبين يقدمون لي ما عندهم من الاوراق القديمة والكتب المخطوطة . ومع كونك تحبني لم تعطني شيئاً من هذا اصلاً . فقال لي ليس عندي شيء منها الا ورقتين او ثلاثة . هذه هي . ثم ناولني بعض اوراق حالما وقع نظري عليها عرفت انها من خط يده. واذ طالعت فيها رسالة منه الى والده تعزية بوفاة والدته استبشرت خيراً واعددتها فاتحة خير لتوفيق الله لي في عملي وانا على يقين بأنه لو عرف قصدي وما في هذه الاوراق لكان منعها عني . ويظهر انه قد اهملها منذ زمان طويل حتى انه نسي مضمونها .

ولما عرضت عزمي على سيادة الاب العام الارشمندريت اغابيوس نعوم الذي هو اليوم مطران صور استحسنه ورغبني فيه لانه يعدُّ نفسه من تلاميذ الاب بشارة الذي حبَّب اليه الرهبانية والحضور الى دير المخلص .

وفي صيف سنة ١٩٢٧ استأذنته بالسفر الى دير القمر

والتجول في القرى المجاورة التي كان الاب بشارة يقوم في خدمة النفوس فيها . ثم الى زحلة بلده التي نشأ فيها . فسمح لي وزودني ببعض نصائح وجدتها مفيدة لبلوغ مرادي . وقابلت في بيروت المرحوم يوسف عبد الله صهره وسألته عما يعرفه عنه منذ صغره . فلم يفدني شيئاً لانه سبق الى وهمه ان الاب بشارة مات واني اخفي عنه خبر موته . فقلق لذلك ولم استطع ان استفيد منه شيئاً فتركته على امل ان اعود اليه فيما بعد . وكان كذلك . وسافرت الى دير القمر وقابلت فيها كثيرين عرفتهم بعزمي وسألتهم عما يعرفونه من أخباره وقيدت ما اجابوني به عنه في دفتري .

ويوم السبت ذهبت الى ضيعة بنويتي ملك الخواجات ابناء سليمان خطار ونزلت ضيفاً في دارهم . ويوم الاحد اقمت القداس في الكنيسة التي شيدوها هناك بايعاز الاب بشارة وقد زينتها والدتهم الفاضلة الكريمة باكمل زينة . وسمعت اعترافات كثيرين من الرجال والنساء الذين حضروا من الضيع المجاورة لسماع القداس على صوت الجرس الكبير في ذلك الوادي الجميل حتى ضاقت بهم الكنيسة لكثرتهم بل كان عدد الذين في الخارج يوازي الذين في داخلها او اكثر وبان لي منهم تقوى بارزة هي ثمرة اتعاب الاب بشارة الرسولية فيهم . وبعد القداس اجتمعت بهم واستخبرتهم عما يعرفونه عن مرشدهم وكاهنهم الاب بشارة بالصدق التام بدون مبالغة وأبنت لهم سوء عاقبة المديح بهذا الشأن بضياع

الحقيقة . فأجابني كل منهم بما يعرف عنه وقيدت ذلك في دفتري .

ثم ذهبت الى زحلة وقابلت فيها كثيرين من اهله واترابه في صباه واخص بالذكر منهم الشيخ الجليل سليمان ابي خالد كبير اسرته رحمه الله وقد جمع في دفتر خاص تاريخ ولادة افراد كثيرين منهم ووفياتهم . ثم عدت الى دير المخلص وقد جمعت في رحلتي هذه كثيراً من المعلومات عنه وعن اسرته ما كنت اعلم شيئاً منها فيما سلف .

وفي هذه السنة ذاتها سنة ١٩٢٧ عاد الاب بشارة الى دير المخلص للاقامة فيه الى آخر حياته . فكنت اجتمع به كثيراً واسأله عما كنت احتاج الى معرفتــه من احواله السالفة . وانا اكتم عنه غرضي ولا اظهر له الا اهتمامي بالبحث عن اخبار الرهبان رفاقه ومعلميه في المدرسة الرهبانية لاعداد محاضراتي لتاريخ المدرسة التي كنت القيها سنة ١٩٢٧ وسنة ١٩٢٨ . وهو كان يحضرها كلها مثل سائر الرهبان مع انه لم يكن يحضر الاجتماعات الرهبانية الا ما كان منها روحياً محضاً في الكنيسة او في غرفة القراءة الروحية .

وسألته مرة هل تسر بسماع محاضراتي ام تذهب اليها لاتمام امر الطاعة فقط . فقال لي بل انا مبسوط جداً من كلامك الله يساعدك ويقويك . ولولا المؤرخون مثلك ما كنا نعرف شيئاً من اخبار الاباء القديسين . فكان جوابه لي ولا سيما كلامه الاخير

كأنه وحي الي انطقه الله به بلغ صميم فؤادي .

وفيما كنت مواصلاً الكتابة بهذا الشأن لشيوخ الرهبان رفاقه واقاربه ولاسيما اخته سعدى التي هي اكبر منه سناً واقوى ذاكرة وعافية كنت أحاذر ان اسأله عن امور لا يحب ان يعرفها ولا يذكرها احد عنه لانه لتواضعه كان يكره ان يذكر الناس شيئاً عن اعماله بالخير او بالمديح حتى كان يظهر عليه اثر انزعاجه من ذلك باحمرار وجهه حياء وخجلاً . ولعظم حبي واحترامي له كنت اتجنب ما يزعجه من هذا القبيل . وربما حال هذا الاحترام دون رغبتي بسؤالي له عن امور خفية خاصة بحياته مع الله . بل كنت أحذر كل من كان واقفاً على عزمي ان يتكلم معه شيئاً بهذا الشأن لئلا يزعجه .

ثم اقتضى الحال بان ذهبت ثانية سنة ١٩٣١ الى دير القمر لاتحقق بعض امور عنه بمراجعة اصحابها . فكان لي ذلك على ما اردت وجلت بعد ذلك بعض قرى الشوف والعرقوب التي كان يزورها لخدمة نفوس اهاليها بعض السنين وتحققت منهم انه ابقى هناك ذكراً صالحاً لا يزول .

وقد سمح الله بأن اشتد عليه مرضه حتى توفاه الى رحمته وانا غائب عن دير المخلص في مصر . فنزل علي خبر موته نزول امر عظيم واسفت بوجه خاص لاني لم اتودع منه بنظرة قبل موته ولم اتمكن من سماع اقواله الاخيرة . وعند عودتي الى دير المخلص

وجدت كثيرين كانوا يتسابقون في سبيل خدمته في مرضه وسماع اقواله ومشاركته بصلواته وقدقيدوا كل ذلك في مذكراتهم حتى انهم لم يدعوا شيئاً منها .

وعلى اثر موته نشر حضرة الاب الفاضل الخوري نقولا ابي هنا ب م . في جريدة البشير في ٢٧ شباط سنة ١٩٣٠ خبر وفاته مع وصف حفلة جنازته. ونشر في العدد الذي بعده موجز ترجمة حياته ثم نشر في مجلة المسرة في شهر نيسان ترجمة اوسع ضمنها كما عرفه عنه.

وكتب بعده حضرة الاب مكسيموس شتوي ب م كاتم اسرار سيادة الرئيس العام حينئذ وكاتم اسرار غبطة البطريرك الكلي الطوبى حالياً ترجمة اوسع ضمنها معلومات جمة مما عرفه عنه بذاته ومما وجده عنه في سجلات دير المخلص ومما استفاده من سيادة الاب العام وغيره من كبار الرهبان الذين صاحبوه طويلاً ولا سيما حضرة الاب الايكونوموس ملاتيوس خوري ب م الذي قضى معه في دير القمر قدر ربع قرن . وارسل هذه الترجمة الى رسالة قلب يسوع اجابة لطلب مديرها حينئذ الاب روفائيل نخله اليسوعي ، الا ان هذا اقتضبها ونشرها في تموز سنة ١٩٣٠ فكان لها مع ذلك وقع جميل في نفوس كل من طالعها ، وقد تكرم علينا الاب مكسيموس بالاصل مع ما كتبه له الاب ملاتيوس خوري .

فكان اذاً بعزمي ان انشر له ترجمة موجزة بعد موته اتبعها

بطولة . لكن سبقني الى هذا اصحاب الفضل والهمة المقدم ذكرهم نخففوا عني مؤونة هذا العمل. بل ساعدوني مساعدة جلى على اتمام عملي بما قدموه لي من ثمار اجتهادهم وبحثهم فكان لهم علي بذلك حق الشكر الواجب لكل سابق ولكل متفضل .

وبعد هذا اخذت بمطالعة ما كتبه المذكورون وما كتبه لي غيرهم وهم كثيرون لا يسعني هنا ذكرهم كلهم وشكرهم . ثم عدت الى مطالعة ماجمعته من المعلومات الجمة بهذا الشأن في مذكراتي مما استفدته من اصحابه واترابه واقاربه بمشافهتي لهم باسفاري او بمراسلاتي لهم وما احفظه في ذهني وقلبي عنه من التذكارات الخاصة التي لا سبيل الى نسيانها مهما طالت الايام . اذ قضيت معه في المدرسة ست سنوات على اتصال تام كان مدرسي وناظري ومرشدي الروحي ثم قضيت معه في دير المخلص في المدة الاخيرة من حياته ثلاث سنوات كان فيها معلم اعترافي كنت اتلطف معه بالسؤال عن امور كثيرة من احواله واعماله كما سبق وعدت اراجع هذه المعلومات واقابلها مع بعضها بالدرس الشافي واراجع اصحابها لايضاح ما فيها من الاشكال لتحقيقها وتحري الصحيح منها . ثم عمدت الى تأليفها وترتيبها مع بعضها وتحريرها في هذا الكتاب بالتدقيق الواجب لشأن صاحبه وانا اقر صريحاً بانه دون قدره اذ بقي كثير من مطاوي حياته خفياً لم تبلغ اليه معرفتي وقد دق علي الوصول اليه مع بذل جهدي في هذا

السبيل لانه كان في حياته شديد التكتم باعماله الصالحة ليخفيها عن نظر الناس لتكون خالصة لوجه الله ولا يشوبها غرض بشري اصلاً .

واذ انعم الله على هذا الاب السعيد بان يعيش في بيئة صالحة من خيار الناس منذ صباه الى آخر نفس من حياته مثل والديه ورؤسائه ومعلميه ورفاقه واصحابه الذين كان لهم معه شأن مهم في حياته ومشاركة في بعض اعماله لم يكن لنا بد من ذكرهم معه باسمائهم واعمالهم كما شاءت عناية الله وهم بمقام هالة جميلة تزدان بهم صورته جمالاً وتزداد ترجمة حياته وضوحاً وكمالاً .

وانا ارجو ان لا يظن احد من القراء اني لمحبتي لهذا الاب الصالح تجاوزت الحقيقة بكلامي وبالغت كثيراً بذكر محامده وفضائله . نعم اني احببته من اول عهدي به محبة صادقة مقرونة بالاحترام لفضله . وفضائله الفائقة التي توجب الاحترام لصاحبها . وارى نفسي اني لا ازال على ذلك ما شاء الله . بل زادت محبتي له بعد موته اخلاصاً واحتراماً على كل محبة بشرية . وهي التي حملتني على هذا العمل الشاق بشوق ورغبة للتقرب اليه تعالى بواسطة وليه الذي سبق فأحبه حباً فائقاً اذ اختصه بفضل عظيم من نعمه . وانا اعلم والمطالع يعلم ايضاً ان الحب لا يكون صادقاً وخالصاً لوجه الله ولائقاً به تعالى اذا كان مشوباً بشيء من الكذب او كان صاحبه يمزج الحق بالباطل تمويهاً وتغريراً . وهو افتراء

الكذب على الله وقديسيه وهو من شر انواع الكفر .

وأعلم ايضاً ان آفة تاريخ رجال الله تسرب الشك الى النفوس بصحة اعمالهم الخارقة وحمل الكلام فيها على المبالغة . وحذراً من هذا كله جعلت التدقيق والتحقيق دأبي في بحثي كله لتحرير هذا الكتاب من كل وصمة لئلا يتسرب اليه شيء مما يعاب به خبر من اخباره او فصل من فصوله فيسقط ويكون سقوط هذا الخبر او الفصل سبباً لسقوط الكتاب برمته في نظره ونظر اصحابه الذين على شاكلته ويكون تعبنا قد ذهب باطلاً اذ لم نبلغ الغاية التي قصدنا ولم نستفد شيئاً يوازي تعبنا في هذه الدنيا ولا في الآخرة .

ولذلك لم اذكر فيه شيئاً من الجليانات والاوحية الروحية والرؤى السماوية الخارقة التي لا تخلو منها حياة مقدسة كاملة مثل حياته وان لم يبح بواحدة منها لنا ولا لسوانا .

وما يقال عنه من هذا القبيل يحتاج ايضاً الى تحقيق لانه غير مألوف او غير معروف في اعماله . ونخشى ان ذكرنا منها شيئاً ان يعاب كتابنا بانتقاد نروم ان يكون بعيداً عنه بل نريد ان يكون فوق كل انتقاد معقول .

وبناء على ما تقدم قد طرحت بعض اخبار بلغتني عنه وجدتها غريبة غير مألوفة او سخيفة الرواية اذ لم اتحقق صحتها واصلحت بعض الروايات السابقة بعد ما بذلت جهدي في تحقيقها . فإني مثلاً قضيت نحو شهرين او اكثر لتحقيق سنة

ميلاده اذ رابني ان يكون ولد سنة ١٨٤٨ كما كتبوا عنه سابقاً لاني استبعدت ان يبقى في العالم ٢٦ سنة حتى يأتي الى الدير سنة ١٨٧٤ مما عرف به من التقوى وحسن التربية منذ صباه . واذ سألت في عداد من سألت عن هذا الامر حضرة الاب الجليل الخوري مخائيل مقصود ب م الذي كان رفيقه في الابتداء اشار علي بمراجعة سجل العماد القديم في زحلة وحقق لي انه سلم من حريقها سنة ١٨٦٠ اذ حمله المطران باسيليوس شاهيات عندما فر منها الى كسروان . ومن ثم كلفت بعض الاباء المخلصين الذين في زحلة بمراجعة السجل المذكور ونقل تاريخ عماده وعماد اخوته . فنقلوها وارسلوها لي . الا انهم لم يقفوا على اسم سليم الذي هو غاية المراد مع انهم حققوا لي بانهم راجعوا السجل مراراً افراداً ومجتمعين . فأزعجنا هذا الامر واقلق بالنا كثيراً اذ ربما يتسرب الشك الى عماده . وبعد مراجعات كثيرة بهذا الشأن وجدوا المطلوب وارسلوا لنا نسخة عنه بخط يد سيادة مطران زحلة كيريوس افثيميوس يواكيم وبختمه تصرح بان سليم ابن جبور ابي مراد اعتمد في سنة ١٨٥٣ .

ومن هذا القبيل ايضاً خبر ذهاب الاب بشارة الى دار نعوم باشا للصلاة على ابنه المريض . فاني سمعت هذا الخبر في دير القمر سنة ١٨٩٣ من عدة اشخاص ثقات . ثم طالعت مثله بقلم الاب نقولا ابي هنا ب م عن لسان الاب ملاتيوس الخوري برواية

تختلف بعض الاختلاف عما اعرفه وعما كتبه الاب ملاتيوس نفسه بخط يده . وبعد مراجعة الاب ملاتيوس المذكور ومراجعة الاب ملاتيوس حجار ب م الذي كان في دير القمر سنة ١٨٩٣ مع المرحوم الاب مخائيل الناشف والبحث معهم بالتدقيق بهذا الشأن تحققنا ان الحادث تكرر وقوعه مراراً بوجوه مختلفة .

ومن هذا ايضاً الخبر الذي رواه حضرة الاب نقولا ابي هنا على لسان حضرة الاب بطرس فاخوري عن ذهاب الاب بشارة الى بيروت لاكليل ابنة اخته وعودته بدون ان يحضر العرس كراهة مما شاهده في حفلة العرس من زينة النساء وتبرجهن . وقد نقل عنه هذا الخبر حضرة الاب مكسيموس شتوي . فقد جاءني من حضرة صاحبة الاكليل انتقاداً على ذلك بانها طلبت اكليل عرسها من يد خالها مع وجود المطران بولس ابي مراد نسيبهم الذي كان حاضراً العرس مع بعض الاهل وكان لها ذلك . ولم يكن فيه غريب ولا شيء من مظاهر الافراح لسبب موت والدتها في تلك السنة ١٩٢٢ . ومن ثم لم يكن فيه شيء ضد الاحتشام والاداب المسيحية . وبعد التدقيق بمراجعة اهلها افراد بيت يوسف الزحلاوي وحضرة الخوري بطرس الفاخوري الذي كان حينئذٍ رئيس الوكالة المخلصية في بيروت تحققنا صدق رواية السيدة المذكورة باكليل خالها لها حسب طلبها لعظم اعتبارها لتقواه وقيمة بركته لاكليلها . وتحققنا ايضاً صدق رواية الاب بطرس

فاخوري عن عودة الاب بشارة من بيت اخته منزعجاً منزوياً في زاوية الكنيسة ولم يرد ان يتناول شيئاً من الطعام وهو يشكو من تبرج النساء في بيروت وطرقاتها . فظن الراوي وهماً ان سبب شكواه هو ما شاهده من هذا في حفلة العرس .

وبهذه الامثال كفاية لبيان ما بذلت من التدقيق والتحقيق في تحرير هذا الكتاب . ومع هذا فاني مستعد لقبول كل ملاحظة تحقيق فيه واقابل صاحبها بالشكر الجزيل . ومستعد لان اصلح كل غلط وقع مني سهواً في هذه الطبعة من كتابي لاثبت الصواب في الطبعة الثانية منه ان شاء الله كما اني مستعد ايضاً لان ادحض وانقض كل حجة باطلة .

واستشهد على صدق كلامي وصحة روايتي لاخباره اناساً ثقات لم يزالوا احياء من بلدان وطوائف شتى يعدون بالالوف وفيهم اصحاب مقامات عالية في المجتمع الانساني وفي الكنيسة الكاثوليكية شهادة الواحد منهم بمقام الف . وصرح البعض منهم بشهادات لاتدع شكاً لمرتاب الا اذا اراد الانسان ان يقهر عقله على ما يخالف الحق الواضح وكل صواب . وسننشر في ملحق خاص في آخر الكتاب بعض رسائل تكرموا بها لسيادة الاب العام ولهذا العاجز وهي لا محالة تزكية لكلامنا في هذا الكتاب وبياناً لقدر صاحبه الاب البار .

فانا لا اذكر له عملاً من اعماله هذه اختص بمعرفته وحدي اذ

يكون فعل نظيره وقف عليه انسان آخر او كثيرون معما كان عليه من حب التكتم في اعماله الخاصة التي لا يشترك بها مع اخوانه الرهبان بعيشتهم المشتركة بقانون واحد عام . فما اذكره اذاً من اعماله يعرفه غير واحد وشهادتي ليست شهادة فرد . بل هي بحقيقة الواقع شهادة كثيرين مختلفين وان كنت اخذ على نفسي تبعة كلما اذكره منها سواء نسبتها الى نفسي او الى غيري ممن ذكرتهم باسمائهم . وهي على كل حال اعمال مألوفة منه اعتادها مراراً او جرت منه على قاعدة واحدة ولغاية واحدة هي محبة الله وحب القريب لاجله تعالى .

فلم نقصد اذن بهذا الكتاب نشر اعمال واخبار هذا الاب البار بين اخوانه وتلاميذه واصحابه فقط . بل نريد ان يكون مفيداً لكل مطالع من اخواننا المسيحيين الى ما شاء الله ليعلموا انه لم يزل عز وجل في كنيسته المقدسة وفي هذه الرهبانية المباركة المشرفة باسمه القدوس الذي هو ينبوع كل قداسة . ولهذا بذلت جهدي ليكون كلامي في كتابي اساسه الصدق والحق الثابت الذي لا سبيل ان تهدمه نوب الايام واهواء الناس مهما كان فيهامن اسباب الغيار والفساد مع كل قوات الجحيم ليكون خالصاً لوجه الله تعالى وهو خير كل غاية وقصد.



تنبيه : يجب ان نعلن هنا اننا باطلاقنا عليه لقب ولي الله وعبدالله الصالح والبار والقديس وما شاكلها لا نقصد بهذه الالفاظ سوى معناها اللغوي العام لا معناها القانوني الخاص لان الحكم بقداسة القديسين في الكنيسة الكاثوليكية التي لي الفخر ان اكون اصغر اولادها الطائعين لامرها هو منوط برأسها الاعظم الحبر الروماني الذي هو القاضي الاعلى فيها . وله وحده الحق بالفحص عن اعمال ابناء الكنيسة في حياتهم وبعدموتهم ليحكم بصلاح من يكون منهم صالحاً لا غش فيه يستحق ان يقدم له الاكرام الخاص باولياء الله القديسين . وهو لا يبرز حكمه في قضية عظيمة الشأن في تاريخ حيـاة كنيسة الله المقدسة الا بعد ان تقدم الى ديوانه الخاص سيرة واعمال من يطلب اعلان قداستهم بشكل دعوى قانونية من قبل احبار الكنيسة ذوي الاعمال الصالحة والغيرة التامة لرفع شأن كنيسة الله وقداسة اولادها. وعليهم ان يحققوا له اولا صـدق هذه الدعوى بالبينات الواضحـة وشهادة الشهود الثقات الصالحين باقوالهم واعمالهم ويعيد بعد ذلك الفحص عنها بذاته او بواسطة من يثق به فحصاً مدققاً كما يقتضي شأن قداسة كنيسة الله واولادها القديسين .

﴿ الفصل الاول ﴾

زحلة في منتصف القرن التاسع عشر

لا بد لنا من كلمة اجمالية في اول كتابنا هذا عن زحلة وطن هذا الاب الفاضل حيث ولد ونشأ وتربى . ولا يخلو ان تكون حالتها الاجتماعية الادبية قد تركت في نفسهِ اثراً حسناً بواسطة اهله واقاربه

كانت زحلة في منتصف القرن التاسع عشر حينما ولد فيها الاب بشارة قد اضحت ذات شهرة بعيدة في لبنان وكل بلاد الشام وان لم تكن حينئذ قد بلغت ما هي عليه اليوم من سعة عمرانها وغنى اهلها اذ لم يكن عدد سكانها يتجاوز عشرة الاف نفس على التحقيق . لكن كانت تمتاز على سواها في الدين والدنيا بامور كثيرة اخصها بأس رجالها وشجاعتهم واتحاد كلمتهم وخضوع الصغير منهم للكبير والشاب للشيخ مع كثرة عددهم واختلاف اصولهم وعشائرهم مما لم يجتمع في بلدة سواها . وكذلك لم تكن بلدة تضاهيها بغناها وسعة تجارتها في اسواقها الخاصة وفي الخارج ايضاً اذ كان اهلها يضربون في طول البلاد وعرضها للتجارة بالحبوب من حاصلات ارض البقاع العزيز وبقاع بعلبك وحوران

وبالصناعات الوطنية الشرقية من لبنانية ودمشقية وحمصية وحلبية وجلب الغنم من جبل الاكراد وبر الاناضول وبيعها في اطراف لبنان ساحلاً وجبلاً وفي بلاد صفد وجبل نابلس وبلاد الجليل والخليل . وكانوا منفردين بتجارة هذا الصنف كانهم كانوا محتكرين له في ذلك العهد الذي لم تكن فيه الطرقات آمنة على ابناء السبيل ولم يكن يستطيع ان يسير فيها الا من كان ذا بأس وشجاعة نادرة او كان في قافلة كبيرة من الرفاق يعتز بهم لصد كل عادية .

كان اهلها يؤلفون مع اختلاف اصولهم وعشائرهم او عيالهم طائفة واحدة على مذهب الروم الكاثوليك وهم لم يزالوا الى اليوم اكثر عدداً فيها . وكان فيها مع ذلك قليل من الروم الارثوذكس واقل منهم الموارنة واقل من الجميع المسلمون حتى ان مجموع افراد هذه الطوائف كان يوازي عشر طائفة الروم الكاثوليك . وكانت قد خلت حينئذٍ من الدروز الذين كانوا فيها من قبل . وكان للروم الكاثوليك وحدهم اثنا عشر كنيسة مع دار لمطرانهم يقيم فيها دائماً وكان للروم غير الكاثوليك كنيسة وهي المعروفة اليوم بسيدة الزلزلة وكنيسة دير اليسوعيين التي كان يتردد اليها جميع الكاثوليك وكنيستان لرهبان الموارنة . وكان مطران زحلة حينئذٍ المرحوم باسيليوس شاهيات الحلبي الاصل غيوراً على مصالح طائفته ومحباً لهم ومحبوباً ومحترماً منهم . ولسبب نفوذ كلمته بين ابناء طائفته كان

الحكام في لبنان من الامراء وسواهم يعتمدون على رأيه في كل امر يرومون اجراءه في زحلة ٠

ولم يكن حينئذٍ في لبنان مجلس بلدي الا في زحلة ، وكان اعضاؤه شيوخ العيال الكبيرة من ذوي الوجاهة والرأي والعقل والنفوذ يُدعَون وكلاء . وكان لمجلسهم صلاحية واسعة لادارة احكام البلد فكان منهم ستة من طائفة الروم الكاثوليك واثنان من الروم غير الكاثوليك والموارنة ٠ ولهذا كان النصراني يسير في زحلة رافعاً رأسه آمناً على نفسه من ظلم الحكام وتعدي الطغام الذي كان يقاسيه النصارى في كل مدن الشام ٠ ولذلك كان كثيرون يأتون الى زحلة من كل صوب ويعتصمون بها ٠ وكان الدخيل او النزيل فيها والحالة هذه يضطره الصواب وخير نفسه ان يدخل في طائفة الروم الكاثوليك ويكون في ذمة اهلها آمناً مطمئناً كأنه اصيل في البلد ٠

ومن افضل ما اشتهر به اهل زحلة وامتازوا به على سواهم رجالاً ونساءً جزيل تقواهم وعبادتهم الخاصة لوالدة الاله سيدة النجاة وللقربان المقدس ٠ وكان فيها اخويتان من اقدم هذه الاخويات في الشرق اذ لم يكن لذلك العهد في هذه البلاد سوى اخوية انتشار الايمان في حلب واخوية زنار السيدة في عكا٠ ولم يكن يجري زياح حافل بالقربان الطاهر خارج الكنيسة الا في زحلة كما لم يزل هذا جارياً الى اليوم ٠ الا أنه كان يتم باكثر خشوع وتقوى

وهدوء بدون ضوضاء ولا تشويش . وكانوا ذوي غيرة على دينهم وأهله وعلى عرضهم وشرفهم يحمون ذمارهم ضد كل عادٍ عليهم ويحمون ذمار من لاذ بهم ولو كان عدواً لهم وكانوا محاطين بكل جانب من الاكراد والعربان والمتاولة والدروز وسواهم ممن كانوا يجاهرون لهم العداء ويحاولون اذلالهم وخفض شأنهم ، ولاسيما بعد انتصارهم العظيم على شبلي العريان واصحابه الدروز وانتصارهم على جيرانهم بحريق كفرسلوان وحريق بريتان .

واذ كانوا ذوي نجدة ونخوة وكرم واكرام لكل ضيف ونزيل كثر القوم الذين كانوا يقصدون حمى زحلة من كل صوب حتى من نفس لبنان بعد الاضطرابات التي وقعت سنة ١٨٤١ وسنة ١٨٤٥ ، فكان الناس يفدون اليها بالعشرات والمئات . لا من عامة الناس بل من الخاصة والاشراف كانها عاصمة لهم . ولذلك كان العامة يدعونها « كرسي النصارى » . ومن اشهر واشرف من فزع اليها من دمشق المعلم عبود البحري مع اخويه جرمانوس ويوحنا الذين كانوا كتّاب ايالة الشام في عهد يوسف كنج باشا الذي لمحبته له عرض عليه الاسلام ليكون له سبيل للترقي بوظائف الحكومة العالية وتشدد بذلك كثيراً ولم يجد عبود سبيلاً للنجاة من هذه الشدة الا بالفرار من دمشق الى زحلة بعد استشهاد سمعان جبور الزحلاوي سنة ١٨٠٨ بامر الوزير المذكور . ولم يرجع عبود الى دمشق الا بكفالة الامير بشير الكبير بعد صدور الفرمان السلطاني باسمه .

ومنهم السيد يعقوب الحلياني مطران السريان الكاثوليك في دمشق الذي فرّ من وجه وكيل بطريرك اليعاقبة الذي كان بيده الامر السلطاني بالقبض على المطران المذكور وسجنه ونفيه.

ومنهم قنصل فرنسا في بيروت (Henri Guys) وقنصلها في دمشق (Beaudin) مع جماعتهما عندما قام المسلمون في جميع المدن العثمانية على الافرنج بعد غرق الاسطول العثماني والمصري سنة ١٨٢٧ في ميناء نافارين (Navarin) بحرب استقلال اليونان المشهورة ونعدل عن ذكر من اتوا الى زحلة وسكنوا فيها ابتغاء الراحة والسلام وصاروا من اهلها وهم كثيرون.

ولا يتوهمنّ القارئ اننا بالغنا بمحامد اهل زحلة وصلاحهم لغرض او عن هوس لنظره ماهم عليه اليوم من الاحوال التي تختلف عما كان عليه اباؤهم واجدادهم الذين كانوا لا يعرفون شيئاً من هذا التمدن الكاذب. فكل ما ذكرناه من فضائل اهلها في تلك الايام هو الحق والصدق بعينه. ونزيد على ما تقدم تقريراً وتأكيداً لذلك ان الاباء اليسوعيين عندما عادوا الى الشرق صحبة المطران مكسيموس مظلوم في العقد الرابع من القرن التاسع عشر قد استوقفت زحلة انظارهم قبل كل شيء، وبنوا اول دير لهم بجوارها في المعلقة (اشترته منهم الحكومة التركية وجعلته سرايا لرجالها) ومنه كانوا ينتشرون للرسالة في قرى البقاع. وما طال الزمان حتى اقاموا في زحلة ديراً آخر بجوار دار المطران.

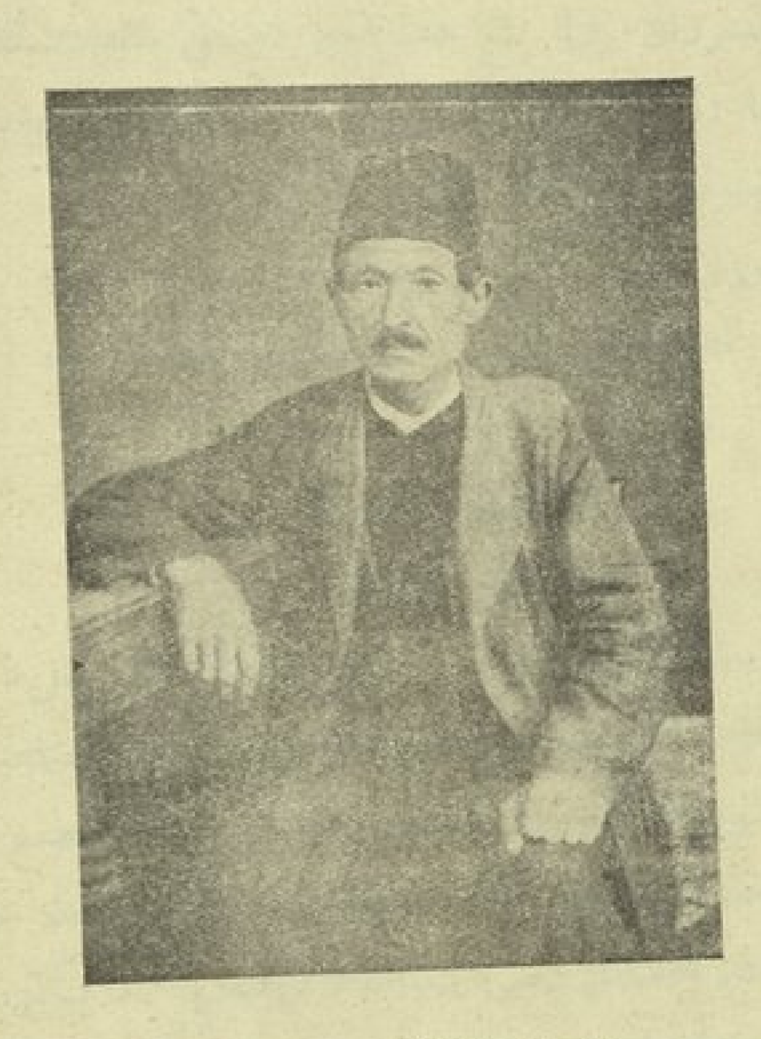
ولما شاع خبر حريقها سنة ١٨٦٠ وبلغ بيروت اضطربت المدينة اي اضطراب حتى قناصل الدول الكبار واضطرب معها كل لبنان حتى قلب كسروان. ولما بلغ هذا الخبر دمشق سقطت نفوس النصارى فيها وزين المسلمون الاسواق وصار الشبان منهم بفرح وعيد عام يتغنون بمثل هذه الاغاني :

يابطرس بشر نخله   والدروز حرقت زحله
هات راسك يانصراني   واحسبها قرصة نحله

﴿ الفصل الثاني ﴾
في الاهل والاقارب

وصفنا زحلة في الفصل السابق وصفاً اجمالياً أتينا فيه على ذكر ما عرفناه بالمطالعة والمشافهة من محامد اهلها وفضائلهم الاجتماعية. ولا بد ان يكون هذا قد ترك في نفس الفتى اثراً حسناً انطبع في فؤاده فكان صورة جميلة كملت بعناية والديه ونعمة الله حتى تجسمت فيه هذه الفضائل وصرنا نشاهدها فيه على أتم مايكون.

والواقع ان الوطن واصحابه ما هو في نظر الفتى الصغير الا أهله واقاربه الذين عرفهم اولاً ولم يكن له سبيل لان يعرف سواهم ومنهم ارتسمت في نفسه أول صورة من صور المجتمع الانساني. ولذلك ينبغي ان نذكر في هذا الفصل ما نعرفه عن اهله واقاربه الذين لهم الفضل الاول بحسن تربيته وتهذيبه على المبادىء المسيحية



جبور ابي مراد والد الاب بشاره (صفحة ٧)

التي كانوا عليها وظهروا بها امامه مثالاً حياً للفضائل التي اكتسبها منهم منذ صغره ·

كان جبور والده من اسرة معروفة في زحلة ببيت ابي مراد وهي فرع من اسرة جبور او رزق جبور المنتشرة فروعها في زحلة والبقاعين باسماء مختلفة · وينسب الى هذه الاسرة بيت ابي خالد وابي طمان وبيت العاصي وبيت يونس وبيت القسيس وابي غانم وابي خليل القش وأشميا وابي عساف والغاوي · واشتهر منهم سيادة المطران بولس ابي مراد والمرحوم الخوري الياس ابي غانم ب·م الذي توفاه الله سنة ١٨٨٤ والخوري اثناسيوس رزق ب·م المتوفى سنة ١٨٨٩ وابن اخيه الخوري موسى رزق ب·م والخوري يوسف القسيس من اكليروس زحلة الخاص · والخوري فيلبس القسيس ب م الذي توفاه الله سنة ١٩٣٠ · والمرحوم الخوري بولس القش ب·م خال الاب بشارة · والخوري اوغسطين عبد الله الذي توفي سنة ١٩٠٢ · وسليمان افندي ابي خالد قاضي زحلة سابقاً المشهور باستقامته وقد افادنا معلومات جمة عن اسرته التي يعنى بقيد مواليدها ووفياتها ·

وكانت والدته صابات او اليصابات ابنة بطرس القش ممتازة بتقواها وعقلها وعنايتها بحسن تربية اولادها وحبها لهم ولزوجها ولجميع الناس · ولذلك كان يحترمها كل نساء زحلة ورجالها · وما كانت تعلم بنزاع وقع بين اهلها او جيرانها من الرجال او النساء

الا بادرت لاصلاحهم . ولم تكن تنام حتى يعود السلام الى قلوبهم وكانت مشتركة باخوية السيدة واخوية القربان منذ صباها وكانت تتناول القربان ثلاث مرات في الاسبوع حتى في مرضها الاخير .

وكان جبور ابو مراد يسكن في بيت ملك له في قلب زحلة بجوار اقاربه في الحارة المعروفة الى اليوم بحارة كنيسة مار الياس خاصة رهبان دير المخلص .

ولم يكن جبور من ذوي الغنى والرزق الواسع . ولكنه لم يكن فقيراً بل متوسط الحال في دنياه اذ كان يعتمد لكسب معاشه ومعاش اهل بيته على ما يحصل له من كرومه التي كان يقوم بتدبيرها بعناية ونشاط وعلى ما كان يربحه بالتجارة في دكان صغيرة كان يضع فيها ما لا بد منه لحاجة البيوت من مال القبان وغيره . ولما كان ذا حرص ونشاط في اعماله وحسن تدبير واستقامة مع اصحابه اتخذه علي باشا من آل مردم بك[1] خولياً يناظر على ارزاق اسرته وحاصلاتها في البقاعين وعلى المزارعين فيها . وكان

(١) آل مردم بك من اشرف واغنى واكرم أسر دمشق . وهي ترجع بأصلها الى مصطفى باشا لالا وزير السلطان سليم فاتح سوريا وفلسطين ومصر . وقد أقطع السلطان الفاتح لوزيره المذكور في هذه البلاد اقطاعات كبيرة واسعة اوقفها المذكور على ذريته . وقد طبعت حجة هذه الوقفية في كتاب خاص يقع في ٣٠٠ صفحة بقطع كبير توزعت نسخه على افراد هذه الاسرة الكريمة . وعندي نسخة منه تكرم بها احدهم ابرهيم بك ذكر فيه نحو عشرين ضيعة من اوقافهم بجوار زحلة من بقاع العزيز وبقاع بعلبك والشوف البياضي . ومن المشهور ان علي باشا المذكور اذا جاء للاشراف على املاك اسرته كان ينزل ضيفاً على جبور في زحلة فيأتي للسلام عليه كل اعيان المدينة .

بعض السنين يضمن حاصلات بعض هذه الضيع من المذكور

وفي سنة ١٨٤٨ رزق الله جبوراً ولداً دعاه مراداً باسم والده وهو بكر اولاده فشب مراد على شاكلة والده وعلى مثال اكثر شبان زحلة لذلك العهد فاذا لم يكن مع والده في شغله واستماره كان على ظهر جواده يسابق رفاقه ويلاعبهم بالجريد او يطربهم بصوته اللذيذ. ولكثرة تردده بالسفر الى دمشق للقيام باشغال والده مع آل مردم بك تعرف على بيت متري الجد من اعيان طائفة الروم الكاثوليك فيها فأحب ابنة لهم واتخذها برضى أهلها وأهله زوجة له وبارك الكاهن إكليلهما سنة ١٨٨١. ولكن لم تتم السنة الثانية من عرسه حتى توفاه الله مأسوفاً على شبابه في ٢٨ تشرين الاول سنة ١٨٨٣

وسنة ١٨٥١ رزق الله جبوراً المذكور ابنة دعيت بالعماد مريم ودعيت بعد ذلك سعدى. نشأت على شاكلة والدتها بالتقوى والرزانة. واذ شبت اتخذها ابن ابن عمتها دعيبس قادري زوجة له وهي لم تزل حية تقيم مع اولادها في الولايات المتحدة. وقد اعتمدنا على ما روته لنا عن حياة اخيها وهو صغير لانها اكبر منه سناً وأقوى ذاكرةً وعافية.

وسنة ١٨٥٣ ولد له ابنه الثاني ودعاه سليماً ودعي فيما بعد بالرهبانية بشارة كما سيرد الكلام عليه مفصلاً في هذا الكتاب ان شاء الله.

وسنة ١٨٥٧ ولدت له ابنته الثانية ودعيت بالعماد مريم.

ولم تطل حياتها بل ماتت طفلة صغيرة .

وسنة ١٨٥٩ ولد له ابنة ثالثة دعيت ملكة تزوجت فيما بعد جرجس عواضة من زحلة . وماتت ميتة صالحة على اثر نفاس

وسنة ١٨٦١ ولد له ابنة رابعة دعيت بالعماد مريم . واذ شبت تزوجت احد اقاربها الخواجا يوسف عبد الله . وماتت سنة ١٩٢٢ . وزوجها لم يزل حياً يسكن في بيروت مع اولاده . ويعرف فيها بيوسف الزحلاوي .

وسنة ١٨٦٤ ولد له ابنه الثالث ودعاه يوسف وقد توفاه الله سنة ١٨٧٥ .

وسنة ١٨٦٦ ولد له ابنه الرابع ودعاه سليمان وهو اليوم في الولايات المتحدة يتعاطى التجارة بنشاطٍ واستقامةٍ وتوفيق[1]

الفصل الثالث

حريق زحلة سنة ١٨٦٠ والفرار منها

لم يكن الفتى سليم يزيد عمره سنة ١٨٦٠ عن ست سنوات . ولم يكن يعي تماماً ما كان يجري حينئذٍ في زحلة على اهلها واهله من المخاوف والاضطرابات وما تبع ذلك من البلايا والاهوال . وجلّ

---

(١) اعتمدنا في ضبط تواريخ هذه المواليد على سجل العماد القديم المحفوظ الى اليوم في زحلة وقد سلم من الحريق إذ أخذه معه المطران باسيليوس شاهيات عند ما فر منها بعد أن شاهد النار تلتهم بيوتها سنة ١٨٦٠ . ولاعبرة بما جاء مخالفاً لذلك بان سليماً ولد سنة ١٨٤٨ . فهو غلط بني على افتراضٍ غير صحيح .

ما كان يذكره لنا من ذلك أنه ذهب الى بسكنتا مع والده وامه واخوته .

ومفصل ذلك على رواية اخته سعدى وغيرها من شهود العيان ان الدروز الذين كانوا يشددون الحصار على زحلة ولم يكونوا يستطيعون الدخول اليها عنوةً دخلوا اليها بالخديعة على غرة من اهلها يوم الاثنين في ١٨ حزيران بالحساب الشرقي قبل الظهر من الجهة الغربية رافعين على راياتهم الصلبان وهم يتغنون بالاغاني النصرانية ليوهموا الناس انهم نصارى قادمون من كسروان لنجدة اهل زحلة الذين كانوا ينتظرون هذه النجدة من يوسف كرم . فلذلك ذهب فريق من الرجال والنساء من حارة الراسية لاستقبالهم بالترحاب والشراب . ولما دنا الفريقان من بعضهما وكادت تنكشف الحيلة بادرهم الدروز بضرب الرصاص فانهزموا امامهم وهم يصرخون : خدعة ! خدعة ! الدروز ! الدروز ! فاستولى الخوف والقلق على الجميع وتضعضعت قوى رجال القتال بانهزام رجال حارة الراسية المذكورين ومغادرتهم صفوفهم . وحالما بلغ اليها الدروز اضرموا في بيوتها النار ليوقعوا الرعب في القلوب ويشغلوا رجال الحرب عن قتالهم بصراخ النساء وعويل الاطفال ولهيب النار والدخان .

ولما ارتفع الدخان اخذ جند الاتراك الذين كانوا قد أرسلوا للدفاع عن زحلة يطلقون عليها مدافعهم وشرع كذلك سائر الدروز بالهجوم عليها من كل جهة فأدرك حينئذٍ اهل زحلة انهم في شر مستطير

فأسرع بعض رجال الحرب منهم الى الاماكن التي اتخذوها من البيوت حصوناً لهم وشرع الفرسان يشنون الغارة على المهاجين ليصدوهم عن النهب والحريق والقتال وكان فريق من الفرسان يجول في البلدة لخدمة ونجدة اصحاب الحصون وحماية النسآء والاولاد والشيوخ والمرضى الذين لم يكونوا يستطيعون الهرب والنجاة من اهوال هذا البلآء الا ان اكثر رجال الحرب والشيوخ جمعوا الاولاد والحريم وخرجوا بهم من جهة الشمال بطريق حارة البربارة وصعدوا الى جبل صنين . فكانوا بسلاحهم سوراً حصيناً لهم حتى بلغوا الى قرية بسكنتا . وكان باسيليوس شاهيات مطران الروم الكاثوليك ومتوديوس صليبا مطران الروم الارثوذكس مع بعض الشيوخ يتولون امر القوم في ذلك اليوم العصيب .

وكان مع هؤلاء جبور ابو مراد وامرأته واولاده مراد وسليم وسعدى وملكة . فناموا تلك الليلة في بسكنتا على المضيض في الفضآء نظير رفاقهم الذين ضاقت البلد بهم لكثرتهم . وكذلك قضوا الليلة التالية . ويوم الثلثآء والاربعاء عاد فريق من الرجال الى زحلة ليعلموا ماذا جرى فيها على اهلهم وبيوتهم . غير ان كثيرين منهم تفرقوا في قرى المتن وكسروان حتى بلغوا دوما من بلاد البترون . وفريق منهم ذهب الى بيروت لانها كانت تعتبر حصناً للنصارى لوجود قناصل دول اوربا فيها . ولم تكن تخلو غالباً من المراكب الحربية في تلك الايام الكثيرة المخاوف .

﴿ الفصل الرابع ﴾

في بيروت

ويوم الثلثاء عاد جبور ابو مراد الى زحلة صحبة كثيرين من اهل زحلة ليفتقد بيته واهله . وارسل امرأته واولاده الصغار الى بيروت برفقة بعض اقاربه الى بيت نعمان يونس احد اقاربه فيها . فكانت اليصابات هناك على اشد ما يكون من القلق والخوف على زوجها واقاربها الذين في زحلة وعلى نفسها واولادها الذين معها في بيروت لانه بعد ما شاع في بيروت خبر حريق زحلة وذبح اهل دير القمر في السرايا ومذابح حاصبياً وراشياً بمساعدة الاتراك وما جرى على النصارى في قرى إقليم جزين والتفاح وما وقع عليهم في قرى المتن وساحل بيروت استولى القلق والخوف على النصارى في بيروت اذ اخذ جهَّال المسلمين يعتدون عليهم ويتهددونهم بكل شر . وقد كثر فيها عدد اللاجئين اليها من قرى لبنان لما تقدم ، وبلغ الاضطراب والخوف من نفوسهم أشده إذ قُتل يوم السبت في ٢٢ حزيران رجل مسلم لم يعرف قاتله واتهم بقتله رجل نصراني من بكاسين فهاج عامــة المسلمين وطلبوا قتله للحال . والا قاموا كلهم قومة واحدة على النصارى وذبحوهم في الليلة ذاتها . ولتهدئة هذا الهيجان حوكم المتهم المسكين وحكم عليه ونفذ فيه الحكم ليلاً بالقتل وهو يقول أنا بري مظلوم . إن شاء الله يكون دمي فدى النصارى .

ولسبب هذه المخاوف أخذ الاغنياء من بيروت يسافرون بحراً الى الاسكندرية واوربا وقبرص وازمير وبلاد اليونان . واما الفقراء ومتوسطو الحال فكانوا يقصدون كسروان ولم تجد اليصابات المسكينة سبيلاً الى النجاة بأولادها الا الفرار من بيروت الى كسروان فسارت بهم على أثر القوم الهاربين من بيروت وكل منهم مشغول بأمر نفسه وذويه عن سواه حتى أفضى بهم السير الى مضيق نهر الكلب . وقد اعياها واولادها التعب والحر والجوع معاً تولاها من الخوف على نفسها وعليهم بانقطاعها في هذا المكان عن كل مساعدة . فأقعدها هذا الامر عن السير وجلست على قارعة الطريق تبكي وتندب سوء حالها وحال اولادها حتى صاروا يبكون لبكائها وكان الوقت قد بلغ المساء وكادت الشمس تغيب ويعقبها ظلام الليل .

وكان حينئذٍ في زوق مكايل الياس قادري من زحلة وهو ابن اخت جبور ابي مراد . فلما بلغه من القوم الهاربين ان امرأة من زحلة من بيت جبور رزق هاربة من زحلة بأولادها لا معين لها في الطريق ثار فيه دم الشباب وركب فرسه للحال وغار به حتى بلغ المكان بأقل من ربع ساعة . فوجد امرأة خاله واولادها بالحالة التي ذكرناها فطابت نفسها بكلامه وبما أحضر معه من الزاد لها ولاولادها فانتعشت نفسها وشكرت الله تعالى لعنايته الخاصة بها وبأولادها لانقاذه اياهم من الموت . ثم حمل من يستطيع الركوب على فرسه

وسار بهم الى الزوق . وانزلهم في بيت يوسف حبالين حيث اقامو مدة شهرين كان يفتقدهم فيها جبور بما كانوا يحتاجون اليه .

ولما أخذت المراكب الحربية ترد الى بيروت بالجند الفرنساوي من اول آب رجع الامان الى النفوس وانتهت المذابح وشرع اهل زحلة يعودون اليها تدريجاً ويجددون بيوتهم التي خربت بالحريق . فأخذ جبور امرأته واولاده وعادبهم الى زحلة وبنى من بيته غرفة بمعاونة أقاربه وجيرانه لسكناهم . وهكذا بطريق العونات تم بناء بيوت زحلة كلها .

واذليس غرضنا في هذا الكتاب أن نصف حوادث تلك السنة وأهوالها إقتصرنا على ذكر ما كان منها له صلة بحياة صاحب الترجمة لبيان عناية الله الخاصة به منذ صغره الى آخر حياته كما سنرى .

﴿ الفصل الخامس ﴾

الفرج بعد الضيق

لم يقتل من أهل زحلة في المواقع الحربية التي جرت فيها وبجوارها سنة ١٨٦٠ قدر ربع من قتل من الاعداء . إذ لم يبلغ عدد القتلى من أهلها مئة نفس حسب رواية شهود العيان لأنهم أبوا أن يستسلموا للأتراك وللأخصام نظير أهل دير القمر وحاصبيا وراشيا ودمشق الذين ذبحوا غدراً ذبح الغنم . لكن أهل زحلة

أصيبوا بالحريق العام الذي فيه خربت بيوتهم ومخازنهم و كنائسهم ومدارسهم إلاّ كنيسة سيّدة النجاة لكونها معقودة بالحجر . و كذلك نهب كل ما كان لهم من مال ومتاع وأضحوا كلهم حتى الاغنياء فقراء يحتاجون الى كل شيء . على أن النفوس الابية الحرة إذا ما اصابها ضيم لا تصبر عليه طويلاً . بل تبذل جهدها في دفعه والنجاة من شره بالجد والنشاط . وبما ان اول اسباب هذا الخراب كان الانقسام بين الزعماء فيها عادوا الى الاتفاق والاتحاد لاصلاح هذا الخراب بتجديد بناء بلدتهم . فأخذوا يتعاونون على ذلك ولم تنته سنة ١٨٦٠ حتى كان لكل اسرة مكان يأوي اليه أفرادها . وما انقضت سنة ١٨٦٢ حتى صارت زحلة ببنائها الجديد أجمل مما كانت قبلاً بفضل تعاون اهلها بطريقة العونات المعروفة الى اليوم في بعض القرى وذلك بان يتطوع للعمل كل الافراد او اكثرهم من رجال ونساء ومن كبار وصغار لقيام مسكن لاحدهم بنخوة ومروءة ومحبة .

وعلى هذه الطريقة تجدد بناء الكنائس والمدارس . فأقبل الناس على الكنائس لعبادة الله تعالى بتقوى احر من السابق ليشكروه تعالى على نجاتهم . فان المصائب تجارب تزيد العاقل حكمة وتقربه الى الله تعالى . وكان يذكر لنا صاحب الترجمة ان المرحوم عبدالله ابا خاطر الذي كان يقود رجال الحرب الى كل نصر على زمان الامير بشير الكبير كان يسبق الجميع الى كنيسة مار الياس

لحضور الصلوات الطقسية والقداسات . وكان وقوفه فيها امثولة حيّة للجميع بالخشوع والتهيب حتى لم يكن يجسر احد من الاولاد والشبان ان ينبس ببنت شفة امامه في الكنيسة . ونعمان المعلوف الذي كان يقول للدروز قبل حريق زحلة كلمته المشهورة الدالة على عزة نفسه « لو وقع خسفٌ من السماء ارفعته بجزمتي » صار عابداً تقياً ومثالاً صالحاً بتواضعه وأنسه .

﴿ الفصل السادس ﴾

أيام الصبا في البيت والمدرسة

في سنة ١٨٦١ فتحت المدرسة التابعة لكنيسة مار الياس بجوار بيت جبور ابي مراد فارسل إليها ابنه سليماً . وكان عمره حينئذٍ سبع سنوات قضاها في البيت عند والدته حتى شبع من حليب تقواها . وقد علمته الصلاة في البيت معها وعوّدته حضور الصلوات الطقسية في الكنيسة إذ كانت تصحبه معها إليها حتى إنه كان (حسب رواية صهره ورفيقه يوسف عبدالله) إذا حلَّ وقت اللعب للأولاد يخاتل رفاقه في المدرسة ويدخل إلى الكنيسة ليصلي فيها ولا يدع أحداً يدري به إلاّ إذا دخل أحدهم اليها إتفاقاً او ليفتش عنه فيخرج منها إلى البيت او إلى المدرسة .

وكان منذ صغره يتجنب اللعب مع الاولاد ولاسيما الالعاب التي لا تخلو من منافسة وخصام . ولذلك كان محبوباً من جميع رفاقه

وكان بعض الاوقات يعزي من كان منهم مغلوباً ومقهوراً بكلمة اعتاد ان يقولها الى آخر حياته : « الله يساعدك » . بل قضى كل حياته لا يعرف لعبةً من لعب التسلي المعروفة . ولم يكن في المدرسة يهتم بشيء سوى حفظ درسه . ولذلك بان نجاحه من أول سنة حتى سبق كثيرين من أترابه . وكانت تظهر عليه منذ صغره سمات الرزانة والتعقل والحشمة في كل مكان ومع الجميع . ولم يكن على شيء من بلاطة الاولاد ودلعهم او طيشهم بل كان في البيت حسب رواية أخته سعدى هادئاً ساكناً ساكتاً كانه غريب فلا يعمل شيئاً الا ما يطلب منه . ولذلك كانت والدته تحنو عليه بوجه خاص بخلاف والده فانه كان يحب اخاه مراداً اكثر لما كان يظهر من حدة ذهنه وقوته مع خفة روحه وسرعة جوابه في كلامه .

وتعلّم سليم في مدرسة الخورنية حسب العادة في مدارس ذلك العهد مبادىء العربية ثم كتاب المزامير وكتاب الاكتويخس (وهو من كتب الصلوات المعروفة في الكنيسة) باتقان حتى صار يقرأ فيها الصلوات الطقسية في الكنيسة امام الناس . وكذلك تعلّم الخط العربي بنجاح وكان خطه جلياً واضحاً لا يخلو من مسحة جمال تدل على صفاء سريرته ورغبته في اتقان اعماله . وتعلّم ايضاً مختصر التعليم المسيحي برغبة بقيت راسخة في نفسه الى ما بعد درسه اللاهوت الادبي والنظري والفلسفة . فكان كثيراً ما يرغب الينا ونحن تلامذة ان نتلو هذا التعليم على سماعه في كل فرصة مناسبة .

وعلى رواية اخته سعدى كان معلمه في هذه المدرسة الشماس ديمتريوس قزح من رهبان دير المخلص الذي توفاه الله رئيساً في دمشق سنة ١٩٠٦ وهو مشهورٌ بتقواه وغيرته على خلاص النفوس وقد ساعده على تعليمه له التعليم المسيحي الخوري ديونيسيوس الصائغ رئيس كنيسة مار الياس المخلصية الذي قضى معظم عمره فيها الى ان مات سنة ١٨٨١ وكان الخوري المذكور معلم اعترافه كما كان معلم اعتراف اهله .

وفي سنة ١٨٦٨ فتح الاب بطرس الجريجيري مدرسة كبيرة في زحلة في دار المطران وأراد ان تكون نظير المدرسة البطريركية في بيروت فأحضر اليها المعلمين ليعلموا فيها الصرف والنحو والحساب واللغة الفرنساوية . وكان سليم من تلاميذها لما كان أبوه يتوسم فيه خيراً بما كان فيه من سمات التعقل والرزانة والرغبة في الدرس فتعلم فيها الاجرومية ومبادىء اللغة الفرنساوية قراءة وكتابة وكان رئيس المدرسة المذكور يعتبره كثيراً لتقواه ورزانته كأفضل المعلمين . وكان يختاره بعض الاوقات لان يرافقه في بعض زياراته ويشاركه في صلواته واعماله التقوية كما كان يذكر لنا ذلك في حياته عن البطريرك المذكور .

فشب الفتى سليم جبور على هذه الخصال الحميدة والفضائل المسيحية وممارسة اسرار الكنيسة بتواتر تقرباً الى الله تعالى بالورع حتى رسخت التقوى في قلبه وانكشف له غرور بعض الشبان في

هذه الدنيا . فعزم ان يذهب الى دير المخلص ليترهب فيه ليخلص نفسه كما كان يسمع عن رهبانه من اهله واقاربه ولا سيما والدته التي لدالته عليها صارحها بعزمه لكنها لم تحفل بكلامه الا بعد ان كرر عليها القول مراراً . ولكنه لم يجسر ان يبوح به لوالده الذي لما عرف هذا من والدته حاول ان يشغله بعمل يسهل عليه ويكون له فيه ربح ليغره بالمال . فرام ان يدربه على الاعمال التجارية لما ظهر له من براعته بالخط والحساب . ورأى ان اعمال التجارة اسهل واوفق لنحافة جسمه . ففتح له دكاناً في السوق وضع فيها من مال القبان ما يروج في زحلة كالملح والزيت والصابون والسكر والبهار . وكان يزوره غالباً ويشرف على اعماله بعد عودته من اشغاله ويسأله بعض الاحيان عن اعماله وارباحه فيجيبه سليم بما فعل . فان لامه على تقصير او قلة ربح كان يسكت عن الجواب . واذا سالته أمه بمثل هذا كان يقول لها بدالة وصراحة : « لا تطاوعني ذمتي ان اربح من أناس فقراء محتاجين »

ويظهر ان سليماً لم ينجح بهذه التجارة لعدم رغبته فيها ولان الله تعالى يدعوه الى تجارة اشرف واكثر ربحاً .



﴿ الفصل السابع ﴾

دعوة الله له الى الرهبانية

إن الله يدعو الناس بانواع مختلفة الى عبادته في هذه الدنيا ليفوزوا برضاه وسعادتهِ في الآخرة . وقد تكون هـذه الدعوة بالكلام الحي المفهوم واضحاً من السامع وهو الوحي الظاهر والآية الكبرى والكرامة الفائقة التي يخص الله بها بعض الناس . وقد تكون هذه الدعوة بصوت خفي لطيف لا تسمعه الاذان ولكن تدركه الأذهان والنفوس الطاهرة بوجدانها الباطن الخلي من حب الدنيا . وهو الالهام السري الخفي . وقد تكون رأساً بدون واسطة او بواسطة ملاك او بشر كدعوة الانبياء والرسل . وقد تكون بتدبير الله تعالى الذي جعل لكل معلول علة ولكل حادث سبباً او اسباباً . فحينما نجهل اسباب الحوادث التي تجري لنا في حياتنا ننسبها عادةً الى الصدفة والاتفاق . واذا كان لنا من هذه الحوادث نفع ظاهر نسبناها الى حسن الحظ والسعد . وإذا جرت على خلاف مرادنا ورغائبنا نسبناها إلى سوء الحظ او النحس . لكن اذا اعتقدنا انها لا تجري الا بتدبير الله وعنايته بخلقه — ويجب ان يكون اعتقادنا كذلك — نسبناها الى التوفيق الذي هو تسهيل طريق الخير وسدّ طرق الشر . ويطابق هذا قول بولس الرسول :

« إن الذين يحبون الله كل شيء يعاونهم للخير » (روم ٨ : ٢٨)

نقول هذا توطئة لبيان ما سيأتي في سيرة صاحب الترجمة الذي

اختاره الله ليكون عابداً له بالتمام والكمال . ولذلك خصه تعالى بعنايته وجعل التوفيق خادماً له في كل احواله من اول ما دب ودرج الى ان قضى اجله وبلغ غايته عند ربه

والمراد بالطريقة الرهبانية السلوك بطريقة الكمال التي نهجها السيد المسيح مدة حياته على الارض لمن يبتغي ان يتقرب اليه باتباعه مشوراته الانجيلية ويعاهد الله على ان يحفظها كل حياته . وتدعى رهبانية ويدعى تابعوها رهباناً من الرهبة بمعنى التقوى وخوف الله وعبادته بالورع

فقد دعا الله تعالى عبده سليماً بلطفه الى السير في هذه الطريقة الرهبانية طريقة الكمال المسيحي . فلبى دعوته تعالى بنية صادقة وعزم متين لا يلويه شيء عن السير فيه بكل ثبات ونشاط الى التمام

﴿ الفصل الثامن ﴾

اجابة دعوة الله

لما بلغ سليم السنة العشرين من عمره وهو على الحال التي وصفناها ادرك انه صار رب اعماله وان له الحق باختيار الحالة التي يجد فيها السبيل الامين لخلاص نفسه والفوز برضى الله تعالى . وشرع يخاطب والدته بصراحة وشجاعة طالباً رضاها عليه ليترهب وخاطب والده بهذا الشأن ولكنه لم يفز منهما بطائل

واذ طال به الامر ولم يجد سبيلاً لرضى والديه عوّل على السفر

الى دير المخلص سراً بدون علمهما لئلا يصداه عن السفر . فاعدّ عدته ولم يعلم بذلك أحداً سوى عمه وجاره ابي طعان الذي سلّم إليه مفتاح الدكان قبيل سفره . الاّ أن هـذا أسرع واخبر ابويه فبادر والده وارجعه الى البيت من أول الطريق .

فعاد سليم الى البيت طاعة لابيه حزيناً لاخفاق مسعاه . ولزم البيت بالاختلاء والصلاة ولم يكن يخرج منه إلاّ لسماع القداس والصلوات الطقسية في الكنيسة . وكان يصلي الى مريم العذراء سيدة النجاة لتساعده على النجاة والخلاص . وفي الوقت نفسه لم يكن يهمل التوسل الى والدته لتساعده على نيل رضى والده ليأذن له بالسفر الى دير المخلص . ولبث مدة طويلة في البيت على هذه الحال لا يكلم احداً حتى كان يظهر لاهله كأنه ضائع العقل لا همَّ له الاّ دير المخلص والرهبنة كما روت لنا ذلك اخته سعدى . فرقَّ له قلب والدته لتقواها واخلاص حبها له وخاطبت والده بشأنه ليدعه يذهب الى الدير . وأقنعته بما ألقاه الله على قلبها ولسانها بأن الرهبانية دعوة من الله وحرام علينا ان نمنع ولدنا عن طاعته تعالى ان كان يدعوه اليها . ولسبب ما كان لها عنده من الكرامة والاعتبار نظراً لتقواها وتعقلها رضي معها بالسماح لولده بالسفر الى دير المخلص ليمتحن نفسه بالرهبانية . فاذا توفق تمت ادارة الله فيه . والاّ فالعود الى البيت خير وافضل . ففرح بذلك سليم اي فرح لانه تم مراده باخذ رضى والديه وهو يحسب ان رضاهما

بركة ومقدمة التوفيق له في هذه الحياة وفي الآخرة .

وقبل ان نسير مع هذا الشاب العاقل الى دير المخلص ينبغي ان نقف قليلاً لننظر في الاسباب التي حببت اليه الطريقة الرهبانية ونعتبر الوسائل التي استخدمها الله تعالى في هذا السبيل الى ان بلغ به غايته التي ارادها واختارها له

لعل اول شيء يتبادر لذهن القارىء النجيب من هذه الاسباب نفس ما تحققناه بعد البحث وما رواه لنا الثقاة وما رواه لنا الاب بشارة عينه وهو التربية المسيحية التي خصه بها الله تعالى منذ صغره بعناية والدته ومثالها الصالح والسهر عليه الى ان شب على التقوى والخصال الحميدة واعتياد ممارسة الصلوات الخشوعية في البيت والكنيسة حتى كان بعض النساء يقلن لها عنه : ما هو مليح الا ليكون خورياً او راهباً في الدير

ولا يخلو ان تكون زيارات الكهنة الافاضل لهذا البيت المبارك قد تركت في نفسه اثراً حميداً زادت في محبته للطريقة الرهبانية · وكان افراد هذا البيت يفتخرون بحق بانه بيت الخوارنة والرهبان المخلصيين اذ كان فيهم من اهل زحلة أكثر من عشرين راهباً واكثرهم من نفس حارة مار الياس . وكان رئيسهم الخوري ديونيسيوس الصائغ افضلهم كمالا قضى في زحلة نحو ربع قرن رئيساً على الرهبان الى ان توفاه الله فيها سنة ١٨٨١ ولم يكن يشكو احد منه .

ثم ان ملازمة الكنيسة والاشتراك بصلواتها الطقسية وادمان الاعتراف وتناول الاسرار المقدسة مماَّ يساعد بلا شك على اذكاء نعمة الله في قلب الانسان الذي ياتي هذه الاعمال بايمان ورجاء ومحبة كما كان دأب هذا الشاب التقي الورع لان الله لا يسخر عباده بل يضاعف اجرهم من نفس عملهم .

فهذه الاسباب قد تظهر لكثيرين انها تجري بمجراها الطبيعي او بطريق الاتفاق . مع انها سلسلة متصلة الحلقات من نعم الله او كعقد ثمين في عنق من احبه الله واختاره له بفضله ولطفه . وقل منهم من يعتقد انها بتوفيق الله وعنايته الخاصة . ولذلك قل من يسمع صوت الله يدعوه ، ويستجيب دعوته باخلاص النية وثبات العزم على السير في الطريق التي ارادها له الله

﴿ الفصل التاسع ﴾

الى دير المخلص

في اوائل شهر ايلول سنة ١٨٧٤ برح سليم جبور زحلة بعد ان ودع اهله واقاربه وقبل اياديهم وطلب دعاهم لتوفيقه . وسار الى دير المخلص راكباً على بغل لرجل مكاري من زحلة من بيت حنكش كان يتردد عادة الى دير المخلص . وكان شوق سليم الى الدير عظيماً جداً . وكان هذا لا محالة دليلاً واضحاً على دعوة الله له الى الرهبانية الذي حببها اليه ورغبه فيها .

وكان رفيقاً له في سفره هذا شاب آخر من نفس حارة مار الياس اسمه سليم بن حنا مرشة قصد ان يترهب معه في دير المخلص فقبل في الدير ولبس ثوب الرهبانية معه في يوم واحد وارتسم فيما بعد كاهناً وعرف باسم باسيليوس مرشة لكنه بسماح الله لم يثبت في الرهبانية كما ثبت رفيقه .

بلغ سليم ورفاقه دير المخلص مساء اليوم الثاني وكان يوم سبت . وقد سمعوا عن بعد قبل وصولهم جرس الكنيسة يقرع طويلاً للاحتفال بصلاة الغروب . وكان دير المخلص في ذلك الوقت ممتلئاً بالرؤساء وبشيوخ الرهبان الذين حضروا لعقد مجمعهم العام كعادتهم . وكان حينئذٍ قد تم المجمع وانتخبوا رئيساً عاماً الخوري سمعان نصر . وكان هذا رحمه الله من الرهبان الممتازين بالكمال الرهباني بوداعته وتواضعه وتقواه وحبه للصمت والعمل بهدوء . فحضر سليم الصلاة وسر كثيراً بهذا الاحتفال وبزينة الكنيسة وجمالها واصوات المرتلين وشاهد الاب العام الجديد . وفرح بالاكثر لمشاهدة خاله بولس القش الذي بشره حينئذٍ بانه سيرتسم شماساً انجيلياً من يد البطريرك في ٨ ايلول كما انه شاهد بين شيوخ الرهبان الاب ديونيسيوس الصائغ رئيس زحلة والخوري الياس غانم من اقاربه ايضاً . وصباح الاحد قام سليم باكراً واتى الى الكنيسة لاول دقة من الجرس وحضر الاحتفال بطقس الفرض من اوله الى آخر القداس الذي احتفل به لاول

مرة الاب العام الجديد وحواليه هالة جليلة نحو ثلاثين كاهناً من الكهنة الشيوخ والشبان ببدلاتهم الثمينة . وتناول سليم من يد الاب العام القربان المقدس مع من تقدم من الرهبان والشعب . وقد سر بهذا الاحتفال اي سرور اذ وجده اكثر نظاماً وخشوعاً من القداسات التي كان معتاداً ان يحضرها في زحلة في كنيسة مار الياس وفي سيدة النجاة .

ومساء الاثنين قرع جرس كنيسة الدير للاحتفال بصلاة الغروب نظير الاحد وترأس هذا الاحتفال اكراماً لعيد ميلاد السيدة البطريرك غريغوريوس يوسف وجلس على عرشه الجديد وكان مقابله البطريرك اكلمنضوس بحوث الذي كان يقيم في دير المخلص بعد تنازله عن البطريركية . وكان الخورس مزيناً ومجملاً بكثيرين من المرتلين الكهنة والشمامسة اصحاب الاصوات الرخيمة . واولهم الاب العام الجديد في جهة اليمين . وكان اجهرهم صوتاً وابعدهم شهرة الاب حنينا برخش الذي كان يملأ كنيسة الدير على وسعها بصوته العالي الرخيم المنقطع النظير . وفي الشمال البطريرك اكلمنضوس بحوث والابوان اثناسيوس السروجي واثناسيوس رزق وكلاهما من زحلة وكان سليم يعرفهما من قبل

وصباح الثلثا احتفل بطقس العيد والقداس الكبير البطريرك غريغوريوس احتفالاً عظيماً شاركه فيه الاب العام الجديد والمدبرون الجدد والكهنة والشمامسة والرهبان ورسم فيه

شماساً انجيلياً الاب بولس القش المذكور والاب ثاوضوسيوس القاضي من ابلح من ابرشية زحلة ثم رسم خمسة كهنة من الشمامسة الرهبان

وقد ألفت نظره من المرتسمين بوجه خاص الاب بطرس الشامي والاب حنا البيطار لانه كان يعرف من زحلة بطرس المذكور واخوته وامه التي كانت تتردد على بيتهم لزيارة والدته . وكانت على شاكلتها بتقواها وكانت ترافقها لزيارة الكنائس والاخويات . وكان اخوه الاكبر مكاريوس قد سبقه وترهب في دير المخلص وقد حضر رسامة اخيه وقدمه للرسامة وسيأتي الكلام عليه .

وكذلك كان الاب يوحنا البيطار هدفاً لانظار كل من حضر هذا الاحتفال لتقواه التي كانت تظهر عليه ولرصانته ولتعقله وبراعته وتفننه بزينة كنيسة الدير بعمل المنجور الجديد من خشب الجوز في الخورس بكراسيه ودرابزينه والعرش الذي كان جالساً فيه البطريرك . وكان الرهبان والعلمانيون يذكرونه بكل ثناء [1]

وكانت كنيسة الدير في هذا القداس مزدحمة بالناس الذين اتوا من القرى المجاورة والبعيدة ومن دير القمر وصيدا وصور للسلام على البطريرك وتهنئة الاب العام الجديد الذي كانوا يجلون

---

(١) اما منجور الايقونسطاس للصليب الكبير ولصف الرسل فهو عمل يد اخيه المعلم جرجي البيطار المشهور بالنجارة كشهرته بالتقوى والصلاح وكل خير

قدره كثيراً . وقد رأى سليم هذا كله ولم يكن يظن ان يشاهد في الدير ما شاهده من ازدحام الناس وبهجة الافراح والاعياد ، فزاده هذا الامر حباً وشغفاً بالرهبانية وبدير المخلص

وقد استلفت نظره بالاكثر البطريرك اكلمنضوس بحوث بوقار منظره ومهابة شيبته وجمال صوته مع دعته وتواضعه . وكان يشاهده دائماً في الكنيسة يصلي وحده . وربما أوعز اليه غير مرة ان يتلو له على سمعه قانون يسوع الحلو وغيره من كتاب السواعية المخلصية الذي كان قد طبع حديثاً وتوزع على الرهبان .

وكان خاله الشماس بولس دليله ورفيقه في الدير كل تلك المدة . فكان يعتني به وبكل ما يحتاج اليه . فقدمه الى البطريرك اكلمنضوس وعرفه به وبقصده وطلب له منه البركة . وقدمه ايضاً للاب العام الجديد فقبل سليم يده . فسر به الاب العام وبش بوجهه كما كان دأبه مع الجميع ووعده خيراً . لكنه كان في شغل عنه بأمور كثيرة ومهمة واخصها تعيين الرؤساء للاديرة والاناطيش واستقبال الناس القادمين لتهنئته بالرئاسة العامة وللسلام على البطريرك غريغوريوس من كبار رجال الطائفة ورجال الحكومة . ومع ذلك فقد اهتم بأمر سليم ورفيقه وارسلهما الى دير الابتداء بعد اخذ رضى المدبرين الذين قدمهما لهم خاله الشماس بولس . فكانوا يسألونهما كالعادة عما اذا كانا يعرفان القراءة والكتابة وعن عمرهما وقصدهما بالرهبانية وعن معرفتهما اخص

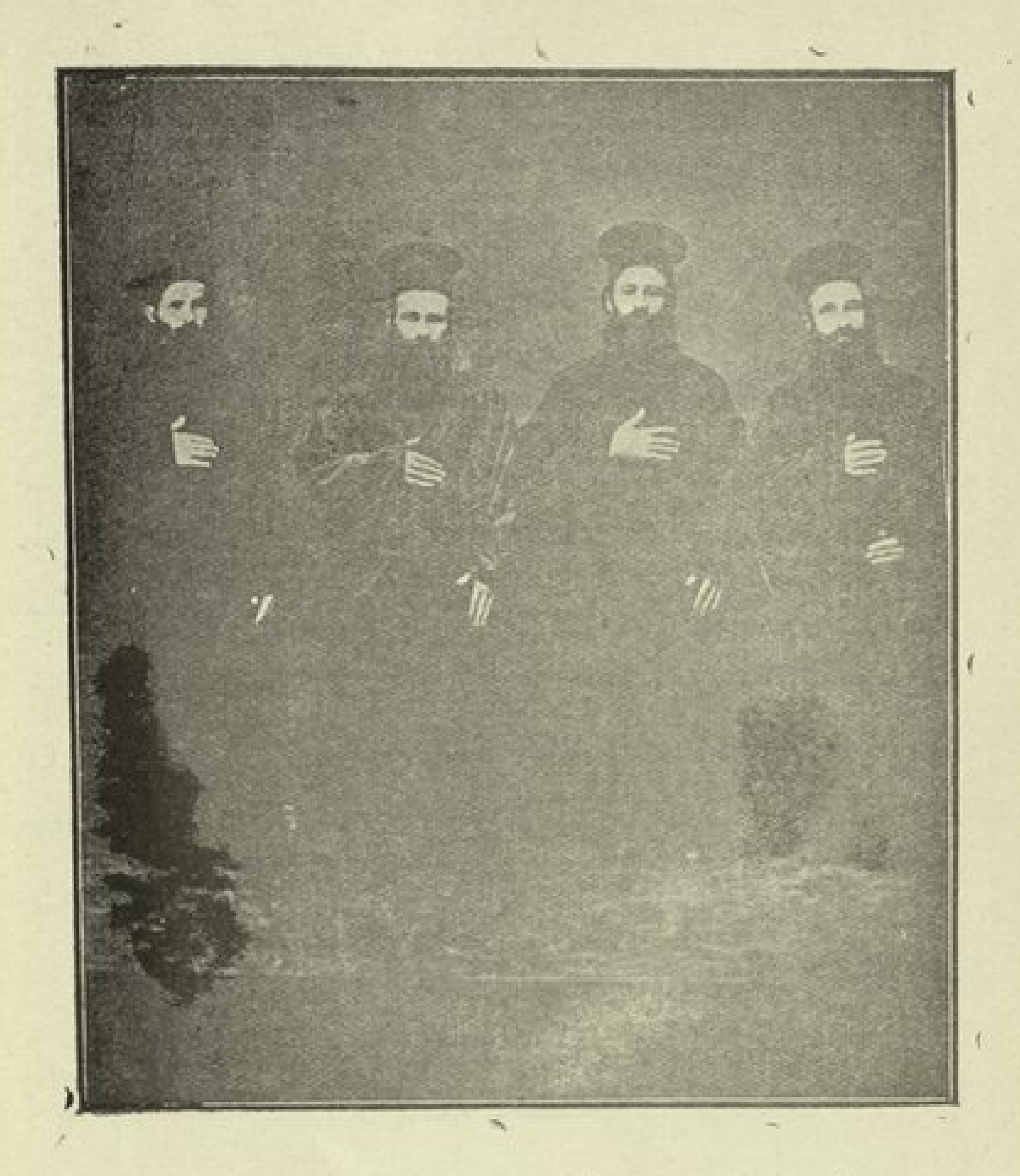
الواجبات المسيحية من التعليم المسيحي . فكان سليم جبور يجاوب الجواب الشافي بدون تردد . لكن اذا سأله احدهم عمّا اذا كان له صوت حسن كصوت خاله كان السكوت جوابه يفسره احمرار وجهه حياء

وكان خاله بولس ذا صوت جميل ويعرف اصول الموسيقى اليونانية والالحان الطقسية . وكان سليم معتاداً منذ صغره سماع صوته في الكنيسة وفي البيت . وكانت كذلك والدته اليصابات ذات صوت جميل وقد ورث عنها اكثر اولادها واحفادها رخامة الصوت الا سليم فكان صوته واطياً هادياً . غير انه كان يطرب لسماعه ترنيم الصلوات الطقسية سواء كان في الكنيسة او في خارجها . وبوسع القارئ ان يقدر كم كان سروره بحضور هذه الاحتفالات العظيمة في دير المخلص وتأثيرها في نفسه منذ اول يوم من حضوره اليه .

﴿ الفصل العاشر ﴾

الابتداء الرهباني القانوني ودوره

لابد ان يكون قد ادرك القارئ النجيب الفرق بين الدعوة الرهبانية وحقيقة الرهبانية التي هي غاية الدعوة واستجابتها والعمل بها . والفرق بين الابتداء الرهباني وحقيقة الرهبانية



الاخوة الرهبان — من اليمين الى اليسار : الخوري بطرس الشامي ب م ٠ الخوري سليمان الشامي ق ب ٠ الخوري مكاريوس الشامي ب م ٠ رئيس دير الابتداء ٠ الخوري يوسف الشامي ب م (صفحة ٣١)

الراهنة بدوام السير في طريق الكمال المسيحي والصبر على صعوبتها الى المنتهى للفوز بالخلاص الابدي .

فان الابتداء ما هو الا مدخل الى الرهبانية . ويقال له تجربة لان طالب الدخول في الرهبانية يمتحن نفسه في هذه المدة هل في طاقته ان يقوم بما تفرضه عليه هذه الطريقة ام لا . وتوصف هذه التجربة بكونها قانونية لانها مرسومة بقوانين الكنيسة المقدسة بمقام ركنٍ واساس للرهبانية بحيث اذا نذر الانسان النذور الرهبانية بدون هذه التجربة كانت نذوره باطلة لكونها جرت من غير معرفة تامة من الناذر بواجبات الرهبانية وفرائضها

فالابتداء في الرهبانية بمقام المدرسة الاعدادية اذ يتعلم المبتدئ بالنظر والعمل او بالكلام الحي والمثل الصالح السيرة الرهبانية والفضائل اللازمة لها . وهذا كما قلنا اساس لا بد منه لثبات الراهب ونجاحه في طريقته الرهبانية . وكان رئيس دير الابتداء الاب مكاريوس الشامي المذكور سابقاً وهو الاكبر سناً بين اخوته الرهبان الثلاثة لابيه وامه . وكان الاربعة ممتازين بالتقوى والعقل وقد شغلوا وظائف عالية في الرهبانية قاموا بها بنشاطٍ ونجاح

وكان قد تعين الخوري يوسف غنام منذ سنة ١٨٦٤ ان يفتقد دير السيدة او المبتدئين ثلاث مرات في الاسبوع لارشادهم وتعليمهم الطريقة الرهبانية وواجباتها . وليعلّم من يراه منهم ذا اهلية علم الصرف والنحو واصول الموسيقى اليونانية (البصلتيكا)

والحان الكنيسة . وبقي على هذا المنوال بعد ان صار رئيساً للمدرسة سنة ١٨٦٦ ومديراً في المجمع الذي انعقد سنة ١٨٧٤ اذ لبث يزور الدير المذكور كذلك

وكان هذا الاب الفاضل مع ما كان عليه من ضعف البنية ووجع المعدة غيوراً نشيطاً جد النشاط في سبيل تعليم اخوانه الرهبان الشبان وارشادهم في طريق الكمال الذي كان فيه كاملاً بالقول والعمل . ومع ما كان عليه من الدعة والانس والتواضع كان شديد المراقبة والسهر على تلاميذه وقد خصه الله بمهابةٍ نادرة مناسبة لذلك . وكان لكلامه حتى في ارشاده البسيط تأثير فعّال يخرق القلوب كان الله تعالى ما خلقه الا ليكون رئيساً ومرشداً ومهذباً للرهبان . وقد عرفناه هكذا بالذات نحن وسوانا . وما كلامنا هذا الا الاقرار بحقيقة الواقع .

وكان الاب مكاريوس المذكور على شاكلة معلمه الخوري يوسف جارياً على منواله في كثير من احواله واعماله . وكان لشدة ورعه وتقواه قد صمم عزمه على ان يقضي كل حياته في دير السيدة راهباً بسيطاً كاحد المبتدئين لا يمتاز عنهم بشيء . وابى ان يرتسم بالكهنوت حتى يضمن لنفسه البقاء في الدير ولا يلتزم ان يخرج الى العالم . الا ان معلمه ومرشده الخوري يوسف اقنعه بقبول الرسامة وضمن له البقاء في دير السيدة من قبل الاب العام ليكون ناظراً او رقيباً على المبتدئين ومعلماً لهم بمساعدته وتحت



الخوري يوسف غنام الزائر الرهباني لدير الابتداء.
ورئيس المدرسة الرهبانية (صفحة ٣٢)

نظره . فقبل مكاريوس ان يرتسم شماساً وكاهناً وكان ذلك سنة ١٨٦٩ في كنيسة صيدا بوضع يد المطران ثاوضوسيوس قيومجي وتعين حينئذٍ وكيلاً لرئيس الدير الاب سمعان ططش . ثم في اول ايلول سنة ١٨٧١ تعين رئيساً للدير المذكور وتسلم الصك القانوني من الرئيس العام الايكونوموس يوحنا كحيل ومن المدبرين اعوانه . وتجددت له الرئاسة من الاب العام الجديد سنة ١٨٧٤ كما ذكرنا . وبقي الخوري يوسف غنام يتردد الى الدير كالسابق ضامناً له المساعدة لتدبير المبتدئين وارشادهم . ولبث معه على اتم ما يكون من وحدة الروح والمحبة بالرأي والتدبير وحسن القصد والغيرة على انجاز العمل الذي فوض اليهما . وبهذا الروح وعلى هذا الشكل نشأ صاحب الترجمة بنعمة الله وحسن توفيقه .

الفصل الحادي عشر

الابتداء بالثوب الرهباني عربون الزي الملائكي

بارح سليم جبور وسليم مرشه دير المخلص بأمر الطاعة الى دير السيدة للابتداء فيه . والدير المذكور يبعد عن دير المخلص مسافة ساعة . وقد تعين بأمر من رومة سنة ١٨٦٥ ان يكون على وجه التخصيص دير الابتداء الرهباني لكونه اكثر مناسبة للاختلاء والانفراد الرهباني

وفي ١٩ من شهر ايلول اتشح بثوب الابتداء الرهباني سليم جبور ابو مراد مع رفيقه سليم مرشه في كنيسة الدير المذكور من يد الاب مكاريوس حسب طقس الكنيسة ودعي بشارة وقد اتشح معهما بثوب الابتداء شاب ثالث من دمشق اسمه ليان من بيت شلهوب ودعي اسمه يوسف . وهو الارشمندريت يوسف شلهوب كاهن مدينة ليڤورنو (Livorno) من مملكة ايطاليا حيث يقيم منذ ٤٥ سنة بخدمة نفوس الروم الكاثوليك الذين في هذه المدينة . وسليم مرشه دعي توما

ومعلوم عند الجميع انه حسب العادة في رهبانيتنا اتباعاً لتقليد قديم يعطى المبتدئ اسم احد القديسين بدل اسمه السابق ليكون شفيعاً له عند الله وقدوةً له في حياته الرهبانية وللدلالة على انه ترك ويجب ان يترك كل شيء في العالم حتى اسمه . وانه يجب ان يبتدئ في الدير منذ ذلك الوقت بحياة جديدة . ولعل الاب مكاريوس لما اختار لسليم جبور اسم بشارة كان قد زار في طريقه كنيسة المدرسة وكنيسة دير الراهبات وكل منها مكرسة كما لايخفى على اسم سيدة البشارة . فرام ان يخصص بهذا الاسم الجميل ابن جبور ابي مراد .

فسر الاخ بشارة اي سرور بقبوله في مصف الاخوة المبتدئين وبلبسه الثوب الرهباني اذ تم له مراده الذي كان يتوق اليه منذ زمان . واستبشر خيراً باسمه الجديد وفرح له بذلك

رفاقه المبتدئون لا لكونه صار واحداً منهم فحسب . بل صار اعزّ اخ اليهم لانه لصفاء سريرته وانبساط نفسه كان يبش طبعاً للجميع ولا ينقبض عن احد . ومعلوم ان بشاشة الوجه من اول دواعي الحب . ومما كان يحببه الى جميع من عاشره انه كان ذا حياء وحشمة في جلوسه ومشيه وحديثه فلم يكن يتكلم الا ليفيد . ولم يكن يتداخل مع احد فيما لا يعنيه . وعلى هذا جرى كل حياته .

﴿ الفصل الثاني عشر ﴾

احوال الابتداء

بكل حق وصواب يقال ان الابتدآء صعب في كل امر . لكن الابتداء في الرهبانية اصعب لانه انتقال من حال الى ضدها . وهو كما لا يخفى انتقال الشاب وهو بعنفوان شبابه الذي يلازمه الزهو وحدة الطبع والبطر الى حال الدعة والسكون والوقار والخضوع التام والزهد في كل شيء حتى في الاهل والعفة التامة عن الحرام وبعض الحلال أيضاً مما توجبه الرهبانية على طالبها كما يظهر لنا هذا باكثر وضوح في هذا الفصل .

كان الابتداء لذلك العهد جارياً في رهبانيتنا على تقليد قديم من عهد الآباء القديسين ولم يزل جارياً منه الى يوم في أكثر الرهبانيات الشرقية والغربية أن لا يأتي الى الرهبانية ولا يقبل

في الابتداء إلّا الشبان البالغون كمال الرشد الذين بعد أن خبروا الحياة وما فيها صاروا لا خوف عليهم من غرور المحال ان ينقلبوا عن عزمهم الى العود الى العالم .

وإذ تغيرت بعض احوال الابتداء القديم ينبغي ان نوضح هنا مفصلاً ما كان عليه الابتداء لذلك العهد من المشقة والصعوبة ليظهر على اتم وجه فضل صاحب الترجمة وفضل الرهبان الاولين بالصبر على مصاعب المعيشة الرهبانية وإتمام واجباتها برغبةٍ وشوق لا يخلو من الغرابة في هذه الايام التي فشا فيها الفتور بين المسيحين وقَلّتْ رغبة الشبان بالرهبانية .

كان المبتدئون في ديرهم المذكور منقطعين عن جميع الناس حتى عن رهبان دير المخلص وعن الذين في المدرسة الرهبانية . فلا يجتمعون بهم أصلاً . ولا يباح لهم ان يكلموا أحداً إلّا باذنِ الرئيس .

وكانوا يقضون اوقاتهم بتلاوة الصلاة الفرضية كاملة مع ترتيل ما يجب ترتيله منها حسب طقس الكنيسة . وتلاوة صلوات كثيرة من نوافل غير فرضية نظير زيارة القربان الاقدس وطلبة العذراء والمسبحة وقوانين كتاب السواعية المعروفة بالدور لكل يوم قانون علاوة عن بيوت المديح التي كانت تتلى جميعها كل يوم بعد صلاة النوم ويشتركون بها كلها جميعاً . ولا يباح لاحد منهم أن يتركها إلّا لضرورة نادرة وباذنٍ صريح من الرئيس . ولم يكن

الوقت المخصص لهذه الصلوات أقل من سبع ساعات كل يوم .

وكانوا يجتمعون في كل يوم لتلاوة فصل من كتاب روحي في غرفةٍ كبيرة يقال لها لسبب ذلك قاعة القراءة الروحية . وكان يليه ارشاد يلقيه عليهم الاب المتقدم في معنى الفصل المذكور لايضاحه وشرحه . وقد يقوم مقامه يوم الاحد تلاوة التعليم المسيحي الصغير مطارحةً بالسؤال والجواب بين اثنين ممن يكون منهم قد حفظوه ظاهراً مع محاضرةٍ صغيرة في ايضاح بعض مسائله من الاب المرشد .

وكان يخصص لهم من الوقت كل يوم نحو ساعتين للدرس وتعلم القراءة والكتابة ومبادئ الصرف والنحو وممارسة الترتيل لقيام طقوس الكنيسة كما ينبغي .

وكانوا هم أنفسهم يقومون بكل خدم الدير اللازمة لهم كما تقتضي ذلك العيشة المشتركة من طبخٍ وعجين والشغل بارض الدير المجاورة كزرع الدخان وقطافه وقطاف الزيتون . وللرئيس أن يوزع هذه الخدم على اصحابها اذا كانت لا تقتضي ان يشتركوا كلهم بها . ولا يكون الواحد منهم مفرداً بعمله بل يكون معه دائماً أخٌ مساعدٌ له .

وكانوا قبل بناء بيت المنام الحالي سنة ١٩١٠ يقيمون في الغرف القديمة التي كانت في مكانه . وكان في كل غرفة اثنان او ثلاثة . وفي كل غرفة حصيرة من القش على قدر الغرفة ولذلك

يقال لها قياس . ولكل مبتدئ فرشة خاصة يستريح وينام عليها . لا يبدلها ولا يجلس الى سواها . وهي كناية عن بساطة من السجاد تطوى على وجهين وفوقها مخدة تحت رأسه ولحاف يتغطى به . ولم يكن لهم أسرة من حديد او نحاس ولا خشب . على انه وان كان مباحاً لبعض الرهبان ان يناموا على تخت من خشب فلم يكن هذا مباحاً للمبتدئين الذين يجب عليهم ان يعتادوا العيشة القشفة الخشنة واماتة الجسد لوجه الله ولاظهار التوبة في أول حياتهم الرهبانية .

وكانت مدة الابتداء سنتين كاملتين بدون فاصل بحيث إذا خرج المبتدئ من دير الابتداء لاي سبب كان ولو باذن رئيس الدير او الرئيس العام يجب ان يعود الى الابتداء من اوله . وعند انتهاء السنة الاولى ترمى له قرعة اولى بالاقتراع السري يشترك به كل رهبان دير المخلص برئاسة الاب العام والمدبرين . فان كان المبتدئ ذا سلوك حسن وسمعة طيبة يلقي له كل واحد من الرهبان قمحة . وإن كان على خلاف ذلك يلقي له شعيرة . ثم تعد حبات القمح والشعير فان تغلب عدد القمح في القرعة عند إحصائها كان له في ذلك خير وبركة . وان تغلب الشعير أنذر المبتدئ بذلك ونصح ليصلح سلوكه قبل انقضاء اجل الابتداء .

وكذلك كان يجري الحال عند انتهاء السنة الثانية اذ ترمى له قرعة ثانية يقال لها قرعة النذر . فان تغلب فيها القمح على الشعير

بشروه به واوعزوا اليه ان يستعدّ لابراز النذر الرهباني . وان كان الامر بخلاف ذلك طرد بالحال من الدير ونزع عنه الثوب الرهباني . إلّا اذا اراد ان يعود الى الابتداء من جديد مع الوعد الصادق منه باصلاح سلوكه مع ضمانة كفيل له من ذوي شأن[1] .

الفصل الثالث عشر

نجاح الاخ بشارة في الابتداء

لا نظن اننا بحاجة الى التصريح بان الاخ بشارة تغلب على كل هذه الصعوبات وصبر عليها الصبر الجميل . بل استسهل كل ذلك بنعمة الله . ولمّا ضربت له القرعة الاولى خرجت كلها او أكثرها قمحاً كالقرعة الثانية . ويشهد بذلك سجل الابتداء الذي تحررت فيه نتيجة القرعتين . وهو محفوظ عندنا الى اليوم . لان حسن سلوك هذا الشاب العاقل ظهر جلياً في دير السيدة وفاح عرف فضائله بين المبتدئين حتى بلغ دير المخلص بواسطة من كان يزور دير السيدة وكنيستها ومن كان من المبتدئين ينتقلون منه الى دير المخلص بعد تمام مدة الابتداء . فكانوا جميعهم يرون الاخ بشارة ممتازاً بين المبتدئين بالتقوى والورع وحرارة العبادة في

(١) كان المبتدئون واهلهم يهتمون كثيراً بنتيجة هذا الاقتراع حتى صار يضرب بذلك المثل عند العامة بصورة السوال : قمحة أم شعيرة . ويستعمل اليوم بدل القمح حصاة بيضاء وبدل الشعيرة حصاة سوداء .

الكنيسة والحشمة والرزانة في جلوسه ومشيه وكلامه القليل منخفض الصوت والنظر .

ولمّا ظهرت فيه هذه الصفات بهذه الاعمال جعله الرئيس قندلفت الكنيسة فسر الاخ بشارة بذلك أي سرور إذ صار يسهل عليه بهذه الوظيفة أن يتمتع بحرية تامة في الصلاة في الكنيسة مع خدمة بيت الله . وكان قد مارسها من قبل في كنيسة مار الياس في زحلة كما سبقت الاشارة الى ذلك . بل لبث يمارسها كل حياته بنظافة الكنائس وزينتها اينما كان . وكان من شأن صاحب هذه الوظيفة القيام بنظافة كنيسة الدير وآنيتها من قناديل وشمعادين مع الاهتمام بخدمة كنيسة السيدة القديمة المعروفة بكنيسة سيدة الوعرة . وعليه ان يقوم من النوم قبل الجميع ليوقظ الاخوة الى صلاة الفرض وان يوقد لهم السرج في غرفهم .

وقبل ان تتم السنة الاولى من الابتدآء عيّنهُ الاب مكاريوس بموافقة الاب المدبر الخوري يوسف غنّام راعياً للمبتدئين ليكون عمدتهُ في رعايتهم وتدبيرهم اذا غاب عنهم . وهذه الوظيفة بين الرهبان نظير وظيفة الناظر في المدارس العلمانية . والعادة ان يختار لهذه الوظيفة من المبتدئين او التلاميذ الرهبان افضلهم عقلا وصلاحاً ليكون امامهم مثالاً حياً بالصلاح والتقوى . وقد قام الاخ بشارة بواجبات وظيفته هذه خير قيام بثبات ونجاح الى ان خرج من مدرسة دير المخلص الى دير القمر سنة ١٨٩١ كما

سيأتي مدة نحو خمسة عشر سنة . ولم يكن سبيلٌ لاحدٍ من الرؤساء كل هذا الزمان ان يشكو منه امراً يقتضي العزل .

وقد روى لنا رفاقه في الابتداء انه من اول امره لم يكن يكتفي بأن يصلي وحده وقت الفراغ من اشغاله . بل كان يحمل رفاقه ان يشاركوه فيها . وكان أحبهم اليه من كان يواصل الصلوات معه . وقد اتخذ وظيفة الراعي وسيلةً ليخدم إخوته الرهبان . ولم يدع سبيلًا لاحدٍ منهم ان يخدمه بشيء . ولو كان مبتدئاً متذكراً وحافظاً دائماً في سلوكه قول المسيح : ما جئت لأُخدَم بل لأَخدُم .

﴿ الفصل الرابع عشر ﴾

تلميذ المدرسة الرهبانية

في ٢٨ ايلول سنة ١٨٧٤ خرج من مدرسة دير المخلص كل تلاميذها الرهبان بعد إنجاز دروسهم . وارتسم فريقٌ منهم كهنةً في ٨ تشرين الثاني من السنة المذكورة بوضع يد البطريرك غريغوريوس يوسف في كنيسة الدير المذكور . واذ لم يكن حينئذ في دير السيدة ولا دير المخلص العدد الكافي من الرهبان الشبان الذين يصلحون للدخول الى المدرسة ويستطعون مواصلة الدرس بقيت المدرسة فارغةً سنة واكثر لكونها مدرسة رهبانية لا يباح الدخول فيها للعلمانيين ولا للمبتدئين ولان قانون

الابتدا، يمنع المبتدئين عن مبارحة ديرهم وعن الانقطاع عن مواصلة رياضاتهم الرهبانية ولذلك اقتضى الحال أن يلتمس الاب العام والمدبرون من البطريرك غريغوريوس يوسف الزائر الرسولي لذلك العهد ان يسمح بتفسيح فوق العادة من قانون الابتداء ليدخل المدرسة المبتدئون الذين اكملوا السنة الاولى من الابتداء من ذوي القرعة المقبولة والسلوك الحسن . وبعد مراجعات كثيرة بهذا الشأن اذن البطريرك مفسحاً لاول مرة ان يبارح المبتدئون دير الابتداء ليدخلوا المدرسة نظراً للاسباب التي اشرنا اليها .

وبناء على هذا التفسيح خرج من دير السيدة للدخول في المدرسة في ١٤ ت ١ سنة ١٨٧٥ نخبة من المبتدئين الذين اكملوا السنة الاولى من الابتداء القانوني من ذوي القرعة الحسنة وبينهم الاخ بشارة ابو مراد راعيهم . وكان معه من رفاقه ممن ثبتوا وارتسموا بعد ذلك كهنة وخدموا الكنيسة والطائفة بغيرة ونجاح الاب سليمان نمير والاب مخايل المعلوف والاب انطون زيادة الذين ارتقوا الى الرئاسة العامة على الرهبانية . ومنهم الاب باسيليوس نحاس والاب جرجس نجيمه وكلاهما صارا مدبرين في الرهبانية . ونجتزئ بذكر هولاء من سواهم ممن ربما كانوا عند الله افضل واكمل .

وكان الاخ بشارة يتخذ من وظيفته سبيلاً لترك الدرس بعض الاحيان ليذهب الى الكنيسة للصلاة . ولكن لم يكن يتوانى في

دروسه ولم يقصر بشيء من واجباته المدرسية اذ كان يعتقد كما كان يقول لنا انه يتمم عملاً صالحاً يرضي الله باتمام امر الطاعة . ولذلك كان ناجحاً في دروسه . وقد درس علم الصرف والنحو في كتاب فصل الخطاب وارجوزة الصرف والنحو والبيان في كتب الشيخ ناصيف اليازجي وعلم المنطق في كتاب الايصاغوجي للاب يواكيم مطران الذي كتبه بخط يده . وكذلك كتب بخط يده كتاب الفلسفة العقلية تأليف الاب العلامة يوسف دموفسكي اليسوعي تعريب المطران يوسف الدبس . وتعلمه على يد استاذ المدرسة الاب اغناطيوس معقد الذي صار مطرناً على بعلبك باسم جرمانوس . وكذلك درس علم اللاهوت الادبي والنظري على يد استاذه الاب روفائيل زلحف الذى ارتسم بعد ذلك مطراناً على صور باسم افتيميوس .

ومن معلميه في المدرسة الذين يجب ذكرهم بالثناء والمديح والرحمة الشيخ اسعد الخوري من رشميا والخواجا خليل فرنسيس من دير القمر والخواجا حنا صاصي من صيدا . وهذا لم يزل حياً افادنا بان تلميذه الاخ بشارة كان نجيباً ولم يكن مقصراً في شيء من دروسه عن زملائه لكن كان ممتازاً عنهم بجزيل تقواه . والثلثة كانوا يدرسون اللغة الفرنساوية وقد ابقوا في المدرسة ذكراً طيباً بحسن سلوكهم .

ومع هذا لم يكن الاخ بشارة يتبجج بمعارفه ولم يكن يجادل في المسائل العلمية احداً من رفاقه التلاميذ في ايام دراسته ولا سواهم ذلك . ولتواضعه ما كان أسهل عليه من قوله لا أعرف . ولم يكن يترفع عن السؤال وطلب الافادة من الناس حتى من تلاميذه بعض الاحيان . ولشغفه بالصلاة والعبادة لم يعد الى مراجعة دروسه العلمية إلا اذا كان مكلفاً بتعليمها عدا اللاهوت الادبي فانه ما برح يواصل كل يوم مراجعته بمطالعة تأليف العلامة غوري ومؤلفات القديس ليغوري . وكان يحضر دائماً المحاورات اللاهوتية التي كان يقوم بها في المدرسة طلبة علم اللاهوت حتى لم يكن يفوته منها شي. . وكان يحضر مدرسة اللاهوت الادبي كاحد تلاميذها إذا لم يكن له شي. يصده عن ذلك .

وقد علم لعدة صفوف في مدرسة دير المخلص كتاب مطالع السعد والاجرومية وكتاب فصل الخطاب ومبادى، القراءة والغرامطيق في اللغة الفرنساوية . وكان يعلم الخط الفرنساوي لكل الصفوف مدة خمسة عشر سنة . لكنه في المدة الاخيرة من حياته ما كان ينطق بكلمة فرنساوية حتى كان يظن كثيرون من معارفه انه لا يعرف منها كلمة . وكان ذلك منه لتواضعه وتجنباً لكل ما يشتم منه الزهو بالعلم والعقل .

ومما يجب ذكره هنا أنه تحت رعايته شرعت الرهبانية

الى مدرسة يسوع المخلص

حضرة الاب الفاضل المحترم

النفس لا زالت ادام الله مقامها مشتاقة لوجهه وان فرغ الدهر جديد لمدرسي ذكر الاحباء فان الالطاف لا تنسى وان بعدت المراحل
نعم مضت مدة ولم اوف ما علي من حقوق الود فكانكم حق القلب غير ان ذلك لا يدعي مبادلة الافكار
ولا يخفى حضرتكم ان كنيسة المدرسة قد تم عمارها بالتمام ولا ينقصها الا ما ينيرها فالتمست الرهبان غيرة اولاد مريم الذين عاشوا
سنين تحت لوائها ان يكرموا على امهم بما يتيسر ويؤول الى زينة معبدها من قناديل شمع وغير ذلك هذا وان التلامذة مستعدون
لتقديم الصلوات لمن يحسن بمثل هذا الاحسان ولا يلزمني ان ازيد في الايضاح اذ اللبيب يعرف الحاجة ثم اختم عبارتي واذي
بعبارات الاحترام لاياديكم

في ٢ ايار ٩٨

مستمد الدعا
احقر القسس
بشارة
...

رسالة كتبها الاب بشارة الى رفاقه بالمدرسة يلتمس بها الاهتمام بزينة كنيسة المدرسة
(صفحة ٤٥)

بتشييد مدرستها الحالية . وكان مع زملائه واخوانه التلاميذ يقضي عدة ساعات كل يوم بالشغل وعمل اليد بنشاط يفوق قوته كما قد شاهدته بذاتي مراراً كأن العمل له و كأنه كان على يقين تام بأنه سينال على ذلك أجراً عظيماً لا تحسب معه شيئاً أجرة الفاعل المأجور . وما خرج من المدرسة إلّا كان قائماً كل بناء الطابق الارضي منها والقسم الجنوبي من الطابق العلوي مع الكنيسة التي نظرته مراراً كثيرة يرفع من ارضها التراب وركام الحجار بعد فك قالب عقدها . وكان اول المهتمين بزينتها بعد تبليطها بالرخام . ويوم تكريسها بالميرون المقدس رقّاه الطيب الذكر المطران باسيليوس حجّار الى رتبة خوري وألبسه الحجر في قداسه الاول فيها سنة ١٨٨٨ على غير علم سابق منه وبدون رضاه حسبما شاهدت ذلك بنفسي حينئذ مع من حضر .

﴿ الفصل الخامس عشر ﴾

النذور الرهبانية

ما كادت تتم السنة الثانية من الابتداء على الاخ بشارة حتى ألقيت له القرعة الثانية للنذر الرهباني فكانت بيضاء حسنة . وبعد ان استعد لابراز نذوره احسن استعداد بالرياضة الروحية بالاختلاء التام بضعة ايام كالعادة الجارية في رهبانيتنا ابرز نذوره الرهبانية في ٢٤ ايلول سنة ١٨٧٦ في كنيسة المدرسة الصغيرة التي كانت

لذلك العهد في الطابق الارضي منها بالقداس الاحتفالي الذي قام به الاب العام الخوري سمعان نصر مع المدبر الرابع الخوري يوسف غنام رئيس المدرسة ومعلميها بحضور تلاميذها الرهبان والمبتدئين ونذر معه رفيقاه اللذان توشحا معه قبلًا بثوب الابتداء .

لا نقول شيئاً بشأن نذوره وعظم اعتباره لها الا ما تحققناه منه رأساً بالعرض ومن رفاقه الرهبان . لكن يجب هنا تنبيه القارئ العلماني الى امر مهم وهو ان الرهبان يفرحون يوم ابرازهم النذر الرهباني فرحاً جزيلًا بالرب اكثر من فرح الشاب العلماني يوم عرسه . ويفرح له فيه جميع اخوته الرهبان لانهم يعتبرون انه ولد ولادة جديدة في الرهبانية وصار كواحد منهم بقوة العهد الذي تتضمنه النذور الرهبانية اذ يقطع معهم عهداً مقدساً امام الله وكنيسته بان يعيش معهم عيشة مشتركة ويخضع معهم لقانونٍ واحدٍ ولأبٍ واحد هو ابوهم العام . واذ لا نستطيع ان نوضح بالتمام اغتباط الاخ بشارة بنذوره الرهبانية وشدة شوقه الى ابرازها وإخلاص نيته فيها ندع ذلك للقارئ النجيب . وقد يسهل ادراك هذا بأكثر وضوح على من تقرَّب اليه في حياته وعرف شيئاً من ورعه ومحبته لله .

على اني لا ازال اذكر شيئاً مما كان يقول لي بهذا الشان عندما ازمعت ان ابرز نذوري الرهبانية وانا تحت رعايته في المدرسة سنة ١٨٨٦ فاورده هنا بمعناه وهو ينطبق على اقوال

علماء اللاهوت ومعلمي الكنيسة القديسين بهذا الشأن :

النذر الرهباني امرٌ عظيم جداً . وله قدرٌ عظيم عند الله ومفعول عظيم في نفس الراهب الناذر . فانه يبرره من كل اثمٍ وخطيئة سابقة . ويجعله باراً مقدساً مكرساً لله بجملته كانه خارجٌ من جرن العماد جديداً . لانه موت اختياري لاجل الله مقرون بالايمان والرجاء والمحبة الكاملة لله فوق كل شيء . ولذلك تكون صلاة الراهب الناذر مقبولة عند الله اتمّ القبول واعماله كلها جزيلة الاستحقاق .

وكان من عادته ان يلازم الراهب الناذر يوم نذره ليشاركه في صلواتهِ الخاصة . وكان يملي عليه ارادته بتخصيص الصلوات بمن يراه بمحبته محتاجاً اليها كتلاوة خمس مرات ابانا والسلام لاجل راحة نفوس المنقطعين ومثلها لاجل ارتداد الخطأة الى التوبة ونظيرها لاجل ارتداد الهراطقة والمنشقين الى حظيرة الكنيسة ومثلها لاجل راحة نفوس والدينا واقاربنا ولاجل نمو الرهبانية وتوفيق اعمال الرؤساء وتقديس اولادها وخلاص نفوسهم ولاجل نجاح المدرسة وتلاميذها وثبات المبتدئين في دعوتهم الرهبانية وغير ذلك من الوجوه الكثيرة التي كان يقصدها عادة في صلواتهِ لله تعالى مما يدل على فرط غيرته على خلاص النفوس ومحبته الصادقة لجميع الناس وخير نفوسهم . وقد اعتاد تلاوة مثل هذه الصلوات بهذه الوجوه لاصحابها الى آخر حياته . وكان يجعلها

على نفسه فرضاً واجباً بداعي المحبة المسيحية الخالصة .

﴿ الفصل السادس عشر ﴾

رسامته شماساً وكاهناً

بعد ان اتمَّ الاخ بشارة دروسه مع اخوانه الرهبان في مدرسة الدير كما سبقنا ضربت لهم في شهر اذار سنة ١٨٨٢ قرعة الرسامة في كنيسة دير المخلص حسب العادة . وكان في الدير حينئذٍ الطيب الذكر باسيليوس حجَّار مطران حوران الذي كان قد تعين زائراً رسولياً مع البطريرك غريغوريوس يوسف منذ سنة ١٨٧٥ وأخذ حينئذٍ على نفسه القآء مواعظ الرياضة الروحية السنوية في الصيام الكبير في كنيسة الدير .

ففي ٢٥ اذار سنة ١٨٨٢ احتفل المطران المذكور بقداس عيد البشارة في كنيسة سيدة البشارة للراهبات قرب دير المخلص بمساعدة الاب العام وبعض المدبرين . وفي اليوم التالي ٢٦ اذار احتفل كذلك بقداس حبري في كنيسة سيدة البشارة في المدرسة ورسم فيه شمامسة تلاميذ المدرسة وبينهم الاخ بشاره الذي يصح ان يقال عنه إنه قبل الرسامة مع اخوانه الرهبان بطاعة عمياء اذ لم يكن له ادنى رغبة فيها . وما كان امر تقدمه الى الرسامة بالامر اليسير الهين لولا انه اعتاد الطاعة الكاملة لرؤسائه في كل شيء .

وفي آخر السنة المدرسية خرج التلاميذ رفاقه من المدرسة الى دير المخلص والى الاديرة التابعة له . وبعضهم ذهب لزيارة اهله إلاّ الشماس بشارة . فانه بقي في المدرسة راعياً ولم يرد ان يذهب الى زحلة لزيارة اهله مع بعض إخوانه الرهبان إجابةً لطلب والديه وقد امتنع عن ذلك زهداً واماتة لوجه الله . وكانت زحلة حينئذٍ من اهم مصايف لبنان وكان يقصدها لقضاء الصيف فيها كثيرون من دمشق وبيروت .

وفي ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٨٨٢ رسم البطريرك غريغوريوس فريقاً من الشمامسة رفاقه كهنة في كنيسة دير النبي الياس في رشميا اذ كان في عين تراز الا ان الشماس بشارة ابى التقدم الى الرسامة مع اخوانه تواضعاً منه واعظاماً لشأن درجة الكهنوت التي كان يعد نفسه دون قدرها . وكان يقول انه لا يستطيع ان يقوم كما ينبغي بما توجبه على صاحبها من القداسة . واذا الحَّ عليه بعض الرؤساء بهذا الامر كان جوابه في الغالب السكوت او كان يقول لهم : « انا ما جئت الى الرهبانية الا لاخلص نفسي لا لكي ارتسم . » وكان يطلب التأجيل والامهال . وكان رؤساؤه احتراماً لفضيلته وتقواه يكرهون ان يرغموه على قبول الرسامة وان كانوا على يقين من انه كان أكثر استحقاقاً من سواه . وتحققوا أن رفضه الرسامة كان عن تواضع لا رئاء فيه ، وكان الخوري يوسف غنّام ليثبته في فضيلته وليزيده اتضاعاً لا يلح عليه بذلك

شأنه مع كل تلاميذه . والرهبان الذين كانوا على اتصال معه كانوا يراجعونه بهذا الشأن ولا سيما رفيقه الاب مخائيل المعلوف الذي تعين حينئذ أن يكون في المدرسة استاذاً ومساعداً للرئيس فقد ذهب كل سعيهم سدى .

وفي شهر آب سنة ١٨٨٣ عاد الى دير المخلص المطران باسيليوس حجار ليشرف بذاته على اعمال المجمع الرهباني العام كالعادة في اول ايلول كما تقتضي وظيفته بالزيارة الرسولية وانتخب فيه رئيساً عاماً الخوري الياس حجار الذي كان وكيل الرهبانية في رومة وانتخب مدبرين معه الخوري يوحنا كحيل والخوري سمعان نصر السابق ذكرهما مع الخوري اكلمنضوس عبسى الذي لم يكن أقلّ شأناً واعتباراً منهما عند الرهبان وأصحاب الزيارة الرسولية لبعد نظره وغيرته على مصالح الرهبانية وحسن إدارته في جميع الوظائف التي قام بها في حياته . وكان هذا الاب على اتصال مع الاب بشارة بأهله في زحلة وفي الرهبانية وقد عزّ عليه ان لا يراه مرسوماً بعد رسامة رفاقه . فأخذ يخاطبه بهذا الشأن ليقنعه بقبول الرسامة ، وإذ رأى أن كلامه معه يذهب سدى عرض أمره على المطران باسيليوس وكلفه أن يهتم بشأنه ويضع يده عليه برسامته كاهناً .

وكان المطران المذكور شديد الغيرة على الرهبانية وعلى تقدم اولادها في كل صلاح . وكان كثير التحبب الى الجميع باظهار

اهتمامه في مصالحهم . وكان يلتمس الفرص المناسبة لذلك ولا يدعها تذهب سدى . وكان من شأنه ان لا يطرق باباً ولا يلتمس من أحد امراً الا بعد أن يكون قد سخر بتمهيده من يعتمد عليهم . وهكذا كان شأنه مع الاب بشارة فانه بعد أن راجعه اصحابه بهذا الشأن أخذ يخاطبه تارة وحده وتارة بحضرة بعض أصحابه . وكان يأتيه مرة من باب الطاعة الواجبة عليه للرؤساء إجابة لدعوة الله بصوتهم . وتارة من باب كمال التقوى ومحبة الله بخدمة القريب بالكهنوت . وحيناً من باب التودد اليه بمحبتهِ الخاصة له لتقواه وحسن طاعته لرؤسائه . وحيناً يأتيه من باب التونيب على رفضه الرسامة . وكان المطران مع جلالة قدره وبساطة كلامه يبش بوجهه كشأنه مع كل من يطلب اليه امراً . فقال له مرة : أما تؤمن بفاعلية نعمة الله بسر الكهنوت ؟ او ما سمعت قول المطران الراسم في افشين الرسامة : النعمة الالهية التي في كل حين للمرضى تشفي وللناقصين تكمل الخ . . او لست الان أفضل من شاول قبلما جعله السيد المسيح رسول الامم ؟ وهل اضطهدت كنيسة الله مثله . ألست أفضل من اوغسطينوس قبل ان دعاه الله دعوته الشهيرة ؟ وهل ارتكبت خطايا قدر خطاياه ؟ وهل أنكرت المسيح وجحدته مثل بطرس الرسول وحلفت امام الناس اني ما اعرفه ؟ لا شك أنك لم تبلغ هذا الحد . وكيفما كان الحال يجب ان تؤمن أن قوة الله بالضعف تكمل . وما عليك إلّا ان

تتواضع وتطيع متكلاً على الله وتصفي نيتك لخدمة الله ولمجده . ثم قال له اخيراً « أنا باقٍ هنا ولا اترك الدير حتى ارسمك ونفرح بك »

على ان المطران لبث حقيقة بالفعل في دير المخلص بعد نهاية المجمع الى اول سنة ١٨٨٤ لان الخوري الياس حجار الذي انتخب اباً عاماً وهو في رومة طلب من البطريرك اعفاءه من الرئاسة العامة وسعى بذلك لدى الكردينال رئيس مجمع انتشار الايمان . وكان بقاء المطران في دير المخلص ضرورياً لاسباب كثيرة اخصها مراسلة البطريرك ورومة بشأن الاب العام وطلبه للحضور الى دير المخلص لاستلام زمام الرهبانية ومنها مشاركة المدبرين بتعيين رؤساء الاديرة الصغيرة والوكلاء .

وقد سمح الله في تلك السنة بموت مراد اخيه في ٢٨ تشرين الاول . وبلغه هذا الخبر من والده الذي طلبه الى زحلة ليكون عزاء لوالدته بعد فقد أخيه التي لسبب شدة حزنها عليه اصابها مرض شديد اقعدها مدة طويلة . ولكنه ابى ذلك ولبث في المدرسة يبكي أخاه ويصلي لاجل راحة نفسه وتعزية والدته وشفائها وقد اتخذ رؤساؤه هذا سبيلاً لان يراجعوه بقبول الرسامة ليقدس لاجل راحة نفس أخيه . وبعد الجهد في سبيل ذلك تقرَّر امر رسامته وكتب صك[1] الرسامة مؤرخاً في اول كانون الاول لكن

---

(١) كتب الصك بخط الخوري يوسف غنام بامضاء المطران الراسم مؤرخاً في اول كانون الاول ١٨٨٣ كما يرى ثم زاد عليه بعد ذلك المرتسم بخط يده « ثاني عيد الميلاد »

المجد لله دائما

الحقير في الكهنة باسيليوس رئيس اساقفة [illegible] وحوران
وزائر رسولي على الرهبنة المخلصية

اعلام

لكل واقف عليه وناظر اليه من سائر سادتي رؤساء الكهنة الجليلين واخوتنا الكهنة الموقرين واولادنا المحترمين وسائر الشعب المسيحي الكريمين
اننا [illegible] ولدنا الروحي الشماس بشارة [illegible] بعدما [illegible] دير المخلص [illegible] الباسيليين [illegible]
زيارتنا الرسولية على الرهبنة المخلصية [illegible] بنعمة الروح القدس [illegible] كاهنا [illegible] ابينا الجليل في القديسين
[illegible] باسيليوس الكبير رئيس اساقفة قيصرية الكبادوك في كنيسة دير المخلص في قداسنا [illegible] هذه الوثيقة [illegible]
ورفع كل شك وريبة [illegible] تحريرا في [illegible]

[illegible]

صك رسامة الاب بشارة كاهناً (صفحة ٥٢)

سيدي الوالد المحترم دمتم بخير

لا يصفو لامرئ كاس مسرة في هذا الدهر الخؤون بل الراحة الحقيقية لمن يبلغ السعادة الخالدة ومن يضع ثقته في هذا الدهر . قد غمني جداً والبسني حلة الحزن والكمد خبر ما اتى بخاطركم بانتقال سيدتي الوالدة المثلثة الرحمة تغمدها الله بجزيل الرضوان غير اني لم تفتني بضرورة انحلال هذا المركب ونظر المجد المعد للذين يحبون الله ويحتملون بصبر بلايا هذا الدهر قد تعزيت بجزيل التعزية لتكاثر وفور ما كانت عليه المرحومة من التقوى والفضائل السنية وجزيل الصبر على مرارة الشدايد التي اخذها من الباري سبحانه وتعالى ليزيد ثوابها ويعظم مجد الله وقدسه الذي لا يضيع اجر العاملين فالصبر يا سيدي والتعزية يا مولاي على ما افتقدكم به الباري ليزيد ثوابكم لان التجارب هي علامة المختارين فاملي منكم يا سيدي ان تطووا الطبيعة هواها وتكونوا قدوة للغير بالصبر وتسليم الارادة للعناية التي هي تدبر كل شي هذا ورجائي بالرب الكلي الرافة ان يمد المثلثة الرحمة بجزيل الرحمة ويسكنها مقر الطوباويين ونعيم الابرار والصديقين ويرطب فؤادكم بندى التعزية والصبر ويخلد لي ذكر الجليلة ما نحا المرحومة الراحة وعنايتكم وجميع من يحويه حماكم البقا وطول العمر مولاي

في ١٦ تموز

مسلم عليها ولدكم الاب بشارة ... ابو مراد

رسالة الاب بشارة الى والده تعزية بموت والدته (صفحة ٥٣)

لم تتمَّ رسامته إلّا في ٢٦ منه الذي هو ثاني عيد الميلاد .

ولشدة حزن والدته على موت أخيه مراد بعنفوان شبابه مرضت مرضاً شديداً اعيا الاطباء شفاؤه وتوفاها الله في ٢٩ حزيران سنة ١٨٨٤ بعد سبعة اشهر من موت ابنها مراد وكانت في كل مدة مرضها قدوة صالحة بصبرها على مرضها وثباتها على فضيلتها وتقواها . وكانت تواصل المناولة ثلاث مرات في الاسبوع كما كانت تفعل ذلك قبلاً بحال الصحة . ولم يزل لها ذكر صالح في زحلة في نفوس اقاربها ومعارفها بتقواها وحبها للفقراء وبتربية اولادها . وقد حفظ لنا الاب بشارة بخط يده صورة المكتوب الذي كتبه الى والده تعزية له بموتها .

﴿ الفصل السابع عشر ﴾

الكاهن الصالح

اعتبارات

ما تقدم الاب بشارة الى المذبح ليرتسم كاهناً إلّا بعد أن تحقق دعوة الله له الى هذه الخدمة السامية التي كان يتورع منها كثيراً كما قدمنا في الفصل السابق . وقد أفضى إليَّ بكلامٍ في هذا الشأن مرةً فقال لي ما معناه : إنَّ صوت الطاعة الصادر بواسطة الرؤساء هو ترجمان إرادة الله حسب تدبير العناية الالهية

بكنيستهِ . ولولا ذلك لكانت امور الكنيسة فوضى تتنازعها أهواء الافراد . إذ بعضهم يريد ما لا يريده الله . وبعضهم يرفض ويأبى ما يريده الله . إنّ صوت الرؤساء سندٌ نعتمد عليه وقت الحاجة أمام الله بأننا ما اردنا الكهنوت على هوانا . ونستطيع ان نقدمه حجة وبرهاناً على أننا ما دخلنا هذه الخدمة إلّا لنخدم الله تعالى والنفوس المشتراة بدمه . لكن الويل لمن يميل عن هذا السبيل يمنة او يسرة . والويل له ثم الويل إذا كان يتمادى بالخروج عن هذا السبيل ولا يرجع اليه بالتوبة الصادقة الفعّالة .

فيحق لنا أن نقول — ويشهد معنا كل من تقرّب الى هذا الاب الفاضل — إنهُ ما حاد عن هذا السبيل اصلاً . بل سار فيه الى النهاية بثباتٍ نادر بفضل نعمة الله القادرة على كل شيء .

في أول رتبة الرسامة بموجب طقسنا يقدم اثنان من الشمامسة او الكهنة الطالب أن يرتسم الى المذبح الكبير حيث يكون جالساً الحبر الراسم واضعين أيديهما على عنقه ويحنيانه وهما يناديان بترتيل من اول مدخل الكنيسة الى أن يصلا به أمام الحبر الراسم بقولهما : هذا هو العبد المختار من الله الاب البسيط والابن الوسيط والروح القدس البارقليط الشماس فلان يتقدم ليرتسم كاهناً على مذبح كنيسة كذا من يد الحبر الجليل السيد فلان . . . .

وبعد ان يسجد امام المذبح إزاء الباب الملوكي يسجد

لايقونة السيد المسيح الى يمينه ويقبلها بتقوى وخشوع ويفعل كذلك امام ايقونة السيدة والدة الاله ثم امام الحبر الراسم ويقبل يده فيوعز اليهم بالدخول الى الهيكل من الباب الملوكي . فيدخلان ويطوفان به حوالي المذبح الكبير ثلاث دورات وايديهما على عنقه يحنيانه بالسجود ويقبل المذبح من اربع جهاته . ولا يخفى ان هذا الطقس رمزٌ جميل وبليغ يدل على ان المرتسم لا يتقدم الى الرسامة من ذاته . بل ان الله اختاره بصوت الكنيسة والشعب المسيحي لخدمته تعالى بالكهنوت ولخدمة مذبحه الذي يجب ان يكون نقطة دائرة اعماله وهدف نظره كما يدل على ذلك طوافه حوله

ولا ريب ان مضمون هذه المناداة مع ما يتبعها من الرموز والطقوس تنطبق تمام الانطباق على الاب بشارة عبد الله المختار منه تعالى ومن رؤسائه القانونيين . فانه تقدم الى مذبح الله للرسامة خاضعاً عنقه وارادته لارادة الله وارادتهم بكل بساطة حسب اختيار نعمة الله له . ولا اقول هذا من باب الخيال او الافتراض . بل هو الواقع كما يحققه سلوك هذا الاب الفاضل كل حياته كما عرفه الجميع

ومما امتازت به رتبة الرسامة من الامور الجليلة التي لا سبيل لان ينساها الكاهن مدى عمره ان الحبر الراسم بعد ان يكون تمم رتبة الرسامة وقدّس القربان بالاشتراك مع المرتسم والكهنة

الذين معه يأخذ الجوهرة بيده عن الصينية ويدفعها ليد الكاهن المرتسم جديداً قائلاً له : « خذ هذه الوديعة واحفظها الى مجيء ربنا يسوع المسيح لانه عتيد ان يسألك عنها » . فيتناولها المرتسم ويذهب واقفاً بها وراء المذبح مقابل الحبر الراسم وهو ينظر اليها بعين الجسد ويتأمل بجوهرها بعين الايمان مقروناً بعواطف الرجاء والمحبة بقدر ما في قلبه من التقوى والخشوع .

وعلى ما اذكر ان الاب بشارة كان يحفظ هذا التذكار الجليل بتمام الورع وكان يكرره مع قول الله لحزقيال النبي وهو يهتز من شدة تأثيره في نفسه . اني اقمتك ديدباناً على هذا الشعب وكل نفس تهلك اطلب نفسك عوضها . (حز ٣ : ١٧)

وهذا التذكار الرهيب كان يمنعه في اول الامر عن الخروج الى العالم خوفاً على نفسه من الاخطار التي تقع فيه . وصار يدفعه بعد ذلك الى أبعد وأعظم ما يكون من اعمال الغيرة على خلاص النفوس بالخدم الكهنوتية . ولاسيما سماع اعتراف كبار الخطأة وارجاعهم الى التوبة بعد ان تمادوا كثيراً في الخطيئة . فكان يقضي بعض الايام نحو سبع ساعات في كرسي الاعتراف مع انه قضى اولاً سبع سنوات بعد سيامته كاهناً لم يسمَع اعتراف احد . لانه كان يتقي الله كثيراً في خلقه ويخاف من شدة وعظم المسؤلية على نفسه في هذا الامر الخطير .

ولا يخفى ان عمله هذا في كلا الحالين امثولة مفيدة للكهنة

الشبان ليستعدوا في اول خدمتهم الكهنوتية لسماع الاعتراف بدرس كتب اللاهوت اللازمة واستكمال ذلك بالخبرة الشخصية واكتساب الفضائل واماتة اهوآء النفس ليصلح الكاهن ان يكون قائداً للعميان في ظلام الاهوآء البشرية والأكان كالاعمى الذي يقود اعمى ٠

الفصل الثامن عشر

تذكاراتي الخاصة

في اول سنة ١٨٨٤ حضرت الى دير المخلص قاصداً الترهب فيه واذ قبلني الرؤسآء ارسلوني الى دير السيدة المخصص بالمبتدئين ٠ ومن اجمل تذكارات الصبا التي احفظها في ذهني من تلك الايام في هذا الدير المقدس ذكر ما يأتي وما كان يحكيه لي رفاقي عن الاب بشارة وتقواه ٠ فاذا مرّ التلاميذ بجوار دير السيدة الى النزهة ومعهم الاب بشارة كان المبتدئون كلهم يتطلعون اليه بشوق ويشيرون اليه باحترام ٠ ومما اذكره بهذا الشأن قول احدهم ممن كان يعرفه : انّ ما يقال من المديح بالاب بشارة هو حقيقة مجردة لا مبالغة ولا زيادة فيها

وكنت عند سماعي لمثل هذا الكلام عنه أشعر بشوق في نفسي الى ان أرى هذا الاب الفاضل والراعي الصالح ٠ ولم يكن

لي سبيل الى ذلك لانه كان محظوراً على المبتدئين الاجتماع بالرهبان في اي محلٍ كان . وما زال يزداد شوقي هذا الى ان قيل لي ذات يوم من سنة ١٨٨٥ اني من المنتخبين الى المدرسة الرهبانية . فسررت بهذا وكان سروري بتحقيق أملي هذا والحظوى بأن اكون من رعيته يعادل رغبتي بأن أرى هذه المدرسة وأقيم فيها الى ما شآء الله . وهو اول ما يصبو اليه كل شاب يقصد دير المخلص . ولذلك كان يوم انتقالنا من دير السيدة الى المدرسة المذكورة ١٣ ايار سنة ١٨٨٥ يوم فرح وسرور شامل كأنه عيد من اكبر الاعياد . وكنت اشعر حينئذٍ بسرور خاص ربما لم يكن يشاركني به احد من رفاقي وهو سروري بمشاهدة الاب بشارة وان اكون من رعيته وتلاميذه .

واول ما متعنا به نظرنا بعد خروجنا من دير السيدة مشاهدتنا دير المخلص العامر الذي زاد شوقنا اليه بعدنا عنه في دير الابتدآء وهو اول رغائبنا في الرهبانية . وبالوقت نفسه شاهدنا بجانبه المدرسة المعدة لان نكون فيها . ولما دخلنا اليها صحبة الاب الطيب الذكر الخوري نقولا هرمس استقبلنا فيها الاب بشارة بوجه طافح بشراً وشعرنا حينئذٍ ان سروره بحضورنا كان يعادل سرورنا وان كان صامتاً اذ لم يكلمنا بأكثر من اهلاً وسهلاً .

وبعد قليلٍ استقبلنا الاستقبال الرسمي المرحوم الخوري

مخائيل المعلوف الذي كان يقوم مقام رئيس المدرسة الطيب الذكر الخوري يوسف غنام الذي كان حينئذٍ مريضاً في صيدا . وكان خطابه الاول لنا في هذا الاستقبال موجزاً بسيطاً . لكنه كان بليغاً في نفوسنا ومطابقاً لواقع الحال . وخلاصته : « كما ترون امامكم راعيكم الاب بشارة ورعيته الاخوة الذين هم اكبر منكم اعملوا نظيرهم . وكفاكم هذا الان »

وعلى الحقيقة إنَّ كل ما شاهدنا بعد هذا الخطاب من الاب بشارة الراعي الصالح ومن رعيته كان شرحاً وايضاحاً لهذا الخطاب الوجيز . واتضح لنا حينئذٍ قوة تأثير المثل الصالح في النفوس لان سلوك الجميع كان مثالاً او امثولة حية تجري كل يوم امامنا على قاعدة واحدة من التقوى والرزانة والصلاح

وكان الاب بشارة على ما يرى في صورته حسن السمت تام الخلق لم يشوه وجهه ولا بدنه بعيب اصلاً ولا عرضاً . وكان دائماً نظيف الثوب والوجه مشرق البياض تام الصفاء كما يظهر هذا في صورته وكان يغلب عليه الاحمرار ولا سيما في الصلاة والقداس ، وعند ما يمدحه انسان ايًّا كان . وكان ذا لحية متوسطة طالت عند ما شاخ . ومن حينما ترهب لم يقص شعر رأسه حتى كان له من شيبته في آخر حياته هالة جميلة بيضاء حول وجهه . ولكن لم يكن يبالي كثيراً بزينة ثيابه وهندامها .

﴿ الفصل التاسع عشر ﴾

بومباته

ينبغي ان اصف هنا ما عرفته بذاتي حينئذٍ من حياته في المدرسة واعماله اليومية الاعتيادية التي لم يكن له سبيل لان يخفيها مع ما كان عليه من شدة الحرص على كتمان اعماله الصالحة لئلاً يمدح عليها ويخسر بهذا المديح رضى الله الذي كان غاية قصده بها . وقد جرى عليها دائماً بثبات مكين من اول حياته الرهبانية الى آخر دقيقةٍ منها . فانه لم يغلب مطلقاً من كللٍ ولا ملل ولا فتور البتة . او لم يكن يعرف الملل والضجر ابداً مما يدل على ان هذه الاعمال كانت تصدر عن نعمة الله التي هي فوق ناموس الطبيعة ولا تتغير .

الرجل النشيط يقوم من نومه باكراً الى عمله ولا يطيق الانحباس في فراشه . وعلى هذا جرى الرهبان بموجب رسومهم وتقاليدهم . وقد اعتاد رهباننا في دير المخلص والمدرسة التابعة له ودير الابتداء ان يقوموا من النوم بين الساعة الرابعة والخامسة بعد نصف الليل . واما الاب بشارة فقد اعتاد من اول أيامه في الرهبانية أن ينهض من النوم قبل الساعة الثالثة . وقد ابصره كثيرون ممن اتفق لهم ان يناموا معه في غرفة واحدة — واناً

واحد منهم — يقضي ساعات طويلة من الليل وهو راكع يصلي . ونستطيع ان نقول بكل تأكيد وصدق انه لم يكن ينام قطعاً خمس ساعات في اليوم .

وكان عنده ساعة ذات منبه يعتمد على صوته لئلا يغلب عليه النوم لطول سهره . وكان يضع هذا المنبه بقرب رأسه . فاذا سمعه يدق اوقفه حالاً لئلا يزعج بصوته من يكون نائماً في غرفته او بجوارها . ثم يركع حالاً للصلاة وتقديم افعاله لله في يومه المقبل . ثم يغسل يديه ووجهه ويسرح شعره ويعود الى الصلاة الى ان يحين الوقت المعين لقيام التلاميذ من نومهم . فكان يوقظهم هو بنفسه . فيقرع باب كل غرفة قائلا : المجد لربنا يسوع . ويضيء القنديل الذي فيها بشمعة بيده وبعد ان يكون انار كل القناديل اللازمة في اماكنها يذهب الى الكنيسة فيضيئها ويقضي نصف ساعة في الكنيسة راكعاً بصلاة حارة تستغرق كل قوى نفسه . ثم يقرع الجرس فتأتي التلامذة الى الكنيسة . فيتناول المبخرة ويبتدئ بصلاة الفرض من التاسعة الى الساعة الاولى . ثم يبتدئ بخدمة القداس الالهي بعبادة وخشوع واتقان حافظاً الطقوس والرموز التي تفرضها الكنيسة . فلم يكن يلتفت برأسه ولا بنظره الى احد مطلقاً . ولم يكن يهمه شيء الا اتمام القداس الالهي بالورع والاتقان الواجب له . وكانت يداه مرفوعتين في قداسه الى ما فوق اذا لم يكن ما يشغلها بعمل او اشارة طقسية .

ولم يكن ذا صوت موسيقي مطرب . لكن كان صوته جلياً واضحاً لا خنة فيه ولم يكن كريهاً او شاذاً . ولم يكن يسقط كلمة ولا حرفاً بصلواته الجهرية في الكنيسة . بل كانت تخرج من فؤاده بغنة خاصة يدرك السامع انها صادرة بعبادة وتقوى من فؤاده . وبعد القداس وصلوات الشكر العامة يقضي التلاميذ كل لوحده في التأمل او الصلاة العقلية نصف ساعة كان الاب بشارة يقضيها كلها راكعاً في وسط الكنيسة وهو يحجب وجهه بيده حتى لا يرى شيئاً ولا يراه احد . فيسترسل فيها لابراز عواطف الشكر والمحبة والتضرع لله بكل قوى نفسه .

ثم يصرفنا او يذهب بنا الى بيت المائدة لتناول الفطور او الترويقة . ويأخذ كتاب صلوات خشوعية يتلو منها ما يحب وهو واقف في بيت المائدة يرعى التلاميذ ويراعي حاجاتهم . ثم يصرفهم الى النزهة في دار المدرسة نحو ربع ساعة ويدخل بهم الى غرفة الدرس العامة وهو لا يفتر من تلاوة صلواته . وفي وقت الدرس كان يركع على مسطبة مرتفعة قليلاً في وسط غرفة الدرس وامامه طاولة صغيرة عليها كتبه (لانه كان يرفض ان يجلس على المنبر الذي يجلس عليه الرئيس والمعلمون) فكان يقضي نحو ساعة على هذه الحال بالصلوات الحارة ثم يتناول كتاب اللاهوت الادبي فيدرس فيه الى ان ينتهي وقت الدرس . الا اذا كان يطلب منه ان يعمل عملاً تقضيه واجباته نحو التلاميذ او الرئيس او المعلمين .

وبعد فرصة قصيرة كان يقرع الجرس ويوزع التلاميذ صفوفاً الى مدارسهم الخاصة . واذا لم يكن له منهم صف يعلمه يذهب الى الكنيسة ويصلي الى ان ينتهي وقت المدرسة فيدق الجرس ويخرج المعلمون بتلاميذهم من مدارسهم الى النزهة في دار المدرسة تحت نظره ورعايته . وقصارى القول انه كان دائماً في الصلاة ومناجاة الله ولم يكن يشغله عن هذا عمله بمناظرة التلاميذ . ولذلك كان يختار وقت المناظرة صلوات قصيرة متقطعة يقضي في خلالها ما يجب عليه نحو رعيته .

ولا يؤخذ من كلامي هذا انه كان حوشياً لا يخاطب الرهبان ولا يتكلم مع التلاميذ . لا . بل انه كان يكلم الجميع ويؤانسهم بكلامه الحلو ويسمع حديثهم بلطف وادب وان لم يكن يشاركهم في العابهم . وما كان يبتعد عنهم الا لسبب موجب . بل كان دائماً في وسطهم او قريباً اليهم كالراعي الصالح لا يفوت نظره أحد من رعيته . وما كان يظهر بوجهٍ عابس لاحدٍ . وعندما كان يرى من أحدهم ما لا يجب أن يكون يحمر لون وجهه وتهتز يده وكل بدنه . ثم يحوّل حالاً نظره ووجهه الى جهة ثانية حتى يسكن روعه بعد قليل فيزول كدره وغضبه ويعود الى صفاء سريرته وصفاء وجهه

وكان هذا شأنه الى وقت القراءة الروحية في الساعة الحادية عشرة ونصف . فكان الاب الرئيس يتولاها عادةً . وعند غيابه

كان هو يتولاها وفي كل الاحوال لم يكن يشغله أمر عن حضورها وسماع ارشادات الاب الرئيس الخوري يوسف غنام الذي كانت ارشاداته ذات تأثير بليغ في نفوس سامعيه لصدورها عن تقوى راهنة وعن غيرة خالصة لا يعيبها شيء من اعماله . وبعد فحص الضمير الخاص نذهب الى بيت المائدة لتناول الغذاء . ولم يكن الاب بشارة يجلس في محله على طاولة التلاميذ الاّ بعد ان يكون قد اعد ما يلزم لرعيته . فكان يقوم بخدمتهم بذاته اذ كان يرى خدمتهم الجسدية من واجباته التي تقتضيها وظيفته . وما كان يجلس البتة على المائدة مع الاب الرئيس والمعلمين كما انه لم يكن يجلس على كرسي في خورص الكنيسة ابداً . بل كان يقف منتصباً او راكعاً في وسط الكنيسة كل اوقات الصلاة كاحد الرهبان الصغار او المبتدئين .

﴿ الفصل العشرون ﴾

اطراد ما سبق

وكنا بعد الغذاء نزور القربان نحو خمس دقائق ونخرج الى ساحة المدرسة لاجل النزهة . لكن الاب بشارة لم يكن يخرج من الكنيسة الا بعد ربع ساعة او اكثر . وكان يساير جميع التلامذة كباراً وصغاراً رهباناً ومبتدئين . وما كان يؤثر واحداً منهم على آخر الا اذا كان احدهم بحاجة الى مساعدته كما تقتضي

وظيفته لكونه راعياً ومعلماً ولا سيما الصغار الذين كانوا يجدون صعوبة في التكلم بالفرنساوي فكان يساعدهم ويشجعهم ويمرنهم على ذلك بلطف وطول أناة .

وبعد انقضاء النزهة كان يدخل بنا الى غرفة الدرس ويتناول كتاباً روحياً يتلو فيه فصلاً او اكثر الى نهاية الدرس . واذا ساوره النعاس تناول كتاب صلوات صغير وركع منتصباً يصلي ليغلب النعاس او يذهب لزيارة القربان ثم يعود الى مكان الدرس حتى اذا انتهى الوقت دق الجرس الصغير ووزع التلاميذ صفوفاً الى مدارسهم وذهب بتلاميذه الى مدرستهم الخاصة ان كان له صف او ذهب الى الكنيسة لزيارة القربان وللصلاة .

وأخص كتبه الروحية التي كان يؤثر قراءتها كتاب مرشد الكاهن وروضة الواعظ والكمال المسيحي والاقتداء بالمسيح والحرب الروحية واحتقار اباطيل العالم والاستعداد للموت وامجاد مريم وغيرها . والكتاب الاول منها كان رفيقه الدائم بعد رسامته في المدرسة ودير القمر وصيدا وعاد به الى دير المخلص ولم يزل في غرفته بين مخلفاته ذخيرة كريمة

وأخص كتب الصلوات الساعية الكبيرة والساعية الصغيرة المعروفة بالساعية المخلصية وزيارة القربان وغيرها فكان يتلو يومياً كل قوانين الساعية وصلاة يوحنا الدمشقي التي اولها أيتها الفائقة المجد . والمسبحة . وكان يكرر تلاوة الصلاة الربية

والسلام الملائكي قدر ما يشاء . او قدر ما يطلب منه أصحابه وتلاميذه . او قدر ما يوجبه على نفسه في سبيل عبادة الله ومساعدة القريب . وقصارى الكلام كان يقضي يومه نهاراً وليلاً بالصلاة اينما كان في الكنيسة او في الدرس او في ساحة المدرسة او في غرفته او في البرية . وما كان يعمل عملاً من أعماله الّا مقروناً بالصلاة بأولها وفي خلالها فكان يطيبها كلها بالصلاة كما يطيّب بالملح كل طعام .

وبعد صلاة النوم وفحص الضمير في الكنيسة ينصرف التلاميذ استعداداً للنوم ويبقى هو مثابراً على الصلاة فيها نحو ربع ساعة ثم يخرج ليدق الجرس الصغير للنوم اولاً وثانياً وهو لا يزال في صلاته يراقب ويناظر التلاميذ في ساحة المدرسة. وكانت هذه الساحة عرضة للبرد ولكل ريح قبل تشييد القسم الشرقي والغربي والشمالي ولا سيما الهواء الشمالي الشرقي السام في ايام الشتاء.

وبعد أن يقفل الابواب ويطفئ الانوار يذهب يفتقد الاخوة في غرفهم بلطفٍ ورفق ويعنى بامر من يجده محتاجاً الى خدمة او مساعدة ثم يذهب الى غرفته ويدع بابها مفتوحاً . ويقضي ساعاتٍ بالصلاة والسهر على التلاميذ .

وإذا كان ينام في غرفته أحدٌ وشعر بانه استيقظ من نومه على صلاته يقول له معتذراً : نم يا اخي . عليَّ صلاة صغيرة ، وانا رايح أخلص . واما رفيقه فكان يسره هذا المنظر ويزيده اعتباراً

واحتراماً له وهو ينظر اليه كمن ينظر الى ملاك بجانبه ولا يشك بأنه يخصه بشيء من ثقته ومحبته بقبوله اياه في غرفته معه ويخصه بشيء من صلواته ايضاً لانه كان يقول ان المحبة الصادقة توجب على المحب أن يرغب في الخير اولاً لنفس صاحبه ثم لجسده .

وما كان أحدٌ من اصحابه ومعارفه يطلب منه الصلاة ألا أجابه الى طلبه بصلاةٍ خاصة . ولم يكن يكتفي بكلمة الدعاء بقوله له كعادة بعض الكهنة : الله يوفقك الله يبارك عليك ويحفظك وما شاكل . بل كان يبادر الى تقديم صلاة خاصة لاجل الطالب حسب نيته لانه كان يرى أن الطالب ما التمس منه الصلاة ألا لانه محتاج الى نعمة الله ، وأنه لا يجوز له أن يهمله بدون مساعدة بالصلاة لنجاحه وخلاص نفسه .

﴿ الفصل الحادي والعشرون ﴾

ايام النزهة

في يومي الاحد والخميس كان الاب بشارة يذهب بنا كعادة المدارس الى التنزه في البرية بعد الظهر . فكان غالباً يسير متأخراً عنا قليلاً لتسهل عليه مناظرتنا ومراقبتنا ولينفرد قليلاً للصلاة بغير أن يشوش عليه صلاته أحدٌ . وكان عادةً يلبس عباءة من الصوف الاسود البلدي المعروف حتى في ايام الصيف الشديد

الحرارة بدل الصاكو الذي كان يلبسه الكهنة ولا سيما المعلمين عند خروجهم من الدير لاجل التنزه . وكان غالباً يحمل المسبحة في يده اليمين ويحمل بالشمال حجراً قدر رطل يخفيه في كمّ العباءة العريض عن عيون الاخوة التلاميذ .

ولم يكن يجلس ليأخذ راحةً في الطريق مهما طال . ولا في مكان النزهة مهما كان الحر شديداً . ولم يكن يشرب شيئاً خارج بيت المائدة لا في البرية ولا في المدرسة مهما كان الحر شديداً . وكذلك لم يكن يتناول شيئاً من المأكول خارج بيت المائدة لا في المدرسة ولا في البرية . واذا اشترى لنا ما يتفق في وقته وموسمه من العنب والتين والليمون وباقي الفواكه التي كانت نادرة في ذلك العهد في دير المخلص قبل جر المياه اليه سنة ١٨٩٧ لم يكن يتناول من ذلك شيئاً .

ومتى بلغنا الى المكان المعين لنزهتنا كان غالباً يتناول كتاباً روحياً صغيراً يتلو فيه فصلاً او فصولا او كتاب صلاة يتلو منها ما اراد وهو يروح ويجيء لمراقبة التلاميذ ومناظرتهم او يتلو المسبحة .

ولم نكن نمر في نزهتنا على مقبرة الا اوقفنا حتى نصلي لاجل راحة نفوس الاموات الذين دفنوا فيها ثلاث مرات الصلاة الربية والسلام الملائكي والمجد وهو يقول لنا : الاموات اخوتنا بالمسيح يتعذبون في المطهر ولا يقدرون ان يعملوا عملاً

صالحاً وفاء لعدل الله عن ذنوبهم وهم يطلبون مساعدتنا ونحن لا نقدر ان نساعدهم لبعدهم عنّا الا بالصلاة وفيهم المساكين المنقطعون او المهملون من اقاربهم ومن جميع الناس

هذا كان قانون حياة الاب بشارة اليومية في مجمل اعماله الظاهرة التي كان يمارسها عادةً منذ عرفته سنة ١٨٨٥ وقد حافظ عليها اجمالاً بدون تغير الى سنة ١٨٩١ حينما خرج من المدرسة الى دير القمر . بل قد ثبت على ممارسته اعمال التقوى والصلاة الى آخر ايام حياته باكثر انصباب وبأتم حرية وعبادة . ولا محالة انه كان معتاداً عليها قبل ان اعرفه كما يشهد على صحة قولي كل رفاقه الرهبان وكثيرون من العلمانيين .

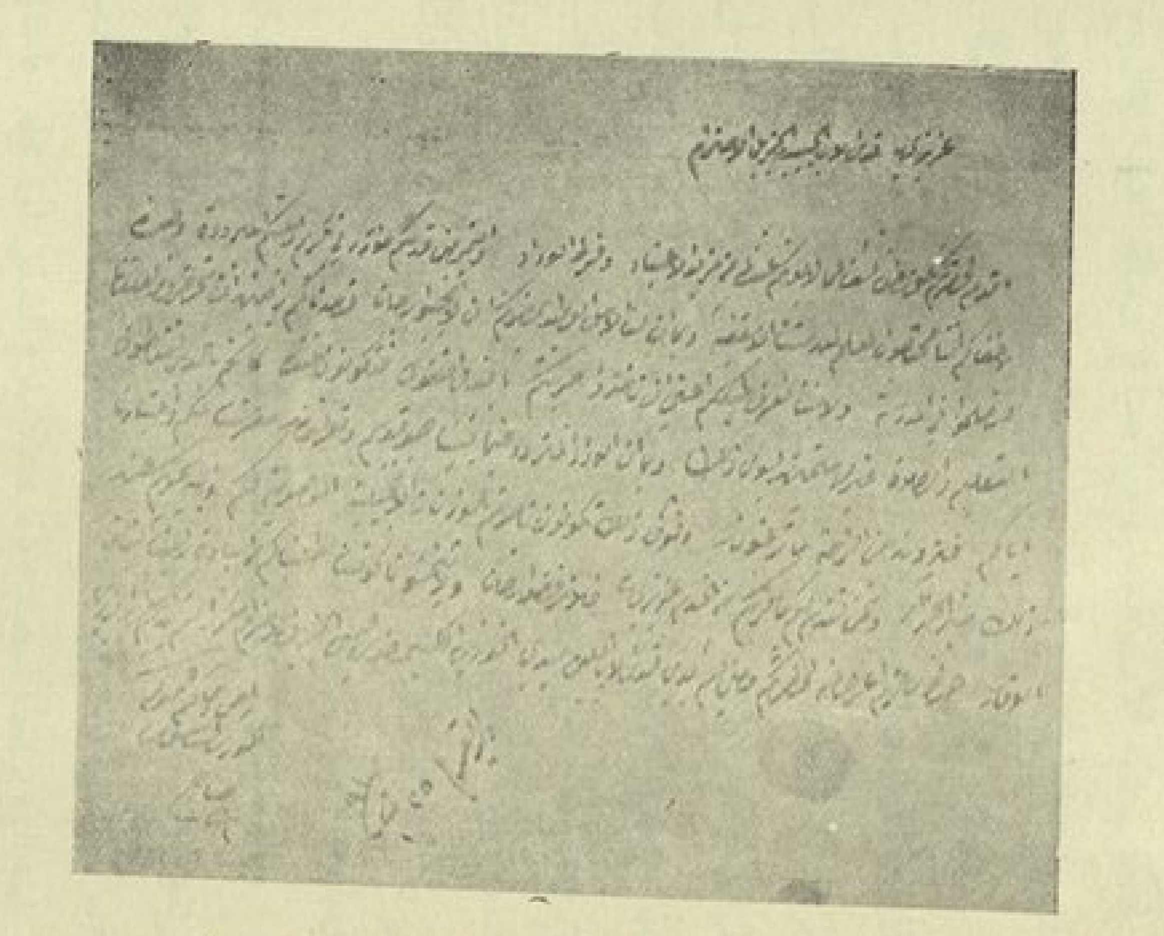
﴿ الفصل الثاني والعشرون ﴾

من دير المخلص الى دير القمر

في سنة ١٨٨٧ انتقل المطران باسيليوس حجار الزائر الرسولي من كرسي حوران الى صيدا بانتخاب الابرشية الصيداوية له باتفاق تام أجازه الطيب الذكر البابا لاون الثالث عشر بعد ان ارتضى به البطريرك غريغوريوس يوسف وكل المطارنة . فأخذ المطران المذكور يعنى بأمر ترقية الابرشية وتحسين مدارسها ولا سيما في صيدا ودير القمر . فسعى بمشترى دار المعلم

بطرس كرامة الذي كان مديراً لامور لبنان في عهد الامير بشير الشهابي الكبير في دير القمر وجعلها مدرسة تحت مشارفة وكيله في دير القمر الاب اثناسيوس صبّاغ الذي صار فيما بعد مطراناً على عكا . وجعل مديراً لها ومساعداً له الاب اكلنضوس معلوف (سيادة مطران بانياس حالياً) مع الاب اغناطيوس رزق والاب ملاتيوس حجار وغيره من رهبان دير المخلص ومن العلمانيين

واذ نجحت المدرسة المذكورة بهمة هؤلاء الآباء وكثر فيها عدد تلاميذها اقتضى زيادة عدد المعلمين فيها فتمنى رئيسها على المطران الاتيان بالاب بشارة بعد ما علم أنه ترك رعاية تلاميذ المدرسة الرهبانية . فاستصعب المطران أن يقبل الاب بشارة الخروج من الدير لما كان عليه من شدة الورع وحب العزلة عن الناس والاختلاء مع الله بالعبادة، ولعلمه بأنه ما خرج من المدرسة الى الدير إلّا ليكون منصرفاً بكليته الى ذلك لانه كان يقضي في الدير اكثر اوقاته بالصلوات في الكنيسة حتى كان لا يخرج منها الّا اذا كانت قوانين الدير الاجتماعية تقضي بذلك . وكان المطران احتراماً لفضيلته يكره أن يأمره بعمل لا يتفق مع ورعه او لا طاقة له عليه حذراً من ان يكون مظلوماً به . فقال للاب اثناسيوس : اكتب له اولاً وجسّ الارض اذا كان يقبل ان يخرج من الدير واسترضه بوعدك له بما يحب باطلاق



رسالة الخوري اثناسيوس صباغ للاب بشارة (صفحة ٧)

الحرية له بممارسة الصلوات والتأملات واعمال التقوى . وبعد ذلك نتدبر معه بما نرى .

فكتب اليه الاب اثناسيوس صبّاغ رسالة لطيفة بتاريخ ٢٥ تشرين الاول سنة ١٨٩١ وجدناها محفوظة بين اوراقه يلتمس بها منه بحب ورجاء الحضور الى دير القمر ليعلم الاولاد الصغار في المدرسة الاسقفية ويرغبه بذلك بجميل الاجر من الله وإرضاء خاطره بما يحب ويرغب بممارسة العبادة والصلوات . ويخبره بطلب المطران له من الاب العام . وقد نقلنا صورة هذه الرسالة على أصلها بخط يد كاتبها رحمة الله ليقف القراء على ما كان للاب بشارة في نفسه من الاعتبار لتقواه وعلى ما كان من الحب المتبادل بين الاثنين . ونرجح أن الاب بشارة لم يكتب له جواباً على رسالته هذه لا سلباً ولا إيجاباً لانه كان مسلماً امره دائماً لرؤسائه ولم يكن يطلب منهم شيئاً يرغبهُ لنفسه .

وما طال الامر حتى اوعز المطران الى الرئيس العام الخوري غريغوريوس نعمة أن يرسل الاب بشارة بأمر الطاعة الى دير القمر معلماً في المدرسة . فكتب له الاب العام امر الطاعة القانوني وسلمه اليه بيده وشجّعه ورغّبه باتمامه والسفر الى محله . فاستلم الاب بشارة امر الطاعة وقبّله وقبّل يد الاب العام . وما قال له كلمة سوى قوله : امركم .

وثاني يوم بعد صلاة الفرض والقداس سافر إلى دير القمر

حيث قضى نحو ٣٢ سنة بالعمل بخدمة النفوس وخدمة الكنيسة بنشاط وغيرة رسولية نادرة كما سيأتي تفصيل ذلك ان شاء الله .

ولا يخفى على من يعرف الاب بشارة أن قبوله الامر بترك دير المخلص لمخالطة أهل العالم كان صعباً عليه وأليماً جداً . ولولا أنه كان يعد الطاعة قبل كل شيء لما خرج أبداً من دير المخلص . وقد كان من قبل في المدرسة لشدة ورعه لا يكلم إنساناً علمانياً ولا ينظر الى امرأة إلّا ما ندر .

فأخذ في اول الامر يعلم الاولاد الصغار مبادىء القراءة العربية والفرنساوية ومبادىء التعليم المسيحي وبعض الصلوات بصبر وطول أناة . بل كان فرحاً جذلاً بذلك لاتمام امر الطاعة ومرضاة الله بتعليم الاولاد الصغار واجباتهم نحو الله حتى يعرفوه ويعبدوه حقّ عبادته ويرثوا سعادته أجر عبادتهم له .

واذ كان الخوري اثناسيوس مصرّفاً وحده بسماع الاعترافات فلم يكن بوسعه أن يسمع اعترافات كل من كان يتقدم اليه ايام الآحاد والاعياد قبل القداس لاجل مناولة القربان الاقدس في وقته ولا سيا في فصل الصيف اذ كان يكثر عدد المصطافين في الدير من اهلها . وكان بعض النساء يذهبن الى كنيسة الموارنة يعترفن ويعدنَ الى كنيسة مار الياس لسماع القداس والمناولة على طقسنا . ولا يخفى ما في هذا الامر من المشقة عليهنَّ . فشكون من هذا الى المطران باسيليوس . فاقتضى الحال ان صرَّف

لحضرة عزيزي الاب الفاضل الجزيل الاحترام

لقد [illegible] ايها الفاضل [illegible] طالبينه

من المخلص دوام توفيقكم وها اني في غاية [illegible] شاكر الطافكم مؤملا دوام صلواتكم [illegible]

[illegible]

ودمتم [illegible] الجزيل الاحترام [illegible]

[illegible]

رسالة الخوري يوسف غنام للاب بشارة (صفحة ٧٢)

المطران في وقت واحد الاب بشارة والاب اكلمنضوس بسماع الاعتراف لمن يطلب ذلك منهما. فلم يكن بوسع الاب بشارة أن يرفض قبول سماع الاعتراف لمن يطلب ذلك منه سواء كان من الرجال او النسآء . نعم إن الحياء او الورع الشديد كان يمنعه عن مكالمة النسآء ولكن الطاعة لامر الرؤسآء ولاسيما في ما فيه خلاص النفوس سهَّلَ عليه كل صعوبة في هذا الامر وغيره كما كان دأبه في كل أموره .

﴿ الفصل الثالث والعشرون ﴾

وادي الدير

قبل ان تنقضي عليه السنة الاولى في دير القمر بتعليم هولآء الصغار صار الخوري اثناسيوس صبّاغ رئيساً عاماً على الرهبانية المخلصية في اول أيلول سنة ١٨٩٢ فخلفه في وظيفته بالنيابة الاسقفية ورئاسة المدرسة في دير القمر الاب اكلمنضوس المعلوف . وإذ كان هذا يذهب أيام الآحاد والاعياد ليقدس في وادي الدير والمزارع التي بجواره. تعذر عليه هذا الامر حينئذٍ وصارت هذه الرعية بلا راعٍ .

وكان المطران باسيليوس يقضي فصل الصيف في دير القمر كعادة أسلافه . وإذ كان ذات مرة على الغذاء مع الكهنة قال لهم

بسمع الجميع : عيّنا الخوري اكلمنضوس رئيساً للمدرسة فانحرمت الوادي من الخوارنة . وصارت الرعية بلا راع يخدمها . وصار الشيطان يسرح ويمرح فيها ويقول أين راح الخوري بشارة لينزل الى الميدان ...

فقال له الخوري بشارة وقد فهم مراده وقصده وخفض رأسه وصوته : انا تحت امر سيادتك وانا مستعد لان انزل الى الوادي واحارب الشيطان بامرك وبركة سيادتك . ونهار الاحد التالي نزل الاب بشارة الى وادي الدير وقدس هناك اول قداس في شهر ايلول سنة ١٨٩٢ . وقد فوَّض اليه المطران سماع الاعترافات وتوزيع باقي اسرار الكنيسة لكل طالب . ومن ثم اخذ الاب بشارة يحارب الشيطان بأقواله واعماله حتى غلبه وقهره بنعمة الله .

﴿ الفصل الرابع والعشرون ﴾

بدء سيرته في الوادي

منذ تعين الاب بشارة لخدمة نفوس اهل هذا الوادي الجميل جعل لنفسه سنَّة لم يخالفها إلَّا إذا كان مضطراً الى ذلك بقوة قاهرة او لضرورة خارقة . فكان يغدو صباحاً حتى كان يصل الى هناك قبل شروق الشمس بعد أن يكون قضى صلاته الفرضية في كنيسة الدير امام القربان حيث كان يجد كل الكتب اللازمة

لذلك . وكان في طريقه يرفع عقله وقلبه الى الله ويرفع يديه الى السماء كعادته بصلاة حارة متصلة لا يراه ولا يسمعه أحد غير الله تعالى وملائكته إلا نادراً . ولم يكن يصده شيء عن ذلك مهما كانت الامطار غزيرة ومهما كان البرد شديداً .

وحين يبلغ البيت الذي يجب ان يقام فيه القداس كان ينظر في مايحتاج اليه المذبح لاقامة القداس الالهي بشكل لائق . وكان يقوم دائماً بوظيفة قندلفت في كل الكنائس التي كان يقدس فيها كما قلنا . ثم يأخذ بسماع اعترافات من كان يتقدم اليه لذلك الى أن ينتهي منها . ويكون قد حان الوقت المعين للقداس فيبدأ فيه كعادته بخشوع وتقوى . وفي آخره كان يعظ الحاضرين بكلامه الحي على مقتضى أحوالهم بكل بساطة . ولم يكن يهمه بوعظه إلا إفادة النفوس وخلاصها . وبالحقيقة لم يكن وعظه إلا تنبيهات وجيزة متقطعة لكن بليغة لا تخلو من الفائدة وجميل الاثر في نفوس سامعيها . لكونها صادرة عن نفس بارة وغيرة شديدة . وكان يقويها ويعضدها بمثله الصالح في قداسه وصلواته في الكنيسة وفي خارجها بسلوكه مع الجميع . ولا سيما في زياراته للمرضى في البيوت واهتمامه بخلاص نفوسهم ومساعدتهم على ذلك بكل الوسائط التي في طاقته بدون أن يبتغي عن ذلك منهم نفعاً . وفي الاخير كان ينبه عليهم بأنَّ القداس التالي سيكون في بيت فلان بعد أن يكون اتفق عليه

مع اصحابه حتى يُعدُّوه وينصبوا فيه مذبحاً لائقاً ويتفرغوا له عنه لاجل سماع الاعترافات وحتى يعرف ذلك الجميع ويأتوا اليه رأساً بدون حاجة الى تنبيه آخر إذ لم يكن لهم جرس ولا ناقوس .

وبعد القداس كان يذهب يتفقد المرضى ويصلي عليهم ويحرضهم على الصبر وتسليم أمرهم لارادة الله في مرضهم . ويحثهم على الاعتراف ولو كانوا في مرض غير ثقيل . وكذلك كان يتفقد كلَّ من كان يتخلف عن سماع القداس . وإذا عرف أنَّ أحدهم ترك القداس لاهمال او لكسل أخذ يوضح له واجبات الانسان نحو الله خالقه بالعبادة له ولا سيما بسماع القداس الذي هو اكمل وافضل طرق العبادة . وان الانسان لا يقدر أن يستغني عن الله الذي منه كل خير في هذه الدنيا والآخرة . ولا يزال به على مثل هذه الاقوال البسيطة البليغة حتى يأخذ منه وعداً ثابتاً بأن لا يعود يتخلف عن حضور القداس مرة ثانية

وإذا عرف ان أحدهم ذهب وقت القداس الى الشغل في ارضه ذكره بكلام السيد المسيح لمرتا بأن مريم اختارت لنفسها حظاً صالحاً لا ينزع منها بسماعها كلام الله . ثم يقول له ان القداس لا يقتضي له أكثر من نصف ساعة يجب ان تصرفها في سبيل عبادة الله وخير نفسك . والباقي من يوم الاحد وكل الاسبوع أنت حرٌّ فيه وكله لك ، واذا كنَّا لا نصرف نصف ساعة في الاسبوع لعبادة الله فلسنا نحن عبيداً لله حقيقة بل نحن عبيد

اجسادنا مع انه يجب ان نعبده تعالى دائماً ونحبه فوق كل شيء من كل قلوبنا ونفوسنا . ولا يزال يخاطبه بمثل هذا حتى يعده الرجل وعداً صادقاً بما يطلب منه .

واذا عرف ان أحدهم يترك القداس يوم الاحد والعيد ليذهب يشتغل عند الدروز لسد حاجته لفقره دفع له أجرة يوم او اكثر وقال له : الله كريم ويدبر الجميع فاتكل عليه فلا يهملك . ولا يهمل أحداً . وهو يعوض عليك أضعافاً في هذه الدنيا وفي الآخرة ملكوت السماوات . فيخجل منه الرجل حياء . والحياء من الدين فيعده بالتوبة .

واذا اعتذرت اليه امرأة او ابنة بأن ليس عندها فسطان تلبسه بنوع لائق امام الناس في الكنيسة دفع لها ثمن فسطان مما يتيسر له من اهل الخير . وقال لها الله كريم الله يرزق الجميع . واذا اجابه احدهم بأنه حضر القداس في دير القمر استتلى عليه السؤال : اي كاهن قدّس . وماذا قال الانجيل . . .

واذا كان احدهم مريضاً مرضاً يضطره الى ملازمة الفراش ، فلا يكتفي بأن يعوده مرة في الاسبوع حينما يأتي للقداس بل كان يأتي لزيارته مراراً وخصيصاً من الدير . ولافرق بأن يكون المريض من طائفته او من طائفة الموارنة اذ لم يكن ينظر الى هذا الفرق بل كان منصرفاً في كل اعماله الى خير النفوس والى ما يريده الله منه . وكان على لسانه وفي قلبه قول الله لبنيه . اني اقتك

ديدباناً لهذا . الشعب وكل نفس تهلك اطلب نفسك عوضها وكان المرحوم المطران بطرس البستاني وخلفه المرحوم المطران بولس بصبوص وسيادة المطران اوغسطين البستاني فوضوا اليه خدمة نفوس الموارنة الذين في وادي الدير وجواره حيث لم يكن لهم كاهن من طائفتهم . ولم يكن يأخذ منهم شيئاً . بل لم يكن يثقل عليهم بأمر كما كان هذا شأنه مع ابناء طائفته سواء كانوا فقراء او من ذوي اليسار

واذا دعي من دير القمر الى زيارة مريض بمرض ثقيل من اهل الوادي وسواهم بادر اليه بسرعة لا يمنعه عن ذلك ظلام الليل ولا وحشة الطريق ولا شدة الحر في الصيف ولا شدة الامطار والبرد في الشتاء مهما كان بيته بعيداً لاعتقاده ان مساعدة المدنف اهم من كل شيء . وان عذاب الجسد مهما كان حتى الموت هو يسير بل هو خير وسعادة في سبيل خلاص النفس في المعركة الاخيرة في ساعة الموت . ولذلك لم يكن ينام البتة على فراش الليل كله اذا دعي لمساعدة مدنف . بل كان يحيي الليل كله بالصلاة لاجله اما وحده او بالاشتراك مع الآخرين . وقد اكد لي غير واحد منهم انه لم يمت احدٌ من رعيته الّا كان على استعداد تام للقاء ربه مزوداً بكل اسرار الكنيسة التي فيها قوة ونعمة للانتصار في الساعة الاخيرة على الشيطان .

﴿ الفصل الخامس والعشرون ﴾

العود احمد

اسرة ابي رجيلي اسرة كبيرة ذات فروع جمة وافرادها متفرقون في قرى الشوف والعرقوب والمناصف والمتن والجرود والبقاع وبيروت ، وفريق كبير منهم يتبع طائفة الروم الكاثوليك ومنهم جماعة يتبعون طائفة الروم الغير الكاثوليك ومن هولاء سيادة المطران ثاوضوسيوس ابو رجيلي المولود في بيروت .

وكان الذين يسكنون منهم في مقاطعة المناصف من ابرشية صيدا تابعين المذهب الكاثوليكي من اول القرن الثامن عشر بفضل غيرة الطيب الذكر المطران افتيميوس الصيفي وتلاميذه رهبان دير المخلص . الا ان بشير بك ابا نكد واخاه قاسم بك اتباعاً لسياسة الدروز العامة وعملاً بمشورة الانكليز انصارهم كانوا يكرهون الروم الكاثوليك منهم على ترك مذهبهم الكاثوليكي واتباع مذهب الروم الارثوذكس ليقطعوا كل علاقة لهم مع قناصل فرنسا . فاضطر كثيرون من المذكورين ان يتبعوا مذهب الروم الارثوذكس منذ حوادث سنة ١٨٤٥ مكرهين على ذلك بالقوة القاهرة من قبل مواليهم بيت ابي نكد اصحاب المقاطعة وجعلوهم يسيرون امامهم بحملاتهم على قتال دير القمر وغيرها من قرى النصارى سنة ١٨٦٠

ولبثوا هكذا الى عهد الاب بشارة مهملين بأمور دينهم كالرعية السائبة بدون راعٍ . غير انه كان يزورهم مرةً في السنة خوري كفرمتى واذا دعاه احد منهم الى عماد او اكليل او جنازة .

وكان كثيرون منهم لجهلهم وتعصبهم في مذهبهم يأنفون الاشتراك مع اخوانهم الروم الكاثوليك بسماع القداس ايام الآحاد والاعياد عندما كان يأتي لهذا الغرض الاب اكلمنضوس معلوف وخلفه الاب بشارة . بل كانوا في اوَّل الامر يرفضون قبول الاب بشارة في بيوتهم اذا اراد زيارة مرضاهم . وكذلك كانوا يرفضون قبول كل مساعدة او احسان منه . وكان البعض منهم يقولون له بوجهه : مرادك ان تبرطلنا لنصير كواتلة تبَّاع البابا مثلكم ومثل الموارنة . لا نقبل ولا نرضى . نعم انتم بالظاهر مثلنا بالطقس لكن انتم تعبدوا البابا مثل الموارنة لا نتبع البابا ولا نعبده والسما زرقا

فكان الاب بشارة يضحك لهذا الكلام ويقول لصاحبه : الله يساعدك . نحن لا نعبد البابا . ولا نعبد غير الله تعالى لكن عبادتنا لله افضل لانها بالطاعة . والدين بلا طاعة ناقص لا ينفع .

وكان الروم الكاثوليك اذا بلغهم مثل هذا يغضبون ويؤنبون الاب بشارة ويقولون له . لا تذهب الى بيت احد منهم ألا اذا كلفوك . يجب ان تحافظ على شرفك وشرف طائفتك والّا فنحن نزعل ولا نعود نحضر قداسك . وهولاء روم عنيدين . ويشوفون حالهم كثيراً . ويعدون نفوسهم افضل منَّا وافضل من

كل الكاثوليك واشرف من البابا ولو كانوا فقرآء نظيرنا .

فكان الاب بشارة يكسر شوكة غضبهم بقوله لهم : هؤلآء مساكين . غشما . الله يساعدهم . الله يهديهم . كلامهم هذا عن بساطة قلب . وهم اخوتنا في المسيح واقاربكم وهم اقرب كل الامم الينا في الدين . وطقسنا مثل طقسهم . يجب ان نحبهم ونرغب الخير لنفوسهم ونصلي من شأنهم كل يوم لاننا نشاهدهم كل يوم في بيوتكم وهم جيرانكم . وتتعاملون معهم بالاكل والشرب والشغل والبيع والشرآء . وعندهم قداس وكهنوت ومعمودية وكل الاسرار . ويحبون العذراء والقديسين والصليب الخ . . .

وكان يجيب من يقول له منهم : خورينا يكفينا ان يزورنا بالسنة مرة بقوله : الدين ما فيه خسارة . تفضلوا اسمعوا كلام الله والانجيل وكلام القديسين عندما لا يكون عندكم قداس ولا خوري . صلاتنا مثل صلاتكم . وما في هذا خسارة عليكم ولا ضرر . تفضلوا . جربوا . اهلاً وسهلاً بكم . ثم صار يزورهم ويقدم لهم المساعدات المادية ويرشدهم فبدأوا يحضرون القداس . ثم صاروا يستدعونه لزيارة مرضاهم وبيوتهم .

وما زال مثابراً على ذلك ومواصلاً الصلاة من اجلهم حتى ربحهم للكنيسة وربح نفوسهم لله وأخضعوا عقولهم وقلوبهم لطاعة الله والبابا . وصاروا يجدون في ذلك سعادةً وغبطةً لهم بعد ان تحققوا عن خبرةٍ أنَّ هذا الاب الفاضل هو الراعي الصالح الذي

يبذل نفسه في سبيل رعيته لاجل الله . ولا يبتغي من الرعية لا حليباً ولا صوفاً ولا لحماً . ولا يرجو شيئاً منها لنفسه بل كل عمله لاجل رضى الله وخير نفوسها . ومن ثم بعد جهاد وتعب جزيل انتصر الاب بشارة على روح الشقاق وقهر الشيطان

والذي حملهم اخيراً الى اجابة دعوته بالعودة الى حضن الكنيسة الكاثوليكية ان مرض رجل اسمه جرجس ذيب الحداد من كفرمتى مرضاً ثقيلاً اشرف معه على ابواب المنون . فاستدعي له خوري كفرمتى كالعادة . الا ان الخوري المذكور لم يحضر الا بعد ان فارق المريض الحياة . لكن حالما علم الاب بشارة بمرضه اخذ يزوره ويهتم بامره كعادته مع الجميع . واذ ثقل المرض عليه ابى ان يفارقه حتى سمع اعترافه ومنحه سر المسحة والزاد الاخير وقضى عنده ثلاثة ايام بلياليها ساهراً عليه حتى فارق هذه الدنيا على اتم استعداد للقاء ربه . ولما بلغ خبر موته خوري كفرمتى بادر مع اهل الميت الى الوادي لجنازه ودفنه قبل ان يسبقه الى ذلك الخوري بشارة . لكن الاب بشارة لم يكن يبالي بمثل هذه المزاحمة اذ كان يقول له البعض : سبقك خوري كفرمتى ومات الرجل واخذه الروم وذهب كل تعبك باطلاً . فكان يقول لهم الاب بشارة : لا بأس في هذا لان الجثة بعد مفارقة النفس لها بالموت لا قيمة لها . فهي تراب والى التراب تعود . لكن المهم في الانسان النفس التي هي على صورة الله ومثاله

وهي الجوهرة الكريمة فاذا انتقلت الى الله بموت صالح ونالت سعادتها معه فلا تعود تبالي بما يجري لهذا الجسد .

وقد وقع عمل الاب بشارة هذا وقعاً حسناً في نفوس الجميع ولاسيما عندما شاهدوا ان خوري كفرمتى لم يرد ان يفارق الوادي ألا بعد ان جمع منهم رسم نورية المطران واجرة الجناز له .

الفصل السادس والعشرون

الذين عادوا الى الكنيسة الكاثوليكية

تتمة للفصل السابق ينبغي لنا ان نذكر هنا مفصلاً الذين عادوا الى حضن الكنيسة الكاثوليكية من اسرة ابي رجيلي السابق ذكرها على يد الاب بشارة .

كان منها فرع نعوم ابي رجيلي فقط كاثوليكياً بكل افراده واشتهر من هذا الفرع عبدالله نعوم واولاده ديمتري وخليل وحسن والد رئيسنا العام سابقاً ومطران صور حالياً الذي ذكر مراراً في هذا الكتاب . وهذه الاسرة مع اسرة بيت الحصروتي واسرة جرجورة كانوا يؤلفون كل طائفة الروم الكاثوليك في الوادي وهم اصل رعية الاب بشارة في اول الامر عندما تعين كاهناً لهم سنة ١٨٩٢ . وكان فريق منهم يسكن في وادي الدير وفريق آخر منهم يسكن في وادي بمحليه بجواره .

واما باقي فروع هذه الاسرة (ابي رجيلي) من سكان مقاطعة المناصف فكانوا منتشرين معهم في وادي الدير ووادي بمحليه والجاهلية وخلة قبال وسرجبال وبنويتي وغيرها[1] وكانوا من عزوة بشير بك ابي نكد من اكبر زعماء الدروز الذي اشتهر في حوادث سنة ١٨٤١ وسنة ١٨٤٥ وسنة ١٨٦٠ . وكان اكثر افرادهم يسكنون في سنة ١٨٩٢ ضيعة بنويتي التي كانت من املاكه الخاصة وقد اشتراها من ورثته المرحوم سليمان خطار واولاده وهي اليوم ملكهم

فقد ارتد سائر فروع هذه الاسرة بالتدريج على يد الاب بشارة بكل افرادهم ذكوراً واناثاً كباراً وصغاراً .

---

١) هذا جدول اسماء الضيع التي كان متقلدا خدمة نفوس اهاليها من طائفة الروم الكاثوليك والموارنة :

(١) وادي الدير (٢) وادي بمحليه (٣) وادي ابو يوسف (٤) بنويتي
(٥) خلة قبال (٦) سرجبال (٧) البقيعة (٨) الدلهمية (٩) بعقلين
(١٠) شمعرن (١١) الفخيته (١٢) بقعون (١٣) الجاهلية
(١٤) الدية (١٥) بكشتين (١٦) دردوريت

وفي بعض السنين كان يذهب الى بعض القرى لاتمام الوصية الفصحية لاهلها اذا لم يكن فيها كاهن خاص مثل غريفة وعنبال وكفرقطرة وبطمة والمختارة وعين زحلته والمعاصر والباروك وكفرنبرخ والقرية وغيرها وكان يقضي في كل قرية منها اسبوعاً او اكثر او اقل لاتمام هذه الوصية العظيمة المهمة لكل افرادهم بحيث لم يكن يتخلف عن ذلك احد منهم . وفي اثناء السنة كان يفتقد مرضاهم حالما يعرف بمرض احد منهم ولو كان مرضه خفيفاً

الفرع الاول منها وهو الاكثر عدداً يقال له بيت عطا الله ابو رجيلي[١]

الفرع الثاني يقال له بيت خليل ابي رجيلي[٢]

عطا الله ابو رجيلي

١) افراده :

سليم حنا محفوظ واهل بيته
اخوه شاكر حنا محفوظ وابنه رشيد
محفوظ يونس محفوظ وكل اهل بيته
اخوه مخائيل يونس محفوظ وكل اهل بيته
اخوه ايضاً فارس يونس محفوظ
اسعد خليل مقصود وولداه نمر وشهدان وكل اهل بيتهم
امين خليل مقصود واولاده سعيد وداود واهل بيوتهم
حبيب داود وولداه يوسف وداود واهل بيوتها
نفّاع شاهين نفّاع واولاده شاكر وملحم وشاهين واهل بيوتهم
حنا شاهين نفّاع وولداه منصور وجرجس واهل بيوتهم
نجم شاهين نفّاع وابنه ضاهر واهل بيتها
يوسف شاهين نفاع واولاده ذيب ونعمة وشاهين وفريد واهل بيوتهم

اسعد سليمان ابو رجيلي

٢) افراده :

خليل اسعد سليمان وابنه اسعد
وكان خليل اهم مساعد للاب بشارة بعودة اقاربه .
اخوه سليم اسعد سليمان واولاده نجيب وسعيد وحليم وكل اهل بيوتهم

الفرع الثالث يقال له بيت ذيب الياس ابي رجيلي[1]

« الفصل السابع والعشرون »

شدة الحاجة الى الكنيسة

الكنيسة لفظة يونانية تستعمل في لغات شتى بلفظها ومعناها ويراد بها اصلاً جماعة المؤمنين بالمسيح . وبالنقل صارت تدل على مكان اجتماعهم المعروف لعبادة الله بوجه خاص على نظام ثابت معروف بطقوس الكنيسة .

كان يعد دائماً قيام الكنائس من اجلِ اعمال التقوى، ومن اعظم ادلة الغيرة الدينية عند المسيحيين لانها مدعاة لاجتماع

---

(١) افراده نمر الياس ذيب واهل بيته وهو اخر من ارتد الى حضن الكنيسة الكاثوليكية قبل ان يموت اذ اعترف وتناول عن يد الاب بشارة .
اخوه حنا الياس ذيب واهل بيته
عبد المسيح جبرائيل ذيب واولاده سعيد ومخايل واهل بيتهم
شاهين طانوس جبرائيل واهل بيته
ملحم مخايل واولاده مسعود وسعيد وداود وأسعد واهل بيوتهم
ناصيف مخايل وابنه ضاهر واهل بيته
ابرهيم مخايل وولداه مخايل ويوسف واهل بيوتهم

بيت الياس ابي رجيلي

الناس فيها لعبادة الله سواء كانوا صالحين او خطاة . وقد جرت العادة منذ اول عهد النصرانية ان يبارك المطران او البطريرك الحجر الاول باساسها في حفلة دينية عظيمة ويضع اسمه واسم الحاكم العام مع بعض قطع ذهب وفضة مما يتعامل به الناس في الحجر المذكور دلالةً على ان اساس الكنيسة قام بهمة واتفاق اولي السلطتين الروحية والزمنية . وأنه لا يتم بنيانها وزينتها إلّا بمساعدة أهل البر والاحسان والاشتراك به

ولا حاجة بنا ان نوضح هنا باسهاب ان جمال الكنائس وحسنها وزينتها وعظمتها يحبب الى الناس الصلاة وعبادة الله فيها ولا سيما اذا كان لهم آثار خير فيها . وهي تذكارات تقوية لا ينساها اصحابها واولادهم واحفادهم مهما طال امرها وهي عند الله اجمل وابقى

ومعلوم ان الانسان الفرد لا يستطيع ان يقوم بنفقة ما يلزم لقيام كنيسة ألّا اذا كان بمقام رهطٍ كبير بكرم نفسه وغناه . ومهما كان كريماً وغنياً فلا مانع يصد اهل التقوى عن تقديم ما يوجبون على انفسهم من النذور والهدايا لزينتها وجمالها وما يضمن دوام بقائها بوجهٍ لائقٍ لعبادة الله تعالى

فلما تعين الاب بشارة لخدمة نفوس الروم الكاثوليك الذين في وادي الدير وجواره لم يكونوا يتجاوزون عشرة بيوت واكثرهم او كلهم شركاء مزارعين لاصحاب الاملاك فيها من مشايخ الدروز

النكديين واهل دير القمر . واصحاب الاملاك منهم لم يكونوا من ذوي اليسار . وليس بوسعهم القيام بمعاش كاهن يتخصص دائماً لخدمتهم . وبالتالي لم يكونوا يستطيعون القيام بما يلزم للكنيسة . ولذلك تعين الاب بشارة ان يذهب اليهم من دير القمر كل يوم احد وعيد لخدمتهم الروحية بدون ان يثقل عليهم بشيء . وكانت الضرورة ايضاً تقضي عليه ان يقيم القداس في بعض البيوت .

وكان سابقاً كاهن قرية دردوريت من الرهبان الموارنة يقوم بخدمة نفوسهم مع نفوس الموارنة الذين هناك لان دردوريت أقرب اليهم . ولكن اذ عاد الراهب المذكور الى ديره لبثوا كلهم مدة طويلة بدون كاهن خاص ولكن كان يأتيهم احد الكهنة من دير القمر عند الحاجة . وحينما اخذ الاب بشارة يقدس في الوادي صاروا كلهم يأتون اليه ويسمعون قداسه واخذ على نفسه خدمة نفوسهم في كل امر باذن مطرانهم كما قلنا .

واذ كثر عدد نفوس هذه الرعية الصغيرة بالموارنة وبالروم غير الكاثوليك الذين اخذ بعضهم يأتون تباعاً وتدريجاً لسماع قداسه مع اخوانهم الروم الكاثوليك من سكان وادي الدير ووادي بمحليه وسرجبال وبنويتي وغيرها صار البيت يضيق بهم طبعاً لكثرتهم ، ومن ثم صاروا كلهم افراداً واجمالاً يطلبون قيام كنيسة . وقد جرى الحديث مراراً بهذا الشأن فيما بينهم مع الاب بشارة . ولكن ما عسى ان يفعل وهو نظيرهم لا يملك

شيئاً مما يلزم لذلك من النفقة الا الرجاء به تعالى وما في قلبه من غيرة لعبادة الله ومساعدة القريب في سبيل ذلك . ولابدَّ انه كان يقول في نجواه مع الله « غيرة بيتك اكلتني » (مز ٦٨ : ١٠)

ولا ريب بأن هذا الامر كان يجول مراراً كثيرة في خاطره وكاد يلازمه ويزعجه في صلاته . ولم يكن يدري ما يفعل في سبيل ذلك الا ملازمة الصلاة بتواضع وتذلل الى الله تعالى مصدر كل خير وتوفيق

واذ كان على ما يعرفه كثيرون شديد الحياء كان هذا يمنعه ان يدخل باكراً الى البيت المعد للقداس على اصحابه خشية ان يكون بعضهم نياماً . وكان يلبث يصلي خارجاً الى ان يفتحوا له الباب ولو كان المطر نازلاً والبرد والهواء شديداً قارصاً . وما كان يبالي بهذا ولم يكن يهتم براحة جسمه اذا كان يجد في ذلك ادنى ثقلة على الناس

واذ كان قد اعتاد ان يسأل من ابصرهم بعد القداس ممن لم يكن قد نظرهم فيه : اين كنت ولماذا لم تحضر القداس وكان بعضهم يجيبه معتذراً بضيق المكان وانه كان خارجاً فكان هذا يزعجه ويمضه كثيراً لعلمه ان هذا العذر لا يخلو من الصدق والحق فكان يسلم تدبير ذلك الى الله كما يشاء تعالى بصبرٍ ورجاء

الفصل الثامن والعشرون

قيام الكنيسة

بينما كان اهل الوادي الكاثوليك مجتمعين ذات يوم سنة ١٨٩٤ بعد القداس امام بيت خليل جرجورة حيث كان يحتفل بالقداس الاب بشارة وجرى الحديث عن الكنيسة وطال قال احدهم بلهجة شديدة بعد سكوت طويل منه : كفوا عن مثل هذا الكلام الذي لا فائدة منه فقد كفاكم ما مضى . الكنيسة لا تقوم بدون المطران . وماذا تترجون من الاب بشارة المسكين . فاذا اردتم ان تسمعوا مني اذهبوا كلموا المطران واطلبوا بركته ومساعدته وتدبيره . فهو اكبر عقلاً منّا كلنا واوسع معرفة بالتدبير وابواب الخير . فاستصوبوا كلهم رأيه وقرروا انه عندما يأتي المطران باسيليوس الى دير القمر لقضاء فصل الصيف كالعادة يذهب كبارهم للسلام عليه ويكلمونه بهذا الشأن . واشترط بعضهم ان يكون معهم الاب بشارة . وان يكون هو اول المتكلمين مع المطران

واذ بلغهم من الاب بشارة ان المطران حضر الى دير القمر ذهبوا للسلام عليه وتخلف عنهم الاب بشارة ليزور المرضى والذين لم يحضروا القداس . ولما اجتمعوا بالمطران وقبلوا يده سألهم كيف حالكم مع الاب بشارة وهل تسمعون كلكم قداسه في

كل أحد وعيد . فقال له احدهم : الله يطوّل عمرك وعمره يا سيدنا نعم كلنا نسمع قداسه حتى إنه ما عاد يسعنا البيت . وصرنا محتاجين الى كنيسة . فاجال المطران نظره فيهم وبش لهم بعد ما رأى ابتسامة فرح تبدو على وجوههم كلهم . وادرك مرادهم وقال لهم : طيب اعملوا اذاً همة بقيام الكنيسة . فقال له غير واحد : الهمة همتك ياسيدنا . ولا تعمر كنيسة الا بهمتك وكلنا محتاجون الى بركتك وهمتك . فقال المطران : طيب انا مستعد بكل طيبة خاطر الى مساعدتكم . لكن ماذا عندكم الان من رأس المال للنفقة . فقال احدهم : نحن فقرآء يا سيدنا وليس عندنا مال ولكن نقدم ذواتنا للعمل والشغل ونقدم الارض وكل الحجارة اللازمة

فسأل المطران خليل جرجورة ماذا تقدم اجرية ومساعدة ؟ فقال له : ياسيدنا اقدم الارض اللازمة من رزقي لكن لا اتجاسر ان اتقدم على سيادتك لا انا ولا غيري . لان الكنيسة كنيستك ونحن كلنا اولادك . والاولاد لا يتقدمون على والدهم في شي٠ .

فبشّ المطران له واخذ يقول لكل واحد منهم . وانت ماذا تقول وماذا تقدم . الى ان انتهى منهم كلهم . وكان حينئذٍ قد حضر الاب بشارة من الوادي فاستدعاه المطران وبعد ان قبل يده سأله كيف رضاك عليهم . فأجابه المهم رضاك ياسيدنا . ومن انا حتى يهتم الناس برضاي . فقال له المطران : ما قولك في طلبهم عمار كنيسة وليس عندهم خميرة ؟ فأجابه من اين عندهم الخميرة

وكلهم مساكين . الله يساعدهم .

ثم سأله : هل يعرفون ويؤمنون ان في عمار الكنيسة شرفية واجرية لهم في الدنيا والآخرة . فقال له : مساكين ناس ملاح . الله يساعدهم . ثم قال المطران وهل تريد ان تساعدهم انت . فضحك واجابه : الله يساعدني ويساعدهم . ومن انا حتى اقدر ان اساعدهم . لكنهم يرجون مساعدة سيادتك وانا مستعد ان اشتغل معهم مثل فاعل نظيرهم . وعندي كم قرش رزقها الله اقدمها في هذا السبيل اذا امرت سيادتك .

فالتفت المطران اليهم واجال نظره فيهم بابتسام وقال لهم : اسمعوا مني وسلموا هذا الامر للاب بشارة فتنجحوا وتتوفقوا لان ذمته مليحة وغيرته عليكم وعلى بيت الله احسن واحسن . واعملوا هذه الكنيسة على اسمه سيدة البشارة لتكون له ما دام حياً ومتى مات بعد عمرٍ طويل يكون قبره فيها . فقالوا له : امرك يكون ياسيدنا ولكن مسكين الاب بشارة مثلنا .

فتبسم الاب بشارة واطرق نظره في الارض حياء وسكت ملياً وقد علت وجهه حمرة الحياء والخجل من هذا المديح حتى كاد يخرج منه الدم .

ثم قال لهم المطران أطيعوا وتأكدوا ان الله يوفقه اكثر منكم حتى يعمر بيتاً لله عندكم . فقالوا له امرك يكون ياسيدنا ثم دخل المطران بالاب بشارة في خلوة وذكر له المحسن الكبير في ذلك

العهد المرحوم بشارة الخوري واوعز اليه ان يذهب الى بيروت ويطلب مساعدته للكنيسة واخذ يرغبه في ذلك بأنه رجل غني وتقي ويحب الخير ويحسن كثيراً الى الفقراء والكنائس فأجابه الاب بشارة الله يعطيه خلاص نفسه ويعوض عليه . لكن من أنا حتى يعتبر كلامي ياسيدنا . بل انت المعتبر عنده وتعرفه ويعرفك ويحترمك فاكتب له أنت بما تحب .

فقال له المطران : طيب انا اكتب له واستعد للسفر غداً الى بيروت لتأخذ مكتوبي وتوكل على الله وصلِّ للعذراء حتى يلهمه الله ليعطيك مبلغ عشرين ليرة حتى تباشر بالشغل . فقبل يده وذهب تواً الى الكنيسة ليصلي وكله امل ورجاء بالله وبوالدته . وكذلك الجماعة قبلوا ايد المطران وعادوا الى الوادي مسرورين وهم يقولون فيما بينهم ان شاء الله تكون هذه الخلوة فيها خير .

وثاني يوم صباحاً سافر الاب بشارة الى بيروت بالعربية بعد صلاة الفرض والقداس ومعه مكتوب المطران متكلاً على الله . ولذلك قضى الطريق كله بالصلاة كعادته .

وكان المطران باسيليوس من عادته ان يتودَّد الى كبار الرجال الذين كانوا يزورونه في دير القمر ويعرفهم بالاب بشارة ويذكر لهم اعماله ثم يستدعيه الى مجلسه ليعرفهم به شخصياً . وعندما كانوا ينظرون اليه بالحياء والحشمة وانخفاض النظر والسكوت كان يزداد اعتبارهم له ويتحقَّقون صدق ما يقال عنه .

ولعلَّ هذا وقع غير مرة مع رجل الخير المذكور بشارة الخوري اثناء زيارته للمطران . ولمّا وقف على مكتوب المطران ونظر ان حامله الاب بشارة نفسه اكرمه ودعاه لتناول الغذآء معه في داره ليعرف به اهله ويبارك اولاده . فشكره الاب بشارة واعتذر بعدم امكانه ذلك لاضطراره ان يرجع في اليوم نفسه مع العربجي بعد الظهر بدون تأخير

وكان الاب بشارة بانخفاض نظره ورأسه وصوته في كلامه معه كعادته مع جميع النـاس يجعل الانسان يحترمه ولا يخالفه ولايراجعه فيما يريد . ولذلك قصر معه الكلام بهذا الشأن بشارة الخوري وقال له : كم ليرة تريد يا حضرة الاب المحترم . فأجابه قدر ما يسمح به خاطرك يا حضرة الخواجا . فقال له بل قدر ما تأمر انت . فقل اذن ولا تخشَ لان المسألة ترجع الى امرك . فخجل الاب بشارة واجاب : بل الامر امرك يا حضرة الخواجا . ونظر الخواجا بشارة اليه بعد سكوت طال وادرك انه يزعجه بمثل هذا السؤال فقال له : هل يكفيك مبلغ عشرين ليرا . فأجابه كثر الله خيرك . ثم دفع له خمساً وعشرين ليرا . وقال له صلِّ لاجلي . وعند ما تحتاج تعالَ اطلب ما تريد والرب يوفقك . فدعا له الاب بشارة وشكره كثيراً وودعه وعاد الى دير القمر وهو يشكر الله تعالى ويدعو بالخير لهذا المحسن الفاضل الذي اثر في نفسه كثيراً كلامه وما ظهر له من تواضعه وتقواه واحسانه بهذا المبلغ من

اول مرة . وكانت هذه الزيارة اول اسباب الصداقة الممتازة بين هذين الفاضلين وقد تمكنت فيما بعد وزكت كثيراً واتصلت الى المرحومة امرأته واولاده . وآخر مرة زاروه في دير المخلص سنة ١٩٢٩ وقد تكررت مساعداتهم له و لاعماله مراراً

ولمّا بلغ دير القمر قابل المطران واخبره بما كان واخذ يمدح تقوى صاحبه وتواضعه وشكر المطران وقال له : هذا كان ببركة سيادتك وبقوة كتابتك له واراد ان يدفع له المبلغ . فأبى المطران قبوله وقال له : احفظه عندك للمباشرة بالعمل وسأزيده لك ان اراد الرب . وبعد قليل باشر بالعمل على يد المعلم جرجس سماحة من الخنشارة الذي كان يقيم في دير القمر .

« الفصل التاسع والعشرون »

تمام الكنيسة ولوازمها

واذ صار بيده هذا المبلغ الذي هو كل رأس ماله قوي امله بنجاحهِ واتمام عمله ، لا اعتماداً عليه بل اتكالاً على الله وعلى وعد هذا المحسن الفاضل الكريم وعلى بركة المطران ومساعدته الادبية التي كان يعدّها افضل من مساعدته المالية . وبالحقيقة ان المطران باسيليوس رحمه الله كان من اكبر دعاة الخير للاب بشارة واقوى المساعدين له على اتمام هذه الكنيسة وتزيينها وتجهيزها بما يلزم

لها من الاواني والايقونات والصلبان والستائر والمنجور وغير ذلك .

على انه بعد وضع اساس الكنيسة في الارض التي قدمها لهذا الغرض خليل جرجورة وقبل ان يصرف هذا المبلغ اخذت المساعدات المالية تأتيه تباعاً من اهل الخير من اصحابه ومعارفه ومن اناس لم يكن له معرفة بهم من قبل وليسوا من دير القمر ولا من طائفته ولا من الموارنة بل من البروتستانت والماسون . وبالتالي لم يكن يصرف ما يصل الى يده من هذه المساعدات حتى يرسل الله له غيرها على قدر حاجته وزيادة . ولم تكن تنقص عنه مساعدات الاهالي بعمل ايديهم . ولكنه لم يكن يستحل اجرة انسان منهم ولا سيما من كان يعرفه فقير الحال ومحتاجاً ولو اراد ان يتبرع بأجرة عمله لوجه الله تعالى في سبيل كنيسته . وقيل لي انه عرض مراراً على خليل جرجورة ان يدفع له ثمن الارض التي قدمها لبناء الكنيسة . وكان خليل يرفض قبول ذلك معتذراً بأنه تبرع بها لوجه الله واكراماً للسيدة . وحرام عليه ان يرجع عن ذلك . لكن الاب بشارة عوض عليه ثمنها بطريقة لطيفة بما كان يدفعه له اجرة لعمله بوجه مستمر .

وبعد ان تمَّ بناء الكنيسة عقداً سعى بقصر جدرانها بالكلس ورصف ارضها بالحجارة الصغيرة والكلس عدسة . ثم اقام لها قبة وجعل فيها جرساً يسمع صوته كل سكان تلك الجهات واشترى

صليباً كبيراً من فضة ليسير مرفوعاً امام الجميع في كل زياح . وذلك بطريقة اليانصيب اشترك به كثيرون . وقصارى الكلام لم تكن كنيسته هذه تحتاج الى شيء من الاواني المقدسة واواني الزينة التي عملها لها لتكون لائقة بعبادة الله تعالى . وقد اخذني العجب اذ وجدت في هذه الكنيسة عندما زرتها لاول مرة من ذخائر القديسين في بيوت لها من فضة ما لا وجود له الا في اكبر الكنائس عندنا

وما كاد ينتهي من ذلك حتى انشأ بجوار الكنيسة مدرسة لتعليم الاولاد الصغار مبادئ القراءة والكتابة والحساب والتعليم المسيحي قام بنفقتها . وكان يقوم بأجرة المعلم الى ان وقعت الحرب العامة فأقفلت المدرسة . وبعد نهاية الحرب عاد ففتحها على نفقته الى ان خرج من دير القمر وانتقل الى صيدا سنة ١٩٢٢ . وكان يوزع على الاولاد برسم جوائز صوراً وصلباناً ومسابح عدا بعض الكتب . وما كان أهالي الاولاد يعرفون بذلك ولا من اين يأتيه المال لذلك

وكان الآباء العازاريون بواسطة سعي المطران باسيليوس يساعدونه مع حسنة قداسه بدفع ليرا فرنساوية في كل شهر من اجرة معلم للمدرسة اسوةً بكثيرين من الكهنة الذين كانوا يتخذون على نفوسهم تعليم الاولاد وخدمة النفوس في قرى لبنان .

ولا يسعنا هنا ذكر كل المساعدين له من اهل الخير ما لم نسيء

الى كثيرين منهم لا نعرفهم . لكن لا يسوغ لنا اهمال ذكر من نعرفهم منهم الذين اعتادوا عمل الخير على يده مراراً وبمبالغ ذات شأن مثل المطران باسيليوس حجار وبشارة الخوري وامرأة نعوم باشا ممن تقدم ذكرهم . فنذكر منهم حضرة الاب افرام البستاني رئيس انطوش سيدة التلة في دير القمر وحضرة الاب بشارة غفري رئيس انطوش المخلصية في مدينة رومة . ومن النساء السيدة عفيفة بدورة ارملة المرحوم سليمان خطار وارملة المرحوم بشارة الخوري وبناتها والدكتور أسعد عطية أحد اعضاء مجلس الاعيان المصري وصهره شاهين بك جرجس كاتم اسرار حاكم السودان . ونعدل عن ذكر اخوانه الرهبان المخلصيين

وقال لي احدهم انه يؤثر ان يكون احسانه على يد الاب بشارة لانه يعرفه انه لا يبقي في جيبه شيئاً بل يوزعه كله بسرعة على من يعرفهم اكثر منه بانهم محتاجون



﴿ الفصل الثلاثون ﴾

تذكارات ومشاهدات خاصة

في سنة ١٨٩٣ ذهبت الى دير القمر لزيارة الاب بشارة لأكشف له ما في نفسي بشأن ما كنت فيه من الحيرة بامر قبولي رسامة الكهنوت . وكنت قد خرجت من المدرسة الرهبانية مع رفاقي الذين ارتسموا كهنة دوني . لاني كنت أخشى ان يكون تقدمي الى الكهنوت بدون ان اتحقق دعوة الله لي جراءة على الله . وكان وصولي الى الدير قبل الظهر في ١٣ ايلول . ولما جلسنا على المائدة لتناول الغذاء جلس معنا الاب بشارة . إلا انه قام قبل الجميع الى الكنيسة لزيارة القربان المقدس كعادته فلحقت به . وبعد أن أتمَّ صلاته في مدة ساعة قام لتنظيف الكنيسة وزينتها استعداداً للاحتفال بعيد رفع الصليب الكريم في اليوم التالي . فطلبت اليه ان يسمع اعترافي فأقبل بي حالاً الى كرسي الاعتراف . وما أنجزت اعترافي إلا شاهدت الناس تقبل على الكنيسة للاعتراف اليه بدون انقطاع . ولبث في كرسي الاعتراف من نحو الساعة السابعة نهاراً الى نحو الساعة الرابعة ليلاً يسمع اعتراف كل من كان يأتي اليه من الرجال والنساء والاولاد والبنات من طائفتنا ومن الموارنة . واقمنا صلاة الغروب الاحتفالية ترتيلاً مع

صلاة الاغربنية إكراماً للعيد ثم تعشينا وخرجنا ليلاً الى السطوح لنرى زينة انوار هذه البلدة المسيحية العامرة وزينة ضواحيها إكراماً للعيد . وقضينا هناك مدة حتى طفئت انوار الزينة وذهبنا ننام والاب بشارة لم يزل في كرسي الاعتراف ولم يخرج من الكنيسة لتناول العشاء ولا شرب كاس ماء ولا اخذ راحة

وقد جرى الحديث في تلك الليلة المباركة مع من كان معنا من الكهنة والعالمين عن الاب بشارة واعماله في الدير وضواحيه وكان الحديث لا محالة ذا شجون

ومما اذكره من ذلك الى اليوم ان متصرف لبنان نعوم باشا مرض ابنه الوحيد سعيد بك مرضاً ثقيلاً ازعج والديه وكان قد بلغهما من كثيرين خبر رجل الله الاب بشارة وما كان عليه من التقوى وحرارة العبادة بصلواته فارسلا اليه نعمان بك المعلوف الذي كان يومئذٍ عضواً في مجلس الادارة اللبناني يطلبانه ليصلي على المريض . فذهب الاب بشارة الى دار المتصرف وزار المريض وصلى عليه وعاد الى دير القمر واقام مع الكهنة وبعض الناس صلاة الباراكليسي في كنيسة السيدة لهذا الغرض . فشفى الله المريض تماماً . ونسب ذلك الاب بشارة الى قوة صلاة الجمهور في الكنيسة والى قوة شفاعة السيدة . واتخذ من ذلك سبيلاً لان يتردد على بيت الدين لزيارة المسجونين بجراءة ليسمع اعتراف الكاثوليك منهم ويوزع عليهم وعلى سواهم الحسنات التي كانت

تصل الى يده . ولم يكن يجد ادنى معارضة في سبيل ذلك من قبل مدير السجن ولا من الجند الحرس على المسجونين . بل كانوا كلهم على اختلاف مذاهبهم يجلون قدره لاعماله هذه ولعدم مداخلته معهم في غير ذلك وكان يذكر الاب بشارة لاصحابه بسرور احاطة الجند له بالاكرام والاجلال عندما كان يأتي الى السجن ليناول القربان المقدس للمسجونين .

وقد تكرر هذا الحادث فيما بعد مع شيء من الاختلاف في بعض ظروفه كما روى لنا هذا حضرة الاب ملاتيوس خوري اذ صار رئيساً ووكيلاً للمطران في دير القمر وهو شاهد عيان وله فيه شان قال : كنت ذات يوم ذاهباً الى بيت الدين لشغلٍ فقابلتني في الطريق حضرة السيدة الفاضلة امرأة نعوم باشا في عربية وامامها فارس ياور المتصرف . ولما صرت مقابلها وقفت قليلاً للسلام عليها باحترام كالعادة فوجدتها قد اوقفت العربية واوعزت الي ان ادنو . ثم قالت لي ارجو منك ان ترسل لنا حضرة الاب بشارة ليصلي على راس ولدنا سعيد بك فانه مريض . ولما عدت الى دير القمر بلغت ذلك الى الاب بشارة فذهب حالاً ولما عاد سالته عن المريض فاجابني : هو بخير ما عليه شر . ثم قلت له وهل جادت لك والدته التقية الكريمة بشيء كعادتها الى الفقراء وكنيسة الوادي . فقال كثر خير الله وخيرها . فأدركت من هذا انها قالت له ان لا يعلم احداً بذلك

وقد ذكر حضرة الاب نقولا ابي هنا في سيرة الاب بشارة التي نشرها في مجلة المسرة مثل هذا الحادث مع شيء من الاختلاف عن الاول والثاني بان المتصرف نعوم باشا ذاته ارسل اليه مع حوذيه بطاقة يستدعيه للصلاة لابنه الوحيد ويأتي به بعربيته . لكن الاب بشارة ابى الركوب فيها وسار على قدميه في طريق مختصر بدون علم الحوذي الذي بقي ينتظره خارجاً . واذ طال انتظاره له سال عنه فقيل له سبقك ماشياً . وعاد الحوذي وحده لعله يجده في الطريق فخاب ظنه . واذ بلغ الاب بشارة بيت الدين مسح وجهه من العرق ودخل على المتصرف في داره فلحظ هذا من لون وجهه انه اتى ماشياً . فقال له غاضباً متعجباً الم يقل لك الحوذي لتركب العربية التي ارسلتها لك معه . فاجابه بلى ولكن انا افضل المشي وقد اخذت طريقاً اقرب من طريق العربية بدوراته الكثيرة . وبعد ان صلى على المريض دفع له والده عشر ليرات ذهب خصها الاب بشارة بكنيسة الوادي .

ولسنا بحاجة لان نقول إنه في كل زياراته الى بيت الدين وغيرها كان يسير دائماً على قدميه . واذا دعاه أحد من أصحاب الشأن ليركب معه في عربية او على دابة كان يرفض ذلك معتذراً بان السير على الاقدام أفضل له واكثر افادة لصحته . وإنما قصده بهذا ان يكون وحده في الطريق باكثر حرية لممارسة صلواته بدون مانع ولا تشويش وبدون ان يثقل بذلك على احد لانه كان

يقضي الطريق بالصلاة ولا يدع الوقت يذهب سدى .

ومن هذا القبيل ما جرى له بعد ذلك مع الدكتور يوسف البستاني في طريقه من الوادي الى دير القمر في سنة ١٩٢١ كما سيأتي الكلام عنه مفصلاً في محله ان شاء الله تعالى



﴿ الفصل الحادي والثلاثون ﴾

اعماله الكهنوتية في دير القمر وجوارها

كان يقيم عادة في دير القمر وله فيها غرفة خاصة في الانطوش التابع لكنيسة مار الياس ينام فيها ولا ينام في سواها ولو غاب النهار والليل في خدمة النفوس في دير القمر او القرى المجاورة . ولم يكن في هذه الغرفة صندوق او خزانة ولا ديوان ولا شيء من الفرش الا طراحة صغيرة وحصيرة من القش وتخت عليه فراش ومخدة ولحاف لمنامه وسحارة من سحاحير زيت الكاز المعروفة يضم فيها ثيابه وفوقها صليب مع بعض كتب روحية و كتب صلواته المعروفة

وقلما كان يكون في غرفته لان اكثر اوقاته كان يقضيها

بالصلوات امام القربان الطاهر في كنيسة مار الياس حيث كان يقدس غالباً ويسمع اعترافات من كان يأتي اليه لذلك من اهل دير القمر وغيرهم لانه كان يقصده لهذا الغرض كثيرون من اماكن شتى وبعيدة . ويوم السبت كان يقدس غالباً في كنيسة السيدة التي بجوار مار الياس . وفي ايام الاحاد والاعياد كان يقدس في كنيسة الوادي التي انشأها هناك او في كنيسة الموارنة في وادي بحليه بجوارها . وفي العشر السنين الاخيرة من حياته هناك كان بعد قداسه في الوادي وزيارة من يجب ان يزوره من المرضى فيها وبجوارها يذهب يقدس قداساً ثانياً في كنيسة كفرقطرة ومسافة الطريق بين البلدين تقتضي ثلاث ساعات على الماشي المجد صعداً في طريق صعب خشن .

ولم يكن يهمل زيارة المرضى او يتأخر عن ذلك حالما يعرف ولم يكن ينتظر ان يدعى لذلك من المريض او من اهله سواء كان المريض في دير القمر او في احدى القرى التي كان متقلداً خدمة نفوس اهاليها من الروم الكاثوليك او سواهم وسواء كان المرض ثقيلاً او خفيفاً عارضاً . بل كان يزور المريض مراراً اذا طال مرضه . فيسلم اولاً عليه ويسأله بلطف واهتمام عن صحته وحال مرضه ثم يصلي عليه صلاة المرضى ويحضه بلطف ورفق على احتمال مرضه بالصبر الجميل وعلى الاعتراف . وكان بلطفه وغيرته على خلاص النفوس يتغلب على موانع جمة يجدها الكهنة

غالباً من قبل المريض واقاربه باهمال هذا الواجب المفيد العظيم الشان في الحياة المسيحية

واذا اقتضى الحال ان يقدس في قرية ليس فيها كنيسة للروم الكاثوليك ولا الموارنة فكان يقدس في احد بيوت الخاصة من اهلها وكان يحضر معه كلما يحتاج اليه لذلك من الاواني المقدسة والبدلات والستارات والكتب ويحملها على دابة ويحضر معه من يحسن خدمة القداس بنوع لائق حتى لا يشوش عليه قداسه احد لا يعرف خدمة القداس وكان يدفع له اجرته ويعتني بامره اكثر من عنايته بنفسه فكان الخادم يركب غالباً على الدابة والاب بشارة يسير خلفه على رجليه الطريق كله . واذا تناول حسنة او تقدمة مالية من اهل البلد او ممن كافه منهم بهذه الخدمة اخذها ودفعها الى الخادم رفيقه ولا يبقي شيئاً لنفسه حتى ان القربانة التي كان يشيل منها شيلة القداس كان يوزعها كلها ولا يبقي لنفسه منها شيئاً لانه كان قد عود نفسه من اول عهده بالرهبانية ان لا يتناول شيئاً من الطعام صباحاً . واذا لزم الحال ان يبقى هناك الى ما بعد الظهر وشدد عليه احدهم بالعزيمة له الى تناول الغذاء تغدى او اخذ ما يقدم له من المأكول ووضعه في منديل او فوطة وتقاسمه مع من يتفق ان يجده في طريقه من الفقراء وابناء السبيل

وكان يضع عادة في جيبه بعض النقولات ليوزعها على

الاولاد والفقراء الذين يصادفهم في طريقه في دير القمر وغيرها حتى قال لي احد رفاقه بزياراته كانت جيابه لا تفرغ ابداً كانها نبع لا ينضب اصلاً . وذلك انه كان اذا زار بيتاً من اهل اليسار وقدم له اصحابه ما يقدم من الحلو او النقل مما يقدم عادة لاكرام الزائر كان ياخذه ويضعه في ورقة بجيبه ليعطيه لاول من يتفق له من الاولاد والفقراء . وهكذا كان يفعل في حصته التي تقدم له على المائدة في الانطوش من الحلو والنقل فيحفظه ليوزعه على اصحابه الذين تعودوا ذلك منه . ومراراً كثيرة كان يشتري من السوق اذا لم يكن في حوزته شيء من ذلك ويوزعه عليهم وهو يسر بهذا لانه كان يعتقد بانه يعمل بذلك خيراً مع اخوة المسيح الفقراء وهو يرجو ان ينال عن ذلك اجراً عظيماً في السماء اعظم من اجر من يسقي كأس ماء باسمه تعالى .

﴿ الفصل الثاني والثلاثون ﴾

الاب بشارة وابو مراد الحاج

ذكرنا في فصل سابق صفحة ١٣ ان قد قتل سنة ١٨٦٠ في بيروت رجل مسلم لم يعرف قاتله . وقد اهاج قتله حينئذٍ عامة المسلمين على النصارى في تلك الايام الكثيرة الاضطراب وانه قد أتهم بقتله رجل من بكاسين اسمه بطرس بن يوسف ابي مرعي

حوكم وحكم عليه ونفذ الحكم في تلك الليلة نفسها .

وقد طالعنا هذه الرواية في عدة كتب مطبوعة بالعربي وفي غيرها عدا المخطوطة لم يذكر احد اصحابها اسم القاتل الحقيقي الذي بقي مجهولاً منهم ومن هذا العاجز الى ان زرت دير القمر سنة ١٩٣١ فتحققت حينئذٍ انه حبيب الحاج ابو مراد المذكور في عنوان هذا الفصل بكنيته لابنه الاكبر مراد الذي قتل سنة ١٨٦٠

كان حبيب المذكور في عنفوان شبابه معتدل القامة ملآن الجسم شديد البأس وقوي العزم شجاعاً لا يهاب الموت . وكان في تلك الاضطرابات يسطو مع رفاقٍ له على شاكلته من دير القمر على قرى الدروز ويقطع عليهم الطرقات ويفاجئهم في بيوتهم وحقولهم ويعمل بهم قتلاً ونهباً وسلباً كما شاء القدر انتقاماً لما فعلوا في النصارى ولا سيما اهل بلدته دير القمر حتى قيل انه قتل منهم بيده مئة نفس

وعند ما تمت مذبحة اهل دير القمر في سرايا الحكومة باتفاق الجند التركي والدروز كان حبيب المذكور في خارج البلد اذ ابى ان يسلم نفسه وسلاحه الى ذمة الاتراك والدروز . ولم يغتر باقوالهم مثل زعماء وعامة اهل الدير . بل خرج مع رفاقه الى البرية يقطع الطرقات على الدروز وينتظر العاقبة والاخبار عن اهل بيته . ولما علم ان امرأته ذهبت الى بيروت مع باقي النساء

والاولاد بعد ذبح الرجال في الدير قصد بيروت . واول ما وقعت عينه على امرأته سألها اين مراد . فكان جوابها له دمعة سخية وشهقة بكاء قوية . وما استطاعت ان تقول له سوى اعطاك عمره . فثار ثائره وجن جنونه وسار على وجهه في طريقه فوجد رجلاً لحاماً حاملاً على ظهره ذبيحة فيها سكين وعرف انه مسلم فتناول السكين وضربه بها على رقبته ضربة ذبحه بها من الوريد الى الوريد وطار بسرعة ما بين سمع الارض وبصرها ولم يستطع احد ان يهتدي اليه ولا عرف به احد

وبقي مدة طويلة مع رفاقه على هذه الاعمال التي ذكرنا الى ان سكنت تلك الاضطرابات وكفت الفتن وخيم الامن والسلام فوق البلاد فعاد ابو مراد الى رشده ولزم ديره ومنزله لا يأكل خبزه الّا من عمل يديه وعرق جبينه . الا انه بقي فخوراً باعماله السابقة فكان يقصها على اصحابه ، وما كان يكتمها بعض الاحيان عن نفس اخصامه الدروز اذا اتفق ان تجمعهم به الصدف . وكان الناس بالاجماع يحبون الاجتماع به ويأنسون بلطف حديثه الذي كان فكهاً ومنزهاً عن كل سفاهة او تحقير .

وفي السنوات العشر الاخيرة من حياته اذ شعر في نفسه بثقل ما كانت تحمل ذمته من عاقبة اعماله السابقة وبشدة وخز ضميره منها امام الله وانه لا بد له من المسألة والحساب والعقاب عليها انقلب تماماً عمّا كان عليه وتنزه عن كل شيء في هذه الدنيا

وترك بيته واولاده وحبس نفسه في غرفة صغيرة حقيرة بجوار كنيسة مار الياس في دير القمر تحت الغرف التي يسكن فيها الكهنة لا تصلح للسكن ولم تزل معروفة الى اليوم. ولم يكن يخرج منها الا الى الكنيسة التي كان يقضي فيها اكثر اوقاته بالصلوات المتصلة الحارة اماً وحده او مع الاب بشارة الذي اتخذه استاذه ورفيقه في الصلوات ومعلم اعترافه. واذ لم يكن يحسن القراءة ولا يعرف من الصلوات الا الصلاة الربية وسلام الملاك وارحمني يا الله كان غالباً على لسانه قوله يا ربي اغفر لي انا الخاطئ. وهو يقرع صدره بيده بشدة وقوة كان يسمع صوت الضربة كل الذين في ساحة الكنيسة خارجاً. وكان منظره في صلاته منتصباً او ساجداً يعمل المطانيات قارعاً صدره مشهداً جليلاً يجلب الخشوع في نفس كل من كان يراه

وقد شاع بين الناس خبر توبته الشاقة الى اماكن بعيدة حتى كان كثيرون من قرى لبنان وبيروت وصيدا وغيرها يأتون الى دير القمر لزيارة كنيسة مار الياس ليشاهدوه فيها يصلي راكعاً او ساجداً يقرع صدره ويقول يا ربي اغفر لي انا الخاطئ. وكان قد جلله بياض الشيب في شيخوخته وترك شعر رأسه ولحيته وهزل جسمه كثيراً. لكن بقيت ضربة يده على صدره الصحيح القوي قوية وشديدة. ولم يكن يتناول في اليوم الا وقعة واحدة من الطعام وبقي على هذه

السيرة الشاقة نحو عشر سنوات الى ان فارق هذه الحياة الشقية نحو سنة ١٩٠٠! على اتم الاستعداد للقاء ربه التواب على عباده على يد رفيقه الاب بشارة الذي كان دائماً بخدمته وشاهداً على فضل وسعة نعمة الله ورحمته التي تدعو الخطأة الى التوبة وتغير قلوبهم مهما كانت قاسية . سبحانه ما اعظم رحمته .

﴿ الفصل الثالث والثلاثون ﴾

الاب بشارة والجمعيات الخيرية والاخويات التقوية

لا خفاء ان الجمعيات الخيرية والاخويات التقوية عنصر مهم في الكنيسة الكاثوليكية . ولها شأن عظيم بظهور الحياة المسيحية فيها بوجه جميل بارز لان افرادها نخبة من الشعب المسيحي في كل مدينة وبلدة انضموا الى بعضهم لتوثيق عرى المحبة المسيحية باعمال التقوى والاحسان الى الفقير ومساعدته لوجه الله تعالى ولرفع شأن كنيسته واولادها اخوتهم بالمسيح

وتتألف الجمعيات الخيرية غالباً من الرجال القادرين على عمل الخير ببذل الاحسان والسعي بجمع المال من اهله لمساعدة الغير . وتتألف الاخويات التقوية غالباً من النساء ويغلب فيها الخير بطريق العبادة والصلاة والعمل لزينة الكنائس ومساعدة اهل العرض بالنفقة على زواج البنات المستورات

ولا تخلو اليوم بلدة كاثوليكية من اخوية تقوية ولا من جمعية خيرية . بل قد يكون في بعض المدن عدة جمعيات واخويات يشترك بها كثيرون من كل الطوئف الكاثوليكية التي فيها . وقد يكون بعضها خاصاً بطائفة واحدة دون سواها

وكان في دير القمر على عهد الاب بشارة عدة جمعيات واخويات اهمها واخصها جمعية سيدة التلة وهي تنسب الى مركزها كنيسة سيدة التلة المعروفة هناك لطائفة الموارنة . وافرادها من طائفة الموارنة وطائفة الروم الكاثوليك من اهل الدير الساكنين فيها والنازحين عنها . ولها فرع مهم في بيروت لكثرتهم فيها . وغاية هذه الجمعية بذل الاحسان في سبيل مساعدة الفقراء ودفن الموتى منهم بوجه لائق بشرف الاسم المسيحي

ومنها اخوية الاتحاد المسيحي ولها مركز خاص معروف هناك . وغايتها توحيد كلمة افراد الشعب من اهل الدير والتعاون على عمل الخير والصالح العام لاهل البلد . وافرادها من الطائفتين على السواء

ومنها اخوية سيدة الحبل بلا دنس وهي تقوية خاصة بالنساء ومركزها كنيسة سيدة الدلغانة المعروفة هناك خاصة طائفة الموارنة . واعضاؤها من نساء الطائفتين على السواء .

ومنها اخوية سيدة البشارة ومركزها كنيسة سيدة النياح للروم الكاثوليك . وهي خاصة بالنساء . وافرادها من كلا

الطائفتين المشار اليهما كالاخوية السابق ذكرها

ومعلوم ان لكل جمعية واخوية مسيحية قانوناً او نظاماً يسير بموجبه افرادها يكفل لها البقاء ويكفل لافرادها العمل بنجاح لبلوغ غرضهم وغايتهم المسيحية منها . ولذلك كان لا بد لها من كاهن فاضل غيور على نجاحها يتولى تدبيرها وارشاد افرادها بالوعظ في اجتماعاتهم العامة والخاصة وسماع اعترافاتهم ولاصلاح كل خلل يقع منهم بسلطانه الكهنوتي لكونه العضو العامل الاشرف في الكنيسة .

على ان الاب بشارة لم يكن يعد نفسه اهلاً لان يكون مرشداً رسمياً او رئيساً لواحدة من هذه الجمعيات او الاخويات لانه كان يتجنب قدر طاقته الظهور بين الناس بشيء من مظاهر الرياسة . الا انه كان بالحقيقة والفعل المرشد العام لافراد هذه الجمعيات والاخويات ومن اكبر دعاة الخير لها . لان اكثر افرادها كانوا يعترفون اليه ويقدرون عمله حق قدره في ما يعمل لمساعدتهم بجمع الاحسان من اهل الخير وتوزيعه على المحتاجين بامانة وسرعة . ولم يكن يجد احد سبيلاً للشكوى منه بامر يعاب به او ما يشعر بعدم الثقة المتبادلة

ومنذ اخذ يشيع عنه بين الناس حبه للفقراء وغيرته على مساعدة المحتاجين صار الفقراء يقصدونه كانه رئيس جمعية خيرية او امين صندوقها . ولذلك صار اهل الخير يفوضون اليه توزيع ما

تجود به نفوسهم من الحسنات المالية لعلمهم انه اكثر معرفة بالمحتاجين ولا شك بامانته . ومن ثم صار بمقام جمعية خيرية خاصة لدى اصحابه

واذ كان اكثر الفقراء الذين كانوا يترددون اليه يجدونه غالباً بالصلاة في الكنيسة فكانوا يجدون الخير في مشاركته بالصلاة حينئذٍ حتى كانت تتألف منهم اخوية تقوية ليس لها قانون الا المثال الصالح الذي كانوا يجدونه فيه مجسَّماً امامهم بصلواته الحارة بكل تقوى وخشوع .

ومعلوم ان الفقير يرى نفسه دائماً في حاجة الى المال . وصاحب الحاجة كما يقول المثل ارعن لا يريد الا قضاءها . وقد تفضي به الحاجة الى ان يشكو غالباً من الناس حتى لا يسلم منه رجال الجمعيات الخيرية فيصمهم بالبخل والميل مع الهوى الى اصحابهم وذويهم وقد يكون هذا غالباً بدون حق . ولذا لتهم على الاب بشارة ما كانوا يكتمون عنه هذه الشكوى . واذ كثروا عليه وكثر ترددهم اليه لطلب الاحسان واصبح ما يصل الى يده من اهل الخير لا يفي بالحاجة الكافية لهم رأى ان يؤلف جمعية خيرية خاصة تكون أوفى بالغرض واكثر مناسبة لما يقصد من الخير الشامل واعلن ذلك في نشرة طبعها ووزعها على اصحابه من اهل الخير سنة ١٩٠٢ وقفنا على عدة نسخ منها ننقلها هنا ليقف القارئ عليها بنصها فيعلم من ذلك انه كان رئيسها ومدير اشغالها

ومرشدها والجابي لاموالها والموزع لها والرسول الداعي الى الاشتراك بها . وما كان ينقصها شيء عن الجمعيات الخيرية الا صندوق لاموالها ودفاتر لحساباتها التي لا يعلم بها الا الله العالم باصحابها ونواياهم واعمالهم التي سيكافئهم عنها في الاخرة باضعاف ذلك . ونجد فيها ايضاح امر خفي من اسرار حياة الاب بشارة لم يبح به الا مضطراً لفائدة وخير الفقراء . وهو امر صيامه الى غياب الشمس في كل اول يوم من كل شهر لاجل المشتركين بهذه الجمعية مع تقدمة ذبيحة القداس والصلوات المذكورة هناك .

صورة

دعوة الاشتراك في الجمعية الخيرية باسم سيدة البشارة

في دير القمر سنة ١٩٠٢

إخوتي الاعزاء فلنفتح باب الشفقة والرحمة لاخوتنا الفقراء والمساكين حتى يفتح لنا يسوع المسيح في الاخرة باب السماء لانه قال سبحانه وتعالى الذي تصنعونه باخوتي هؤلاء الفقرآء والمساكين فبي تفعلونه . والذي يزرعه الانسان في هذه الدنيا يحصده في الاخرة

فالذي يريد ان يشترك في هذه الجمعية يدفع كل شهر غرشاً او نصف غرش. والدفع يكون اما شهرياً او سنوياً مسبقاً . والذي يريد ان يتكرم بزيادة عن المرسوم فله الاجر الزائد . وانا العبد البطال الموضوع اسمي ادناه اقدم كل اول شهر قداساً واربعة وعشرين بيت المديح صلاة لسيدة البشارة مع الصيام الطبيعي لغياب الشمس دون اكل وشرب على نية المشتركين في هذه الجمعية الخيرية واذكرهم يومياً في الذبيحة الالهية وكذلك اتلو الجناز كل نهار سبت على نية انفس موتاهم ما لم يحدث لي مانع عن ذلك . والذي يريد الاشتراك يذكر لي اسمه حتى احرره في دفتر الاشتراك من اي جنس كان . والله امين في مواعيده لا يضيع عنده شي.

كاتبه الخوري
بشارة ابو مراد خادم
دير القمر

﴿ الفصل الرابع والثلاثون ﴾

الاب بشارة في ايام الحرب العامة

يقال في الحكم المأثورة المشهورة : عند الشدة يعرف الاخوان. وعند الامتحان يكرم المرء او يهان . فانها تنطبق تمام الانطباق على الاب بشارة ايام الحرب . ومعلوم ان تلك الايام كانت شديدة البؤس على جميع الناس من كل طبقة في كل بلاد الله ولاسيا في لبنان وقل فيها جداً اهل الخير اذ كان كل واحد منهم مشغولاً بأمر نفسه واهله للحصول على رغيف خبز يقتات به هو واهله . وهو الحاجة الكلية الشاملة لجميع الناس . وقل من كان

منهم يستطيع اعالة فقير برغيف خبز . فكان الاب بشارة والحالة هذه اكثر اهتماماً بالفقراء من ذي قبل . بل كان اهتمامه بهم اكثر من اهتمامه بنفسه في تلك الايام السوء كما يعرف هذا كثيرون من اصحابه الاغنياء والفقراء مما يذكرونه به الى اليوم

فقد كان من قبل يمنع نفسه مراراً عن بعض المأكولات ليحسن بها الى اول فقير يجده امامه . الا انه في ايام الحرب قد اتخذ بهذا الشأن سنة على نفسه لم يكن يحيد عنها . وهي انه كان يحسن الى الفقراء بمعظم ما كان يقدم له لاجل قوته الضروري لحياته من الخبز وسواه على مائدة الكهنة الخاصة وما كان يقدم له من اهل الخير من اصحابه لقوته علاوة على ما كان يعطى له برسم الفقراء . فما كان يذوق شيئاً من ذلك امامهم . بل كان ياخذه كله ويحفظه ليحسن به وهو يقول لهم معتذراً كعادته بكلام مجمل قصداً لا يريد به الكذب مثل قوله : لا اقدر الان او لا احتاج الآن للاكل . او لست الان جوعان

واذ طال به الامر هكذا عدة سنين اعياه الجوع وهزل جسمه كثيراً وتغير لون وجهه حتى كان لا يستطيع بعض الاحيان السير على قدميه لزيارة المرضى والفقراء كعادته

واذ بلغ به الحال الى هذا الحد وهو لا يبيح ذلك لاحد استدعى له الاب ملاتيوس خوري الذي كان رفيقه ورئيس انطوش دير القمر الدكتور سليمان مشاقة رحمه الله ليشاهده

ويصف له العلاج المناسب فلما عاينه قرر انه مريض بمرض الجوع وان ليس له دوآء الا الاكل بالقدر الكافي . فاقتضى ان يعنى الاب المذكور به وباكله عناية خاصة ليأكل كل ما يقدم له امامه وعلى نظره لانه كان يعرف جيداً ان قلة الاكل هي السبب لهذا العيآء له . لكن ما طال الامر كثيراً حتى عاد الاب بشارة يغافله ويأخذ حصته من الخبز والطعام ويعطيها للفقراء كعادته السابقة حتى عاد اليه العيآء السابق باشد مما كان . فاستدعى له الاب المذكور الدكتور سليمان مشاقة ولم يكن في دير القمر سواه من الاطباء لانهم اخذوا كلهم لخدمة الجيش في الحرب اضطراراً . وإذ زاره وفحصه قرر بشأن مرضه ما قرر سابقاً وانه ليس له علاج سوى الاكل بالقدر الكافي . والا مات عاجلاً . وقد تكرر هذا مراراً حتى اعيا امره الاب ملاتيوس والطبيب المشار اليه . فكان الاب بشارة يسمع كلامهما ويشكر لهما عنايتهما ويبسم لهما كأن ليس به عيآء ويقول لهما : « عمال آكل كل يوم » وحقيقة الواقع انه كان ياكل كل يوم شيئاً زهيداً حتى لا يموت عاجلاً بالجوع

وكان يعرف بهذا كثيرون من اصحابه ويلومونه على عمله بحرمانه نفسه القوت الذي لا بد منه للحياة حتى لم يكن يستطيع ان يعتذر اليهم بعض الاحيان الا بمثل قوله : فلان مسكين يحتاج اكثر مني لاعالة اهل بيته وكلهم فقراء ما عندهم شيء

يا كلونه . وحرام أن يموتوا كلهم هكذا . واما انا فالله يدبرني .

ولم يقتصر امره بهذا الشأن على الطعام بل كان يتناول كل ما يصل الى يده من المال والثياب حتى الحذاء . وكثيراً ما عرّى نفسه من ثيابه ليكسو بها بعض الفقراء . ومن ذلك ان السيدة عفيفة ارملة سليمان خطار اذ ابصرته لابساً حذاءً عتيقاً مهرياً تماماً قالت له وكانت تحترمه كثيراً ولا تبخل عليه بشيء : هذا غير لائق بمقامك الكهنوتي وحرام ان تكون هكذا في الكنيسة امام الناس . واذ كانت تخاف ان اعطته نقداً ثمن لستيك ان يوزعه على الفقراء اوصت له على لستيك واعطته له وقالت له احتفظ به لذاتك كرامة لمقامك امام الناس . وان كنت تعطيه لاحد تزعلني كثيراً حتى لا اعود اذهب الى الكنيسة للصلاة لا انا ولا اولادي ولا اعود اعطيك شيئاً . وما مضى اسبوع الا ان اعطاه لفقير كان حافياً التمسه منه بالتلميح دون تصريح

وفي الاحد التالي ذهب الى الوادي للقداس فابصرته السيدة المذكورة لابساً الحذاء العتيق المهتري ويكاد يكون حافياً فأدركت ما فعل وقالت له انك تضر نفسك ضرراً باهظاً وتجعل الناس الذين يكرمونك لا يعطونك شيئاً اذ تعطيه لاناس لا يعرفونهم في هذه الايام الشديدة على جميع الناس الذين لا يكفيهم الا الله

﴿ الفصل الخامس والثلاثون ﴾

انتقاله من دير القمر الى صبدا

لا ريب ان المجاعة العامة التي وقعت في لبنان ايام الحرب العامة قد اضرت ضرراً قتالاً بصحة اكثر الناس من اهله . فمن نجا من الموت جوعاً لم يسلم من مرض عضال افضى به الى الموت عاجلاً او آجلاً بعد انقضاء الحرب . لان هذه المجاعة بعد ان طال امرها عدة سنين افسدت الصحة العامة ولا سيما الاولاد والشيوخ الضعاف الابدان بقطع النظر عن الفقراء الذين يحتاجون الى الغذاء الكافي تعويضاً عما تخسره ابدانهم في الفتوة والشيخوخة مثل الاب بشارة الذي كان قارب السبعين من عمره سنة ١٩٢١ .

نعم انه لسبب ما كان قد اعتاد من العيشة القشفة كان اكثر صبراً واقوى جلداً على الجوع من الذين كانوا قد اعتادوا ان ياكلوا كل ما طاب لهم . الا انه حسب نظام الحياة الذي رتبه الخلاق الحكيم لا بد من القوت لكل حي بالقدر الكافي حفظاً لحياته . والا فقدت الحياة وزالت وزال اصحابها معها من هذا الوجود . على ان الاب بشارة لم يكن يتبلغ في ايام الحرب بقدر ما كان يتناوله قبلاً وهو في عنفوان شبابه . بل زاد على ذلك

امساكاً افضى به الى الموت مراراً لو لا عناية الله به وعناية الاب ملاتيوس . ولا بدع بعناية الله به وهي عربون لما اعده تعالى له من المكافأة في الاخرة على حبه لاخوته الفقراء الذين كان يؤثرهم على نفسه . « واي حب اعظم من ان يبذل الانسان نفسه عن احبائه »

واذا تكلمنا بشرياً وصرفنا النظر عن عناية الله به نقول : ان حالته الصحية والامر كما ذكرنا لم يكن يستطيع معها مواصلة اعماله الكهنوتية بعد نهاية الحرب كالسابق مع انه ازداد تعباً ومشقة لانه بعد وقوع الصلح اخذت الاحسانات ترد الى لبنان من كل صوب لتدارك الموت الذي كان يتهدد البقية الباقية من اهله . وكان يرد من ذلك شيء كثير على يده ليوزعه على المحتاجين من رعيته لثقة الناس بامانته ولاشتهاره بمحبة الفقراء فكانت هذه الاحسانات سبباً لزيادة التعب عليه بتوزيعها على المحتاجين بالسرعة اللازمة تداركاً لموت كثيرين

فقد روى لنا احد الثقاة انه وصل ليده في تلك الايام من الدكتور اسعد عطية مبلغ عشرين ليرة مصرية ليوزعها على الفقراء فلم يدع شمس ذلك النهار تغيب قبل ان صرف هذا المبلغ بقطع صغيرة ووزعه كله على المحتاجين وهو لا يبالي بتعب ولا بمشقة

ومن ذلك ايضاً ان الاب ملاتيوس الخوري الذي تقدم

ذكره . واراد ان يداعبه ذات مرة على العشاء فقال له وهو يضحك بكل فمه : اعطاني رجل عشر ليرات ذهباً لتوزعها على المحتاجين . فصدق ذلك الاب بشارة وسر به واسرع بعشائه ما امكن . وذهب الى الكنيسة لزيارة القربان المقدس ليشكر الله . وعاد الى الاب ملاتيوس يطلب منه المبلغ . فدفعه له لتمام المزاح . وما وصل ليده حتى لبس جبته وهم بالخروج ليوزعه حالاً . فاوقفه الاب المذكور بعدم المناسبة لخروجه ليلاً . وحينئذٍ استرجع منه المبلغ . فاطاع له الاب بشارة بدون تردد

وفي ١٤ آذار سنة ١٩٢٠ ارتسم مطراناً على صيدا ودير القمر الخوري اثناسيوس خرياطي خلفاً للطيب الذكر المطران باسيليوس حجار الذي توفاه الله في ايام الحرب . وفي تلك السنة ذهب المطران الجديد الى دير القمر لقضاء فصل الصيف ولافتقاد رعيته فيها وفي قرى الشوف لاول زيارة جرياً على عادة اسلافه ولاحظ هزال جسم الاب بشارة وكثرة اتعابه فقصد ان ينقله الى صيدا حيث يجد مجالاً واسعاً لاعماله الكهنوتية مع شيء من الراحة مما لا سبيل اليه اذا بقي مكانه ورعيته منتشرة في عدة قرى متفرقة كما سبقنا . واذ كان امر نقله ليس بالامر السهل بدون ان يغضب الرعية التي كان يشملها الاب بشارة بحبه وعنايته الابويه منذ ثلاثين سنة وقد تعلقوا به طبيعياً ودينياً ترك المطران هذا الامر لفرصة اكثر مناسبة حتى لا يزعجهم في اول اسقفيته

فانه بعد ان اتم زيارته لقرى الشوف واقليم جزين المرة الثانية عاد الى دير القمر في سنة ١٩٢٢ ليرتاح فيها . وكان اكثر اهل دير القمر من طائفتنا بارحوا بلدتهم الى بيروت وصيدا وبلاد مصر واميركا طلباً للرزق وهرباً من برد الشتاء القادم في الدير ومن ضيق العيش ومن المخاوف التي كانت تقلق البال في الشوف باول سني الاحتلال فرأى المطران ان ياخذ معه الاب بشارة الى صيدا ليرتاح فيها مدة الشتاء . وكان قد شاع ما وقع له في الطريق مع الدكتور يوسف البستاني

وهو انه اتفق له ذات مرة في سنة ١٩٢١ ان شاهده الدكتور يوسف البستاني سائراً على قدميه في طريق صعب المرتقى وقت الظهر من ايام الصيف وهو عائد من الوادي الى دير القمر ولحظ الدكتور انه قد اعياه كثيراً تعب الطريق والحر والجوع والعطش والشيخوخة وكان حينئذٍ يناهز السبعين سنة من عمره فاراد الدكتور بكل عزيمة ان يركبه على فرسه شفقة عليه . فرفض ذلك الاب بشارة وشكر واعتذر كعادته . إلا ان الدكتور نزل حالاً عن فرسه وأبى الّا ان يركب عليها رفيقه ولو مسافةً من الطريق . وبقي الاثنان مدة في جدال تارةً يسيران وتارةً يقفان والفرس لا راكب عليها حتى استولى التعب على الدكتور وفاز عليه الاب بشارة كعادته مع الجميع . وقص الدكتور المذكور هذا الحادث على كثيرين منهم سيادة المطران اوغسطين البستاني

كما أشار الى ذلك في رسالته التي سيأتي ذكرها . وقد سمعته أنا أيضاً من فم الدكتور المذكور في زيارتي له سنة ١٩٣١

اذاً في ٤ كانون الاول ذهب به المطران من دير القمر الى صيدا واطلق له الامر بسماع الاعتراف . فاقبل الناس عليه وعلى الكنيسة من جميع الطوئف الكاثوليكية التي في صيدا والقرى المجاورة من اقليم التفاح واقليم جزين واقليم الخروب لحضور الاحتفالات العظيمة التي كان يقوم بها المطران الجديد مع اكليروسه في الاعياد الكبيرة بتقوى ومهابة واتقان واولها عيد القديس نقولاوس صاحب الكنيسة الكاتدرائية ثم عيد الميلاد وعيد رأس السنة الى الغطاس وعيد المطران وشفيعه القديس اثناسيوس الكبير الى الصيام الكبير وما كان فيه من الرياضات الروحية الى جمعة الآلام الخلاصية المقدسة الى العيد الكبير . وكانت الكنيسة تزدحم غالباً بكثرة المصلين . فكان الاب بشارة يرى ذلك ويسر به كثيراً حتى انه لم يكن يقدر ان يكتم عن المطران سروره باقبال الناس ولا سيما الرجال منهم على الصلوات والاعترافات والمناولات فكان هذا طبق رغبة المطران بابقائه في صيدا الى أمد بعيد . وكان ذلك فعلاً

﴿ الفصل السادس والثلاثون ﴾

اعماله الكهنوتية في صيدا

لشهرة الاب بشارة بعظم تقواه وحسن ارشاداته في اعترافاته وكانت قد سبقته الى صيدا صار الناس يؤثرون الاعتراف اليه. وما طال الامر به في صيدا حتى صار فيها ملء العين والآذان عند الجميع. ومن ثم تعين بشكل خاص معلم اعتراف اعضاء الأخوية الكاثوليكية في صيدا التي مركزها في كنيسة مار نقولا الكاتدرائية. وكذلك تعين معلم الاعتراف لتلاميذ المدرسة الاسقفية ولتلاميذ مدرسة الاخوة المريميين والتلميذات راهبات مار يوسف. فكان كل نهار سبت يذهب الى كنيسة الدير وكنيسة المدرسة المذكورة يقضي عدة ساعات في منبر التوبة لسماع اعترافات عدة مئات من الناس من ابناء طائفة الروم الكاثوليك وسواهم في الثلاث الكنائس المعروفة في صيدا او في المدارس الثلاث التابعة لها. وصار اكثر الناس اذا لم نقل كلهم يؤثرون الاعتراف لديه على كل كاهن حتى كان لا يجد وقتاً كافياً لاتمام صلواته التي اعتاد ان يصليها كل يوم كما سبقت الاشارة الى ذلك. ولهذا السبب جعل اقامته او كما يقال جعل منامته في غرفة ضمن الكنيسة الكاتدرائية في احدى زواياها بحجة حراسة

الكنيسة ليلاً والسهر على قنديل القربان حتى يوقده اذا طفئ. وحقيقة قصده لكي يكون له السبيل الى مناجاة الله في القربان ليلاً في اي وقت اراد.

ومع هذا كان يقوم بكل واجباته الكهنوتية نظراً لكونه خوري الطائفة في صيدا اذ كان عليه ان يمنح سر العماد وبركة اكليل الزواج لكل من يأتي اليه لذلك من اهل صيدا والقرى المجاورة بعد اتمام المعاملة القانونية المقتضية لعقد الاكليل. وكان يزور المرضى ويسمع اعترافاتهم في منازلهم ويعزيهم في امراضهم ويهتم كثيراً بالمنازعين منهم ليزودهم الزاد الاخير من اسرار الكنيسة ليكونوا على استعداد حسن للقاء ربهم بموت صالح بعد مصالحتهم له بالتوبة الصادقة. وكان فيهم اناس غرباء ليسوا من صيدا ولا من طائفته. وفيهم اناس كانوا قد قضوا عدة سنين بحال الخطيئة بدون اعتراف كما هو شأن من يسكن المدن ولا سيما ايام الحرب العامة وما وليها في اول ايام الاحتلال. فكان الاب بشارة بكلامه اللطيف وبشاشة وجهه وخلقه الوديع يسهل لهم كل صعوبة للاعتراف بخطاياهم والندامة عليها بعد ان تحجرت قلوبهم وضمائرهم بالعادة على الخطيئة عدة سنين.

ويحسن بنا ان نذكر هنا ما رواه لي احد الشبان عن نفسه مما جرى له معه بهذا الشأن. وكان هذا الشاب قد قضى قبل الحرب مدة طويلة في مدرسة دير المخلص بقصد الدخول

في الرهبانية . واذ اتصل الاب بشارة به في صيدا بجوار الكنيسة وقد عرفه به احد الكهنة الذي كان معه اخذ الاب بشارة يسأله كعادته مع اكثر الناس الذين كان يجد منهم انساً به وميلاً الى الحديث معه عما اذا كان يسمع القداس ويداوم الاعتراف والمناولة فأجابه الشاب باحترام وكان كل من يعرفه يحترمه : نعم اسمع القداس ايام الآحاد والاعياد اذا لم يكن لي مانع يصدني او يشغلني عن ذلك . اما الاعتراف فشأني شأن اكثر الشبان لم اباشره من عدة سنين . فقال له الاب بشارة لماذا كل هذا الاهمال وانت مربى في دير المخلص وانت من اشراف الناس في طائفتنا الكاثوليكية . فأجابه الشاب الحق معك ايها الاب المحترم لكن نحن دائماً في شغل وهم . وما عندنا وقت لاعمال التقوى . فقال له الاب بشارة ماذا ينفع الانسان في هذه الحياة لو ربح العالم كله وخسر نفسه . كل شيء زائل سوى الله وعمل الصلاح لاجله . يجب ان تعترف وتتكل على الله حتى يوفقك في هذه الدنيا وفي الآخرة . وما احد من الناس له غنى عن الله . وكان هذا على سمع ونظر الكاهن صديق الاثنين فتوسط الامر بين الاثنين وانتهى بكلامه مع الشاب اذهب اعترف عنده وهو يساعدك بذلك حتى تجد راحة ضمير تامة . فالتفت الشاب الى الاب بشارة وابصر وجهه منبسطاً بابتسامة القداسة فاراد ان يباسطه وقال له انا مستعد ان اعترف حسب

امرك وامر الاب لكن انا شاب بعنفوان عمري ولا بد لي من ان اعود الى الخطيئة فان كنت تحلني من كل خطاياي الماضية والمستقبلة اذهب واعترف عندك بكل خطاياي . فادرك الاب بشارة قصده بكلامه وقال له لا باس ان شاء الله . تفضل معي الى الكنيسة . وهناك نرى ما يوفقنا الله اليه

وما كاد يستقر مقامه في صيدا حتى ثارت فتنة دهماء في الشوف بين الدروز والنصارى بسبب قتل ثلاثة رجال (هم ملحم افرام البستاني ونخلة شكري ومارون بيرم) من شباب دير القمر غدراً بطريقهم الى بيروت بيد عصابة من الدروز في ١٦ كانون الثاني سنة ١٩٢٣ وهم في سيارة قرب قرية سرجبال بمكان معروف هناك يقال له بيدر الرمل . وعقب ذلك عدة حوادث قتل من الفريقين طال امرها مما لا يسعنا تفصيله هنا ولا يزال ذكره عالقاً بذهن كثيرين . فاستولى بسبب ذلك القلق والاضطراب في دير القمر وجوارها . وشاع الاعتقاد فيهم بان الله اهمل دير القمر لان اهلها تركوا الاب بشارة يخرج منها وقد شعروا كلهم لاول مرة بذلك في الصيام الكبير والفصح المجيد فان هذه المواسم انقضت تلك السنة على غير ما كانت عليه في السابق من شعائر التقوى التي هي بهجة الاعياد المسيحية . ومن ثم اجمع رأيهم باتفاق تام بعد عيد الفصح حالاً على تقديم عريضة الى السيد اثناسيوس خرياطي مطران صيدا ودير القمر يلتمسون

بها منه ارجاع الاب بشارة اليهم كما كان سابقاً شفقة عليهم وحباً بخير نفوسهم . وقد وقفنا على هذه العريضة بتاريخ ذلك اليوم في اول نيسان سنة ١٩٢٣ بامضاوات اعيان دير القمر من طائفة الروم الكاثوليك وطائفة الموارنة ولاسيما اعضاء اخوية الاتحاد المسيحي منهم . وقدموها له مع تهاني العيد صحبة وفد منهم فأكرمهم المطران ولاطفهم واعتذر لهم بوجوب مراعاة صحة الاب بشارة التي لم تعد تسمح له بمواصلة اعماله السابقة في دير القمر وجوارها ووعدهم مع ذلك خيراً الى الصيف القادم القريب .

وبعد ان ذهب المطران الى دير القمر في الصيف كعادة اسلافه طالبوه كلهم بانجاز وعده لهم باحضار الاب بشارة فاعتذر لهم ايضاً بضعف صحته ومناسبة صيدا له اكثر من الدير . ومع هذا عاد الاب بشارة في آخر الصيف الى دير القمر وقضى فيها مدة من الزمان كان فيها عند الجميع ملء القلب والنظر

وقد وقع له في ذلك الحين انه خرج ذات يوم صحبة الارشمندريت كيرلس قروشان ب م الى زيارة فصادفا في طريقهما امرأة عاقلة تقية محترمة فسلمت عليهما وقبلت يد الاب بشارة بشوق واحترام وقالت له : ما نظرت دير القمر بعد خروجك منها يوماً مليحاً يااباناً بشارة . فاثر هذا الكلام منها في نفسه وازعجه كثيراً لمنزلتها واعتبارها . وقال لرفيقه تفضل ياحضرة الاب لنرجع الى الكنيسة اذ اريد ان اعترف . فاجابه : لا بأس

بذلك الان . فعند عودتنا تعترف . لكن ما زال به حتى عاد واعترف اليه . وهذا يدلنا على شدة تيقظه بان يكون دائماً بنجوة من كل مجد باطل.

رسالة اعيان دير القمر الى مطران صيدا بطلب اعادة الاب بشارة اليهم

قدس السيد الجليل الكلي الشرف والسامي الاحترام

بعد لثم يديكم الطاهرتين والتماس البركة الرسولية نعرض انهُ لمَّا كان امر الدين اول شيء يهم اخويتنا التي اتخذت شعارها « التمسك بعروة الدين الوثيق هي تمام الالفة والاتحاد » وتأكدت تاكيداً تاماً بانه من حين بارح حضرة الاب التقي الغيور الخوري بشارة ابي مراد بلدتنا دير القمر قد نجم خسائر روحية بهذه البلدة ليست بقليلة عدا عن الفوائد الادبية التي كان يبثها حضرة الاب المشار اليه في البلدة ونواحيها رأت هذه الاخوية ان واجبها الوطني ومبدأها الديني يقضيان عليها ان تفرغ كنانة جهدها لتعويض هذه الخسائر بعود حضرة الخوري المحرر الى هذه البلدة التي لم تعد تعرف حضرته الا وطنياً صمياً بل افضل من وطني . ولمَّا كان هذا الامر منوطاً بارادة سيادتكم وكلنا نعلم ان سيادتكم تتفانون بحب هذا البلد الذي يحفظ لشخصكم الوقور منزلة عالية من الحب والاعتبار بقلوب اهليه عموماً تجاسرنا بتقديم عريضتنا هذه وكلنا أمل بانها تصادف قبولاً عندكم وتكون كافية لاجابة ملتمسنا بعود حضرة الاب المذكور وسلفاً نشكر غيرتكم الابوية سائلين الله ان يحفظ لنا حياتكم الثمينة الى امد طويل مثلاً للفضل وعضداً للفضيلة مكررين بالختام لثم يديكم

رئيس وعمدة واعضاء
اخوية الاتحاد الخيرية المسيحية
بدير القمر

(ويتبع ذلك امضاوات كثيرين)

دير القمر اول نيسان سنة ١٩٢٣

﴿ الفصل السابع والعشرون ﴾

العودة الى دير المخلص

كان المطران اثناسيوس رحمه الله يظن ان الاب بشارة يجد راحة لجسمه باقامته في صيدا . مع انه كان يعلم تمام العلم بانه لم يكن يبتغي راحة في هذه الحياة . ولا سبيل له الى ذلك في مدينة نظير صيدا فيها اكثر من الفين نفساً من الكاثوليك لا يؤثرون باعترافاتهم احداً عليه . حتى انه في اواخر سنة ١٩٢٦ استولى عليه مرض شديد بانحطاط عام في جسمه وقلبه لسبب التعب بمواصلة العمل لاتمام واجباته الكهنوتية ولبقائه على ممارسة التقشفات التي اعتادها من ريعان شبابه . ومن ثم اخذت تنتابه بسبب ذلك نوبات قلبية شديدة . وضعف بصره لادمانه على تلاوة صلواته ساعات طويلة في الليل على ضوء شمعة ضئيل وهو لا يبالي بذلك . بل لم يكن يشكو من شيء لاحد اصلاً لا لكاهن ولا لطبيب ولا صديق ولا رئيس بل كان مسلماً امره كله لله وحده في كل حال حتى تغلب عليه مرضه ولم يعد يستطيع زيارة المرضى ولا اقامة القداس ولا الصعود الى غرفته العالية واقتضى الحال ان ينتقل الى غرفة واطئة مناسبة له في الانطوش ولزم فراشه هكذا مدة لا يستطيع الخروج منها .

وكان حينئذٍ المطران اثناسيوس في فرنسا يقاسي آلاماً مبرحة من جراء عملية جراحية صعبة جداً اخرج له فيها الطبيب بضع عشرة حصاة من بيت الكلى . وكان مع هذا يوصي وكيله من هناك ببذل كل عناية بالاب بشارة وعلاجه بمرضه . وكان ايضاً شديد الحرص على ابقائه في صيدا ولم يكن يدعه يعود الى دير المخلص كما كان يرغب وكما كان يرغب ايضاً كل روسائه القانونيين لاجل راحته من عناء اعماله الكهنوتية وانتجاع الصحة بهواء لبنان الطيب المعتدل في دير المخلص . وكان المطران يرى ان اسباب العناية متوفرة في صيدا اكثر من الدير بوجود الاطباء والادوية اللازمة لذلك بسهولة وسرعة في كل وقت . ودعي حينئذٍ لعلاجه الدكتور سليم الخوري المشهور بآدابه وتقواه كشهرته ببراعته بالطب . فلم يكن الاب بشارة يدعه في اول الامر يفحص جسمه الفحص اللازم لمعرفة مرضه حياءً وحشمة وهو يتجلد بصبر على ما يقاسي من الم مرضه بدون شكوى، على ما روى لنا الدكتور المذكور . الا انه رضخ بعد ذلك لامر الطبيب ولوكيل المطران حتى صار لا يخالفه في شيء . الى ان زال الخطر واخذ يعود تدريجاً الى العافية ثم عاد الى اقامة القداس وممارسة صلواته وسائر واجباته الكهنوتية نحو رعيته . لكن هيهات ان تعود صحته اليه تماماً كما كانت سابقاً .

ولما عاد المطران من فرنسا الى صيدا معافى من مرضه وجد الاب بشارة يشكو جد الشكوى من ضعف بصره لنزول مياه زرقاء على عينيه . وكان هذا يصده طبعاً عن الخروج من الكنيسة والسير في الطرقات لاتمام واجباته الكهنوتية نحو افراد رعيته ولا سيما المرضى منهم في جهات شتى من المدينة مما يوقعه في اخطار جمة ومهمة من قبل السيارات الهوجاء في سيرها وهي كثيرة في شوارع صيدا . فسمح له المطران ان يذهب الى دير المخلص اجابة لطلبه ليرتاح فيه مدة ولاجراء عملية جراحية في عينيه لا بد منها ثم يعود بعد هذا الى صيدا لعمله كما يصرح كتاب المطران بهذا الشان في تاريخ ٢٦ شباط سنة ١٩٢٧ الى نائب الرئاسة العامة حينئذٍ الارشمندريت اندراوس خرياطي . وبموجبه عاد الاب بشارة الى دير المخلص كما كان يرغب ذلك . ولبث فيه الى ان قضى اجله بحضور المطران المذكور كما سيأتي بيانه .

وينبغي ان نذكر هنا امراً مهماً في حياته الرهبانية اذ كان خارج الدير وهو انه كان يظهر دائماً رغبته الشديدة الصادقة بالعودة الى دير المخلص من حين خروجه منه الى العالم للرسالة الكهنوتية ليتسنى له فيه الاختلاء التام مع الله . وكان كذلك كل رؤسائه القانونيين يرغبون ان يعودوا به الى مدرسة دير المخلص مناظراً لتلاميذها كما كان سابقاً . الا ان ارادة المطران باسيليوس الذي كان زائراً باباوياً على الرهبانية بسلطة مطلقة فوق



الاب بشاره ابو مراد وسيادة المطران اكليمنضوس معلوف (صفحة ١٣٣)

سلطة الاب العام كانت، تحول دون ذلك . لانه كان يجب مراعاة خاطر اولاده اهل دير القمر واهل الضيع المجاورة لها الذين كانوا شديدي التعلق بالاب بشارة لتقواه الممتازة ولغيرته نحو الجميع ولا سيما حبه للفقراء . ومع هذا لم يكن هذا الاب الصالح يدع ان تفوته زيارة دير المخلص في كل عام حتى في ايام الحرب الكبرى .

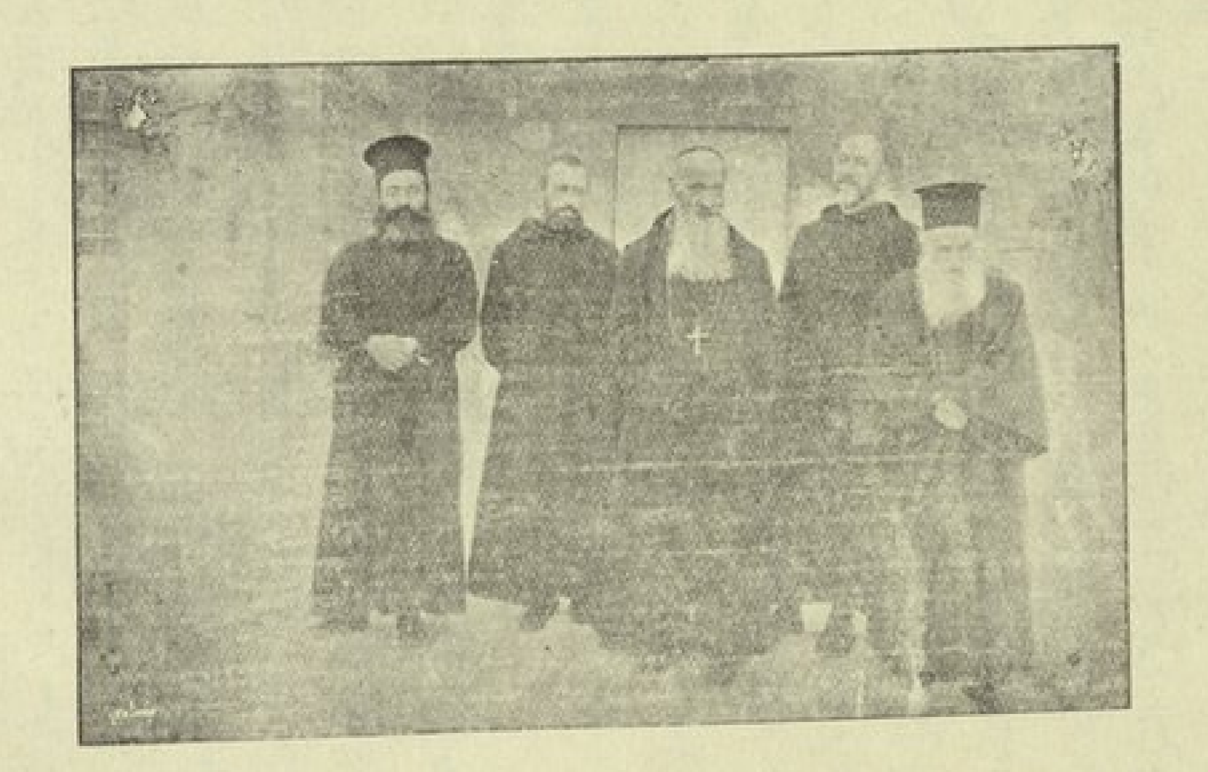
﴿ الفصل الثامن والعشرون ﴾

الاقامة في دير المخلص

حضر الاب بشارة الى دير المخلص للراحة فيه من عناء الاعمال في الظاهر . وانما جل ما كان يتوخاه بذلك اتمام ما كان قد سبق فرغب فيه حين حضر الى هذا الدير الشريف سنة ١٨٧٤ واتمام قصده الجوهري السابق في الرهبانية باعتزاله في الدير عن العالم واهله والاختلاء التام مع الله في الصلوات والتأملات الروحية استعداداً للقاء ربه بموت صالح لخلاص نفسه على اكمل وآمن وجه كما كان يقول . وهذا ما كنا نشاهده منه نحن وكثيرون من الرهبان وسواهم اذ كان يقوم بفرائض العبادة ونوافلها اتم القيام بكل ثبات ونشاط دون ادنى ملل او ضجر او فتور . فلم نكن نشاهده كل هذه المدة الى ان قضى اجله الا في الكنيسة

بالصلوات الفرضية والعقلية مع جمهور الرهبان او منفرداً فيها مع الله امام القربان الطاهر بصلوات حارة تكاد تكون متصلة كان يفرضها على نفسه لاغراض شتى لخير الكنيسة واولادها كما تقدمت الاشارة سابقاً اليها . ولم يكن ينقطع عن صلواته هذه الا لسماع اعتراف من يريد ذلك منه او لسماع القراءة الروحية مع جمهور الرهبان او لتناول الغداء معهم في وقته على المائدة العامة . وقلما كان يوجد في غرفته . واقل من هذا ان يشاهد بين الرهبان في نزهتهم العامة بعد الغداء والعشاء في ساحة الدير او على السطح . ولم يكن يخرج اصلاً خارج الدير لنزهة كل هذه المدة لا وحده ولا مع اخوانه الرهبان .

وفي اول الامر أعطي له غرفة مجاورة للكنيسة لا تبعد عنها اكثر من ثلاثة امتار . وما كان احد يطلبه او يسأل عنه الا وجده في الكنيسة ليلاً او نهاراً . وبعد صلاة النوم كان يأخذ مفتاحها ويجعله في غرفته بحجة ان يسهر على دوام نور قنديل القربان وينيره اذا طفي ليلاً لكن كان جل قصده ان يزور القربان الطاهر ليلاً كما يشاء بكل حريته . فكان ينهض من النوم عادة قبل الساعة الثالثة بعد نصف الليل ويفتح ابواب الكنيسة ويبدأ بصلواته استعداداً للقداس الالهي الذي كان يقوم به غالباً قبل صلاة الفرض مع بعض الرهبان اصحاب الاشغال او الذين تقتضي اشغالهم ان ينصرفوا اليها باكراً . فكان يقدس معهم او يخدم لهم قداسهم وفيما



الى اليسار الاب بشارة مقابله برفقة الرئيس العام وبينهما الزوار الرسوليون (صفحة ١٣٥)

بعد يقدس مع جمهور الرهبان على المذبح الكبير بعد اتمام الصلوات الفرضية . الا انه لسبب ضعف بصره وثقل سمعه وضعف ذاكرته امتنع عن القداس من اول سنة ١٩٢٩ اذلم يعد يستطيع ان يتلو غيباً بالتمام والتدقيق كما ينبغي كل الصلوات المختصة بالقداس . ومن ثم كان يكتفي بمناولة القربان الطاهر كل يوم وحضور او سماع قداسين او ثلاثة على قدر ما يتفق له . وغالباً كان يخدم القداس بصوته الهادي بدون ترتيل في القداسات السرية غير الاحتفالية .

وفي اول الامر كان يذهب بالطاعة الى دير الراهبات لسماع اعترافهن . وكذلك كان يذهب الى دير السيدة لسماع اعتراف المبتدئين فيه تارة يكون راكباً على دابة وفي بعض الاحيان كان يذهب ويعود ماشياً على قدميه . الا ان الاب العام منعه عن ذلك بعد قليل عندما عرف ان نور الشمس يؤذي عينيه في ذهابه وايابه . ثم اوعز الى احد اطباء العيون ان يختار له عوينات ذات زجاج ملون تقي عينيه من اذى نور الشمس اذا اراد ان يمشي قليلاً بعد الغداء امام باب غرفته او امام باب الكنيسة لاجل التدفئة بنور الشمس في ايام الشتاء .

وقد اوجب عليه الطبيب ان يمشي ولو قليلاً بعد الاكل في الهواء الطلق لمساعدة معدته بالحركة على اتمام هضم الاكل . اذ كان قد استولى عليه امساك شديد كاد يكون مستمراً لفتور

معدته ولامتناعه عن استعمال الرياضات الجسدية .

وقد كانت غرفته السابق ذكرها في دار الرئاسة مجاورة لغرفة الرئيس العام وامامها سطح واسع فسيح يكشف بمنظره غرباً وشمالاً وجنوباً على بعض القرى المجاورة وعلى كثير من الجبال والوهاد الى البحر حيث يقضي الرهبان كل يوم نصف ساعة للنزهة وللتدفية بعد الغداء في ايام الشتاء بنور الشمس الساطع وفي ايام الصيف يقضون سهرتهم بعد العشاء بنور القمر والنجوم في الهواء الطلق . اما الاب بشارة فلم يكن يحفل كثيراً ولا قليلاً بهذا المنظر الجميل ولم يكن يبالي بشدة حاجته الى مثل هذه النزهة هناك ولا الى شيء من الراحة مع اخوته الرهبان الذين كانوا يحبونه ويجلون قدره كثيراً كما انه كان هو يحبهم حباً متبادلاً وفيهم شيوخ قد عاشوا معه عدة سنين في دير الابتداء وفي المدرسة ودير القمر وغيرها . فكان يؤثر الاختلاء مع الله بالصلاة والعبادة فكان بعد الاكل وزيارة القربان مع جمهور الرهبان يمشي امام باب الكنيسة شتاء وفي القاعة المجاورة صيفاً قدر عشر دقائق ملازماً صلواته الخاصة ثم يدخل الكنيسة لزيارة القربان والصلاة ولا يخرج منها الا اذا دعته الطاعة لامر او اذا اقتضى ذلك نظام الدير العام . ومن ثم كان يقضي كل اوقاته في عبادة الله لا يشغله عن ذلك امر سوى امر الطاعة لاجل الله او خدمة القريب الروحية في سبيل الله .

واذ كان الرئيس العام شديد الاهتمام به وكثير الملاحظة له شفق عليه من ملازمته الكنيسة وادمانه على الصلاة فيها بلا فترة حتى في اشد ايام الشتاء برداً وفي اشد ايام الصيف حراً وقال له ذات يوم لماذا لا تستريح مع الرهبان قبل صلاة النوم وتتنزه معهم على السطح في ليالي الحر. فسكت الاب بشارة واعتبر هذا الكلام منه امراً محضاً ومن ثم اخذ يجالس الرهبان على السطح في الوقت المذكور. لكن اذ كانت نفسه تنزع به الى زيارة القربان ومداومة الصلاة في الكنيسة ذهب بعد مدة الى الاب العام وسأله: يا ابانا العام قلتم لي من مدة لأتنزه على السطح مع الرهبان. فاذا لم يكن لي رغبة بذلك وفضلت الذهاب الى الكنيسة فهل هذا خطيئة علي. فضحك له الاب العام واجابه. بل كن حيث تريد وتحب. ومن ذلك الحين لم يعد يسهر معنا على السطح.

وفي ١٩ ايار سنة ١٩٢٩ اتى وفد كبير من النادي الكاثوليكي في دمشق لزيارة دير المخلص. وبينما كان جميع الرهبان مع سيادة الاب العام والمدبرين يرحبون بهم ويؤانسونهم في سهرة جميلة على السطح السابق ذكره في ضوء القمر كان الاب بشارة منعكفاً على صلاته كعادته في الكنيسة ولم يرد ان يخرج منها كأن ليس في الدير احد يحفل به افضل من يسوع المسيح في القربان الاقدس حتى طلب بعض اصحابه ومعارفه من

الكهنة الافاضل ان يشاهدوه بين جمهور من الشبان الكاثوليك الاتقياء ليسلموا عليه ويقبلوا يديه وينالوا بركته. فحضر اليهم اجابة لطلبهم لكنه لم يلبث معهم اكثر من عشر دقائق وعاد الى الكنيسة لصلاته كشأنه.

وفي كل مدة اقامته الاخيرة في دير المخلص لم يكن يهتم بشيء من امور العالم واهله الا ان تكون زيارة الزوار تقوية دينية بالتقدم الى سر الاعتراف ومناولة القربان الاقدس وحضور القداس الالهي كما ينبغي. ولم يكن يغفل عن ان ينبه خاطر الاب وكيل الضيوف الى هذا الامر لكي يبذل جهده بالنصح لهم لاتمام هذا الواجب المقدس الخلاصي. وحقيقة الواقع ان الزوار الكاثوليك الذين لم يكونوا يعرفونه من قبل الا بالاسم لم يكونوا يتخلفون عن التقدم الى الاعتراف اليه بعد ان تم لهم ان يشاهدوه في الكنيسة بالخشوع التام غارقاً في صلواته لا يشغله عنها شيء. وقد سطع على وجهه من نفسه الطاهرة نور القداسة وجلال كمال الرهبان الاولين مكللاً بشيبة كاملة ناصعة البياض زادته مع حسن سمته وبسطة وجهه جمالاً وجلالاً في نفس كل من كان يشاهده بهذا الوقار. وكذلك كان الزوار اصحابه ومعارفه فلم يكونوا يؤثرون عليه احداً باعترافهم الا ما ندر. واذا دعاه احد منهم للسلام عليه او لمشاهدته او لطلب صلاته وبركته بواسطة الاب وكيل الضيوف كان يتأفف اليه من ذلك

لاضطراره ان يترك صلاته وكان يقول له ماذا يريدون مني (شو بدهم مني) بخلاف ما اذا كان يدعى الى ذلك من قبل الاب العام . وفي كل حال متى قابلهم قابلهم كلهم على السواء بوجه باش بكل امارات المحبة . الا انه كان قليل الكلام مع الجميع . وبعد السلام الموجز لم يكن يتكلم مع احد الا اذا دعاه الى ذلك مقتضى الحال . بل يبقى صامتاً الى ان تحين له فرصة مناسبة للانصراف فينسل راجعاً الى الكنيسة للصلاة .

﴿ الفصل التاسع والعشرون ﴾

عودة المرض اليه

لا بد ان قد تحسنت صحته بعض الشيء في دير المخلص لطيب الهواء واعتداله فيه مهما كان يبذل له اصحاب الشأن في سبيل ذلك من العناية والاهتمام ولا سيما في ايام الربيع والصيف من سنة ١٩٢٨ . لكن هيهات ان تعود اليه صحته تماماً الى ما كانت عليه سابقاً . وهل يعود الشباب بعد تمام الشيب وبعد انقضاء سبعين عاماً وا كثر من العمر بالعمل والتعب الشاق بدون راحة ولا فترة بعيشة خشنة قشفة بطواعية تامة بل برغبة شديدة صادقة لا فتور فيها بحال الصحة وبحال المرض على السواء .

ولعناية الاب العام الخاصة به اوجب عليه اكل الزفر

والامتناع عن اكل الزيت منعاً تاماً حتى في ايام الصيام والقطاعة المفروضة بوصية الكنيسة المقدسة على جميع المسيحيين . والزمه ايضاً بتناول الحليب كل يوم صباحاً مرتين لاجل لين معدته اذ كان قد استولى عليهِ كما قلنا سابقاً امساك شديد يكاد يكون مستمراً . ولذلك كان يضطر بعض الاحيان ان يتخذ علاجاً لهذا الامساك حبوب الحياة المعروفة . ومراراً كان يوصيه الاب العام ان يطلب من الاب الكلارجي او وكيل المطبخ ما يجب من الطعام ليعده له بوجه خاص . الا انه لم يكن يطلب شيئاً اصلاً . بل كان يكتفي غالباً بصحن الشوربا قد لا يكون فيه شيء من اللحم ويضع عليه ماء بارداً ليزيل بذلك طيب طعمه وكل لذة كعادته التي الفها من اول عهده بالرهبانية . واذا سئل عن سبب ذلك كان يقول انه يفعل ذلك تبريداً للطعام اذا كان سخناً او تخفيفاً لدسمه اذا كان زفراً لاجل معدته الضعيفة .

ولما اشتد برد الشتاء باواخر سنة ١٩٢٧ واوائل سنة ١٩٢٨ انزعج من ذلك كثيراً وان لم يظهر شيئاً من الشكوى لاحد مطلقاً صابراً على ذلك كعادته في كل امر . وكانت غرفته السابق ذكرها معرضة للهواء الغربي الرطب البارد وهي فوق بئر قديم لحفظ المياه ولم يكن يلبس في ايام الشتاء للتدفئة سوى صاكو من الصوف التيبت الخفيف مع العباءة الرهبانية السوداء . ولم يكن له سوى صاية واحدة من الصوف المذكور

كان يلبسها صيفاً وشتاء . ولسبب اشتداد البرد الذي كان والحالة هذه معرضاً لاذاه هناك عاد اليه مرضه السابق . واضطر ان يلزم فراشه . فاحضر له الطبيب ليعتني بامر علاجه فاوجب عليه الراحة التامة في فراشه . وبناء على هذا منعه الاب العام من الذهاب الى الكنيسة بتاتاً . ولئلا يكدره ويزعجه بهذا المنع افهمه برفق ولطف ان هذا المنع موقت لاجل راحته وصحته . وانه متى تحسنت صحته ولو قليلاً يسمح له بالعودة الى عباداته بكل حريته كشأنه السابق . ومن ثم امتنع مدة عن القداس وحضوره وحضور كل الصلوات الفرضية والاجتماعات الرهبانية بصبر جميل . وما طال الامر حتى تحسنت صحته قليلاً فخاطب الاب العام واستأذنه بالذهاب الى الكنيسة وحضور الصلوات الفرضية والقداس فسمح له بذلك . وما لبث طويلاً حتى صار يقدس مع جمهور الرهبان . وفي اثناء ذلك نقل من غرفته السابق ذكرها الى غرفة في الممشى الشرقي في قاب الدير بدروة من الهواء الشرقي وغيره وفيها قضى اجله كما سيأتي بيانه ولذلك صارت تعرف من ذلك اليوم الى الآن بغرفة الاب بشارة . وهي لم تزل مقفلة على ما كانت عليه يوم توفاه الله تعالى الى رحمته وفيها مخلفاته او الاشياء التي كان يستعملها في حياته من ثياب وكتب صلوات وكتب روحية وغيرها

ولا يخفى انه مع الايام صار بصره يزداد ضعفاً مع ضعف

جسمه وضعف ذاكرته . وكان هذا الامر يزعجه ويمضه طبعاً الا انه كان يظهر التجلد والصبر كعادته . لانه منعه عن القداس وتلاوة صلوات كثيرة كان قد الف تلاوتها من زمان طويل وحرمه لذة مطالعات كثيرة في الكتب الروحية التي كان قد اتخذها سميراً له وقائداً اميناً لسيرته الروحية قد اضطر ان يتركها كرهاً ويكتفي بالقليل منها . وما هذا الحرمان بالامر اليسير الهين عليه لولا تمسكه بالصبر الجميل التام على ما يكره وعما يحب بالسواء . وهذا لا محالة دليل واضح كل الوضوح على شدة تمكنه بالعبادة الحقيقية بالرضوخ التام لارادته تعالى في كل الاحوال . وهذا الرضوخ كما لا يخفى هو روح العبادة الصادقة وجوهرها وهو مبدأها وغايتها .

ولرغبة الاب العام ان يعزيه في محنته هذه رام ان يرسله الى بيروت مع احد الاباء ليشاهده احد اطباء العيون فيها ويعمل له عملية جراحية يرتد بها اليه بصره ولو قليلاً ليستطيع ان يعود الى تلاوة صلواته وقداسه نظير السابق مما يخفف عنه شدة هذه المحنة ويعزيه تعزية روحية عظيمة كما لا يخفى فقال له ذات يوم : استعد يا ابانا بشارة لتذهب الى بيروت صحبة الاب فلان ايرى عيونك احد اطباء العيون فيها ويعمل لك عملية جراحية فيعود اليك بصرك وتعود الى تلاوة صلواتك وقداسك كالسابق . فسكت قليلاً ثم قال له « امرك . لكن ما عادت تحرز » فاجاب

كيف لا تحرز وانت بركة لنا . فسكت الاب بشارة . وبعد قليل عاد الى الاب العام وقال له يا ابانا العام اتريدون ان اقول لكم الحقيقة . انا طلبت من يسوع ان يعمي عيني لاميت نظري . فقال له الاب العام : كيف تطلب هذا ولماذا . فاجابه : الخطايا . الخطايا . خطايا النظر . فتأثر الاب العام من هذا الكلام وقال له : انت ابن ثمانين سنة وتخاف من خطايا النظر وقد مات جسمك . فاجابه « الشيطان لا يموت » فقال له الاب العام هل نظرك لك وكيف هذا . فاجابه قائلاً فاذاً انا اخطئت بهذا الطلب . فاجابه الاب العام . « لا اعرف » ثم قال له الاب بشارة « وكيف استجاب المخلص طلبي » اجابه الاب العام انه جاراك على عقلك . فساله الاب بشارة فاذاً انا اخطئت . اجابه الاب العام وقد رأى انه ازعجه واقلق ضميره فاراد ان يريحه : لا . لان غايتك صالحة . وانا الان اترك لك الحرية التامة باجراء العملية وعدمها . فاجابه الاب بشارة يا ابانا العام : « ما عادت تحرز وانا صرت لا انفع شيئاً وليس عندي نظر ولا سمع ولا عقل . » ومراده بالعقل الذاكرة . وانتهى الامر معه بهذا الشان كما اراد الله صابراً على محنته هذه الى المنتهى .

ولا غرابة بهذا الطلب منه وكم من مرة سمعناه وسمعه كثيرون نظيرنا يقول الموت ولا الخطيئة . ولا غرابة كذلك باستجابة الله له طلبته في هذه الايام التي كثر فيها الفساد بين

الناس عن طريق النظر . وقل فيها امثال ايوب البار القائل « عاهدت عيني الا انظر الى امرأة . » (ايوب ٣١ : ١)

الفصل الثلاثون

مرضه الاخير وموته

في اواخر سنة ١٩٢٩ لسبب اشتداد البرد في ابان الشتاء ولسبب الضعف الذي كان قد تغلّب على جسمه سابقاً كما تقدم اخذت تعاوده نوبات قلبية بقوة اكثر من السابق كانت تضطره طبعاً الى لزوم فراشه بضعة ايام وتمنعه عن الذهاب الى الكنيسة وعن الاشتراك بالصلوات الفرضية فيها مع جمهور الرهبان . لكن ما كانت تعود اليه صحته ولو قليلاً حتى يعود إلى الكنيسة كشأنه السابق كأن لم يكن به مرض ولا علة .

ولكثرة معاودة هذه النوبات عليه بشدة أخذ القلق يستولي على قلوب كل اخوانه الرهبان وكلهم محبون له وصاروا يخافون عليه من نوبة شديدة اذا طالت يقضي بها اجله . ولذلك اخذوا يهتمون بأمره ويسهرون على خدمته بعناية اكثر من ذي قبل ولم يكونوا يدعونه يعمل شيئاً من الامور التي يحتاج اليها مهما كان خفيفاً الا ان يسترق ذلك بدون علم منهم .

وكانت قد استولت علي في تلك الايام نوب شديدة من

جرآء مرض في الكلى اشتد عليَّ . فكان الاب بشارة يزورني كثيراً في غرفتي ويعرض نفسه لخدمتي بما احتاج اليه ويحثني على الصبر واحتمال مرضي مطابقة لارادة الله طاعة له في كل حال واشتراكاً بالام المسيح مخلصنا بكلام تقوي رقيق ووجه باش كعادته في زيارة المرضى مما تطيب به النفس ولو كان الانسان في اشد ما يكون من البحران في مرضه .

وبعد ان تعافيت قليلاً اردت السفر الى مصر لاقضي المدة الباقية من فصل الشتاء ولقضاء بعض الاعمال لي هناك . وبعد ان سمح لي الرؤساء بالسفر واعددت الامر لذلك ذهبت لوداعه في غرفته فوجدته على بابها . واخبرته بعزمي وقبلت يده وطلبت بركته وصلاته لتوفيق في سفري . وقد شعرت حينئذ باطناً في نفسي اني اودعه الوداع الاخير . ولذلك تفرست بوجهه محدقاً اليه ملياً باحترام ولهفة مع كآبة ما كنت اشعر بها سابقاً في وداعي له في اسفاري الماضية . ومن ثم ثارت في عيوني دمعة سخية من الم هذا الفراق . وبان لي انه شعر بذلك نظيري ولهذا السبب اعطاني يده لاقبلها بدون ممانعة على غير عادته معي ومع سائر الكهنة . وكانه شعر بدنو اجله وانه لا يعود يراني ولا اراه في هذه الدنيا . ومن ثم استودعني الله بقوله لي الله يكون معك .

واذ اشتد عليه مرضه في ٣ شباط . واخذت تنتابه نوبات شديدة بتواتر قلق عليه كل اخوانه الرهبان واخذوا يلازمون

غرفته فكان حينئذ على سريره مثالاً كاملاً للصبر الجميل ومشهداً لتقوى القديسين . وصارت غرفته اشبه بكنيسة تقام فيها الصلوات الفرضية كاملة في اوقاتها يشترك فيها معه كثيرون منهم ولم يكونوا يفارقون غرفته نهاراً ولا ليلاً لخدمته والسهر عليه والصلاة معه بالصلوات الفرضية وغير فرضية لانهم كانوا اذا انتهوا من الصلوات الفرضية يصلون له قوانين كتاب السواعي المعروفة وسبع مزمورات التوبة والمسبحة . بل كانوا يكررون هذه مراراً مع كثير من الصلوات السهمية التي كانوا يسمعونها منه . وكان قد اعتادها من قبل . بل كان يكررها باشد حرارة واكثر عبادة اذا اشتد عليه مرضه واخص منها بالذكر قوله اشرك آلامي مع آلامك يا يسوع . يا يسوع مخلصي خلصني . لتكن ارادتك يا رب . يا عذراء اعينيني . يا يسوع في يديك استودع روحي . هذا قليل على خطيئتي . اقبله يا رب وفاء عن خطاياي الكثيرة .

ولمعرفتهم بشغفه بالصلاة وشدة رغبته بممارستها كانوا وفقاً لذلك يتسابقون الى الاشتراك معه بهذه الصلوات ولا سيما عند ما يرونه تنتعش روحه ويستريح من اوجاعه وقت الصلاة كأن ليس به مرض ولا وجع مع ملاحظتهم انهم اذا توقفوا قليلاً للراحة او لغرض اخر كانت تعود اليه اوجاعه حتى لم يكن يستطيع ان يخفيها عنهم لشدتها . ويظهر من هذا ان نفسه كانت تطيب حقيقة

بالصلاة ومناجاة الله · وكان على تمام الانتباه فيها حتى كانت تستغرق نفسه وكل قواها وجسده وكل جوارحه ويساو اوجاعه · ولعله كان يسر حينئذ بدنو اجله للقاء ربه كقول المرتل فرحت بالقائلين لي هلم نذهب الى بيت الرب ·

ومن اول ما شعر بشدة وطأة مرضه الاخير طلب ان يعترف وان تعطى له الحلة الاخيرة مع الغفران الكامل الخاص بالمدنفين في ساعة الموت كما انه طلب سر المسحة الاخيرة · ولما كان الكهنة يصلون له على زيت المسحة كان يصغي الى ذلك بتمام الانتباه والخشوع بل بانبساط وسرور بدون شيء من القلق او الانزعاج · ولما اتموا ذلك قال لهم اعملوا كل ما يلزم للمنازعين ولا تنسوا شيئاً وكان يكرر لهم كثيراً قوله : اتعبتكم كثيراً · الله يؤاجركم · الله يرد عنكم · الله يكافيكم ·

واذ بلغه من احدهم انهم استدعوا له من صيدا الدكتور حنا نعمان الحداد قال لهم لا لزوم له لان ما عادت تحرز · وما عدت انفع · ولما حضر الدكتور المذكور نصف الليل وشاهده قال له اتعبوكم في هذا الليل يا حضرة الدكتور · الله يسامحهم ويؤاجركم ويرد عنكم · ثم قال لهم خذوه وعشوه وخلوه ينام مسكين تعبان · واعطاه الدكتور حينئذ دواء وحقناً تحت الجلد لانعاش القلب فنجح وزالت هذه الشدة عن المريض وابتعد عنه خطر الموت القريب واطمئن بال الجميع عليه بعض الاطمئنان ودام على

هذه الحال بشيء من الراحة نحو اربعة ايام لكن بقي موضوع عناية واهتمام الجميع كالسابق .

وفي ٧ شباط عاودته النوبات القلبية بشدة اكثر من ذي قبل . وبالتالي عاد فاشتد القلق عليه اكثر فاكثر . وصارت الصلوات الفرضية وغير الفرضية لا تنقطع من غرفته كما انه كان يجد بها راحة لنفسه وجسمه معاً . ومهما كان عليه من قوة النفس والتجلد والصبر على الم مرضه اضطر ان يقول مرة للاب انطون كيورك وكان وحده معه في غرفته « أشعر بان قلبي كلهيب نار » فقال له الاب المذكور « هذا من اضطرام قلبك بمحبة الله » . فادار الاب بشارة وجهه عنه حالاً وتغيرت سحنته . ولعله ندم على ما قال . وكان يكرر لمادحيه حينئذ اكثر من ذي قبل : اين نحن من اعمال وفضائل القديسين العظام مثل باسيليوس وانطونيوس وباخوميوس .

وكان يقول للاباء المدبرين : اذا مت اياكم ان تخبروا احداً بموتي لئلا يظن الناس اني شيء مهم معتبر وانا اكبر الخطأة . ويقول الكتاب الويل لكم اذا قال الناس عنكم قولا حسناً وانتم لستم كذلك . لكن كان يتمنى عليهم ان يكون حاضراً في الدير الاب العام لينال بركته قبل موته لان الاب العام كان حينئذ في بيروت . ولما بلغه ذلك عاد الى الدير واخذ يلازم غرفة المريض ويهتم بامره

وكذلك حضر الى الدير من صيدا المطران اثناسيوس لزيارته عندما بلغه اشتداد مرضه واخذ يلازم غرفته . وارسل تلغرافاً الى رومية باسم نيافة الكردينال رئيس مجمع الكنائس الشرقية يلتمس بواسطته من الحبر الاعظم البابا بيوس الحادي عشر البركة البابوية للمريض مع الغفران الكامل الخاص بالمدنفين في ساعة الموت فورد له الجواب بالايجاب وهذا نصه .

Citta vaticano 22/2 Radio

Monsignore Khoriaty vescovo Saïda Libano ,

Santo Padre invia infermo padre Bichara Abu Mourade implorata Benedizione apostolica .

Cardinale Pacelli

(تعريبها)

حاضرة الڤاتيكان ٢٢ شباط سنة ١٩٣٠

السيد خرياطي مطران صيدا (لبنان)

الاب الاقدس يمنح المريض الاب بشارة ابو مراد البركة الرسولية المطلوبة .

الكردينال
پاتشلي

ومن العادة المقررة ان هذه البركة التي يمنحها الحبر الاعظم لبعض المرضى عن طلب ذويهم يمنح لهم معها الغفران الكامل بشرط ان يكونوا قد اعترفوا بخطاياهم وندموا عليها .

وما زالت تشتد عليه وطأة المرض حتى لم يعد يستطيع ان يتناول شيئاً من الطعام حتى الحليب . بل قضى الخمسة الايام الاخيرة من حياته لم يكن يستطيع فيها ان يبلع الماء مهما كان قدره . ولذلك كانوا يبلون له اسفنجة بماء يضعونها على طرف لسانه لترطبه . ومع هذا كان كل يوم يتناول القربانة المقدسة بسهولة . وكذلك كان يتناول بسهولة الماء الذي يُغسل به حق القربان مرة ومرتين . واراد احد الكهنة ذات مرة ان يناوله جزءاً صغيراً جداً من القربان المقدس لظنه انه لا يستطيع ان ياكله ولا يبلعه اذا كان كبيراً كالعادة . فطلب اليه ان يناوله مرة ثانية جزءاً اكبر .

وفي ليل ٢١ شباط كان ساهراً عليه الخوري غريغوريوس ابو سمراء في دوره بعد نصف الليل . وقد ذهب الرهبان الذين كانوا يسهرون عنده ليناموا وبقي وحده . وهو من الذين دخلوا الرهبانية وأتوا الى دير المخلص بارشاد الاب بشارة وبايعازه . وبينما كان يصلي له المسبحة سأله الاب بشارة كم الساعة الآن . فاجابه الساعة واحدة ونصف . فتململ قليلاً وتقلب على فراشه ثم رفع عينيه الى السماء متهللاً مسروراً ثم رفع كلتا يديه كانه يهم برفع جسمه كله . ثم انزلهما وعاد يشارك الاب المذكور بصلاة المسبحة . وبعد نصف ساعة سأله السؤال نفسه فأجابه الاب غريغوريوس الساعة الثانية واعاد الاب بشارة الحركات السابقة تماماً . وبعد مدة اعاد عليه السؤال نفسه ثالث مرة واعاد الحركات

السابق وصفها . وبعد قليل قال له كلف خاطرك اذهب قدّس وأحضر لي القربان المقدس لاتناول . فخرج الاب غريغوريوس واستدعى الاب بولس غطاس ليسهر عليه مكانه . ثم ذهب يقدس مع بعض الآباء الذين كانوا سهرانين ولم يستطيعوا النوم لشدة قلقهم عليه .

وبينما كان الاب بولس غطاس يصلي له قانون المطالبسي استعداداً للمناولة قال له الاب بشارة اريد ان اغسل وجهي . ولظنه انه لا يستطيع ذلك بذاته بلل منشفة بالماء والصابون وهم ان يغسل له بها وجهه . فأبى ذلك الاب بشارة وقال له اعطني الابريق وانا اغسل . ففعل . فجلس الاب بشارة قاعداً في سريره وتناول ابريق الماء وغسل فمه ثلاث مرات ثم تناول المنشفة المبللة وغسل بها وجهه ثم نشَّفه ونشَّف لحيته وسرّح شعره واهتم بهندام ثيابه . فسر الاب بولس من هذا النشاط الذي يدل على انتعاش الحياة فيه . ثم عاد الى الصلاة .

وبعد قليل حضر الدكتور حنا الحداد من صيدا وأخذ يراقب المريض بانتباه ولم يحب ان يقطع عليه صلاته بالسؤال عن صحته . وكان كذلك الاب بولس يلاحظه بنظره وهو يتلو له الصلاة في كتاب السواعي اذ كان يردد نظره بين الكتاب والمريض معاً .

وبعد قليل رأى الاثنان ان المريض نزع عن رأسه عرقيته

ثم ضم يديه الى صدره واخذ يبدي امارات العبادة والخشوع باهتمام زائد . وبينما كان الاثنان يتبادلان النظر ببهتة وتعجب اقبل احد الرهبان وبيده شمعة امام القربان المقدس الذي كان يحمله الاب موسى الكايد وهو يقول بصوت خافت قدوس الله الخ . فأدركا حينئذ سبب اهتمام المريض كل هذا الاهتمام انما هو استعداده لاقتباله المسيح آتياً اليه بالقربان المقدس . وقد شعر بخروج الكاهن من باب الكنيسة دونهما مع ضعف سمعه والمسافة بين باب الكنيسة وسريره في غرفته قدر خمسين متراً ولا سبيل للمريض ان يشعر بوطأة اقدام الكاهن ولا بصوته الخافت دون ان يسمع احدهما ذلك الا اذا كان قد عرف ذلك باطناً بوجدانه الخفي اللطيف .

ثم تناول المريض القربان المقدس كعادته بكل خشوع وعبادة واخذ الاب بولس يتلو له صلاة الشكر بكتاب السواعي . وبعد ذلك عاد اليه الاب غريغوريوس ابو سمراً. واخذ يتلو معه المسبحة ثم صلاة الفرض ليوم السبت . ولما بلغ بالصلاة الى التبريكات المختصة بسبت الاموات التي اولها مصاف القديسين ... التفت نحو الاب بشارة وقال له اليوم سبت الاموات . فتبسم الاب بشارة وهز رأسه مظهراً سروره بذلك وكانه يقول له كن براحة انا لا اخاف من ذكر الموت . ثم اخذ يكرر له السؤال كم الساعة ثم يتململ ويرفع نظره ويديه كمن يهم ان يرفع جسده كالسابق



الاب بشارة في حال نزاعه (صفحة ١٥٣)

الى ان قرع جرس الكنيسة الكبير الساعة الرابعة والنصف بعد نصف الليل ونهض جمهور الرهبان من النوم لصلاة الفرض في الكنيسة وذهب الاب غريغوريوس ليستريح او ينام واتى مكانه عدة كهنة الى ان حان وقت القداس فذهبوا الى الكنيسة ليقدسوا وبقي واحد منهم فقط وهو الاب مخائيل مقدسي

فاخذ هذا يصلي له ابيات مديح العذراء واقبل حينئذ عليه المطران اثناسيوس بعد ان اتم قداسه وساله عن صحته فلم يستطع المريض ان يجيبه بكلمة . وانما أومى اليه برسم اشارة الصليب على صدره ليصلي عليه وكانه يقول له باركني او اعطني الحلة الاخيرة . وكان الوقت حينئذ الساعة السادسة وثلاثون دقيقة وادرك المطران مراده فاخذ يصلي له بيوت المديح . واذ ابصره بشدة على اخر رمق قال له اني اعطيك الآن الغفران الكامل فأشار اليه المريض بالايجاب والقبول . وكان قد ذهب الاب مخائيل الى الكنيسة يستدعي الاب العام بسرعة فاتى اليه حالاً . وبعد دقيقتين او اكثر تنفس المريض الصعداء طويلاً تنفس النزاع فقال الاب العام لسيادته خلص وانتهى الامر . فاجابه المطران اسرع واعطه الحلة الاخيرة . ولم يكد الاب العام يختم صلاة الحلة حتى شخص المريض ببصره الى فوق وجمد وشهق شهقة ثم ثانية واسلم روحه الزكية بيد خالقها بهدو وسلام الساعة السادسة والنصف بعد نصف الليـل قبل القداس ببضع دقائق . فرش

سيادة المطران غرفته بالماء المبارك واطبق له عينيه ثم البسه الرهبان ثيابه الرهبانية واخذ المصور رسمه بالتصوير الشمسي وهو على سريره وقرع جرس الكنيسة بدقة الحزن تنذر بوفاته . ثم اقبل الرهبان من الكنيسة الى غرفته يقبلون يديه ويودعونه الوداع الاخير . و كذلك اتى رئيس المدرسة ومعلموها وتلاميذها ونقلوا جثته بزياح حافل الى الكنيسة . وتقدم حينئذ القداس منهم جميعاً لراحة نفسه . وبعد القداس تليت عليه صلاة النياحة .

وبعد الظهر اجتمع كل الرهبان من دير المخلص والاديرة المجاورة له وجهور من الشعب من القرى المجاورة وصلوا على جثمانه صلاة جناز الرهبان . وبقي مصموداً في الكنيسة وحواليه الشموع ليتبرك به المؤمنون بقبلة يديه والصلاة لاجل راحة نفسه وهم على يقين تام بانه عاش عيشة صالحة مقدسة ومات ميتة صالحة مقدسة يتمناها لنفسه كل انسان مسيحي وبالتالي كان الحزن العام عليه ممزوجاً بالعزاء التام برجاء ان الميت البار قد نال من ربه المكافأة العادلة .

واما غرفته التي قضى فيها اجله فانها قُفلت واستلم مفتاحها الاب العام وبقيت على حالها السابق كيوم وفاته وفيها ثيابه وكلما كان يستعمله من الثياب والحوايج في حياته الا ماتوزع منها بركة على الطالبين باذن الاب العام وبإرره وصارت غرفته مشهداً لكل زائريها وشاهداً صادقاً على زهده التام بكل خيرات



الاب بشارة ميت على سريره في غرفته (صفحة ١٥٤)

هذا العالم لاجل الله واقتداء بفقر المخلص له المجد .

﴿ الفصل الحادي والاربعون ﴾

في مأتمه والاحتفال بجنازه

بعد موته طير الاب العام منعاه الى السادة المطارنة المخلصيين والمجاورين والى بعض اصحاب المراكز المهمة يدعوهم الى دير المخلص للاحتفال بصلاة الجناز على نفس الراقد البار وعين وقت الجناز يوم الاحد الساعة الثانية بعد الظهر . وكذلك نعاه ايضاً الى غبطة البطريرك كيرلس المنبغب اذ كان يومئذ في مصر القاهرة . واوعز الى الدكتور حنا الحداد بتجويف الميت وتحنيطه ليصبر على البقاء في الكنيسة الى يوم الجناز . وبعد الكشف عليه قرر الدكتور ان لا حاجة الى تجويفه ولا تحنيطه اذ وجده طاوي الحشا تماماً اذ لم يتناول طعاماً منذ خمسة ايام قبل موته .

ثم اوعز الاب العام بخرق حائط الكنيسة الجنوبي الى الغرفة التي بجانبها وجعل له تحت هذه الغرفة قبراً خاصاً يكون مدخله من الكنيسة ليوضع على هذا المدخل بعد الدفن بلاطة من رخام يحفر عليها اسم الراقد وتاريخ ميلاده وتاريخ وفاته . وكان كذلك .

ثم اوعز بعمل تابوت متقن الصناعة ليوضع فيه الراقد بثوبه

الرهباني وان يكون غطاه النصف الاعلى من زجاج ليسهل على الناس مشاهدته والتبرك بقبلة يديه . فعُمل التابوت وفقاً لذلك . وجُعل فيه الراقد على منصة عالية من الكنيسة كان عرضة لانظار الناس فيها يوم السبت والاحد .

ويوم السبت مساء اقبل الى دير المخلص الحبر الجليل كيريوس اكلنضوس معلوف مطران بانياس اكبر المطارنة المخلصين سناً ورسامة اجابة لطلب الاب العام مع الاب اثناسيوس قسيس ب م واخبر انه رأى في الحلم انه في كنيسة عظيمة مع اربعة من المطارنة بأثوابهم الحبرية وحواليهم عدد جزيل من الكهنة رافعين ايديهم جميعاً بالصلاة الى السماء . وقد ترك هذا المنام في نفسه اثراً بهيجاً جداً . ولما بلغته برقية الاب العام يوم السبت بعد الظهر ادرك تفسيره وتحقيقه بجناز الاب بشارة الاحتفالي .

ويوم الاحد منذ الصباح اخذت جماهير المؤمنين تقبل الى دير المخلص من القرى المجاورة ومن صيدا وبيروت ودير القمر ليودعوا الوداع الاخير الاب بشارة مرشدهم والمحسن اليهم وحضر ايضاً الحبر الجليل افتيميوس يواكيم مطران زحلة مع وفد من اعيان اهلها واخيه الاب فيلبوس يواكيم . ثم السيد مكسيموس صائغ مطران صور صحبة الاب يوسف زهار مع الاستاذ جورج يعقوب نائب الجنوب في مجلس النواب

وبعد الظهر حضر من صيدا وفد من الرهبان الاخوة



الاب بشارة على نعشه في الكنيسة يودعه الرئيس العام مع المدبرين ورهط الرهبان الوداع الاخير (صفحة ١٥٧)

المريميين واعضاء اخوية الميتة الصالحة وسواهم ومعهم عدة اكاليل حتى كانت الكنيسة تزدحم بالناس وهم بكل وقار امام جثمان الفقيد وكل نواظرهم متجهة اليه على منصة عالية يرون وجهه من خلال زجاج التابوت الذي جعل خصيصاً لذلك.

وقبل المباشرة بصلاة الجناز حضر ايضاً من صيدا الحبر الجليل المطران بولس عقل النائب البطريركي الماروني العام وكان في صيدا بمهمة خاصة من قبل غبطة البطريرك الياس الحويك واذ سمع الناس على اختلاف طوائفهم وطبقاتهم يتحدثون بفضائل الاب بشارة الفائقة احب ان يشترك بالصلاة عليه واتى بصحبته اثنان من الكهنة الموارنة

وعند الساعة الثالثة بعد الظهر بدأ الطيب الذكر مطران صيدا بصلاة الجناز الاحتفالية مع السادة المطارنة الذين تقدم ذكرهم ومعهم نحو مئتين من الكهنة والرهبان والراهبات وجمع غفير من المؤمنين حتى كانت الكنيسة تزدحم اي ازدحام مع سعتها وهي من اكبر الكنائس الشرقية سعة

وكان يقوم بترتيل صلوات الجناز في الخورص تلاميذ المدرسة الرهبانية بادارة رئيسهم الخوري افثيميوس سابا واستاذهم البارع الاب كيرلس حداد . ثم اعطي الانجيل المقدس الى المطران بولس عقل فتلاه في وقته من الجناز وبعده قرئت البرقية من رومية التي يمنح بها الحبر الاعظم للراقد البركة البابوية مع الغفران الكامل

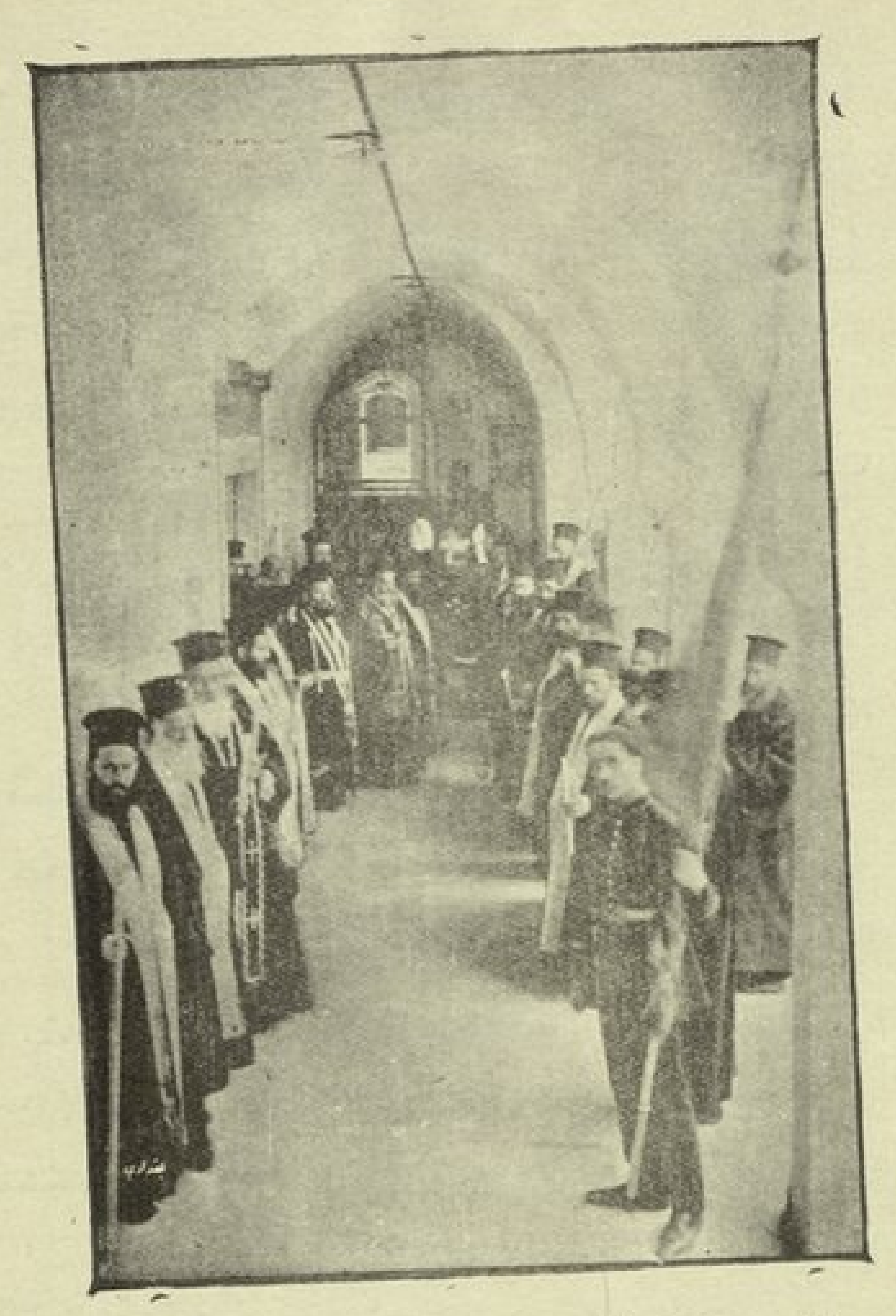
ثم ارتجل المطران بولس عقل خطاباً جميلاً تناول موضوعه مما عرفه وشاهده في ذلك اليـوم عن الراقد القديس في جوهر القداسة في كنيسة الله المقدسة بوجه عام ثم قداسة الفقيد البار وعما سمعه عنه من هذا القبيل بوجه خاص . فكان لكلامه اثر جميل في النفوس لانطباقه تماماً على مقتضى الحال البارزة بحياة وموت الراقد البار

ثم عقبه الحبر العلامة المطران اثناسيوس خرياطي مطران الابرشية بخطاب نفيس اتى به على موجز سيرة الفقيد منذ نشأته الى اخر ساعة من حياته .

ثم وليه السيد افثيميوس بواكيم مطران زحلة بكلمة وداع جميلة بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن اهل زحلة مسقط رأس الفقيد .

ثم علا منبر الكنيسة حضرة الاب الفاضل الخوري نقولا ابي هنا الخطيب المفوه بايعاز الاب العام والقى تابيناً جميلاً اجاد فيه تمام الاجادة . وقد طبعه ووزعه على اصحابه وسنذكر منه شيئاً في اخر كتابنا او في محله المناسب له .

وبعد تقبيل الانجيل ويد الراقد بالرب اثناء ترانيم الوداع الاخيرة من الجناز وضع السادة المطارنة في التابوت زجاجة بيضاء مختومة بشمع احمر عليها ختم الرئاسة العامة وفي داخلها ملف ورق كتب عليه موجز حياة الراقد البار موقعاً بامضاء



الاب بشارة محمول من غرفته الى الكنيسة (صفحة ١٥٩)

السادة المطارنة والرئيس العام والزائر البابوي وسمروا التابوت بايديهم وحمله الكهنة على اكتافهم وطافوا به في الكنيسة بالترتيل والبخور الى ان بلغوا الضريح المعد له كما نوهنا عنه تحت ايقونة المخلص الكبيرة فواروه فيه . وقد حفر على بلاطة من الرخام وضعت على مدخل قبره هذا التاريخ :

« هنا يستريح على رجاء القيامة الاخيرة المثلث الرحمات الاب بشارة ابو مراد الراهب المخلصي . مثال الحياة الرهبانية العالية ، والكمال الكهنوتي السامي . سنة ١٨٤٨ — ١٩٣٠ [١] »

وقصارى الكلام ان يومي السبت والاحد كان الحزن العام ممزوجاً بالعزاء الجميل على رجاء الحياة الابدية السعيدة التي انتقل اليها الراقد البار لان موته كان بنظر الجميع بدء حياة سعيدة ويوم فوز وانتصار له على اعداء خلاصه او يوم اكاليله في السماء وقد ناله من عدل الله بثباته في الصلاح الى النفس الاخير من حياته على الارض وفقاً لقول المخلص من يصبر الى المنتهى يخلص .

---

(١) تقدم الكلام في الفصل الثاني ان الاب بشارة ولد سنة ١٨٥٣ ولا عبرة بالتاريخ المحفور على قبره بانه ولد سنة ١٨٤٨ فانه غلط اذ قد اعتمد فيه على افتراض غير صحيح



الفصل الثاني والاربعون

في فضائله السامية

الفضائل جمع فضيلة وهي صفة ثابتة في نفس صاحبها تصدر عنها منه افعال صالحة تظهر فضله . واسمها مشتق من الفضل بمعنى الزيادة والاحسان . وفي اليونانية ἀρετή واللاتينية virtus من القوة لانها تصدر عن قوى الانسان العاقل بجزمه وعزمه اي بعقله وارادته . وهي بالحقيقة تدل بذات طبعها ان صاحبها ذو نفس كبيرة قوية يتغلب بها على كل صعوبة لبلوغ مقاصده التي يرى فيها كمال سعادته .

وقد تكون الفضائل نفسية محضاً كالفهم والذكاء وليس عليها كلامنا هنا . بل مدار كلامنا على الفضائل الادبية التي تقتضيها طبيعة المجتمع الانساني وتوجبها الشرائع العادلة على كل انسان لخيره ولخير الناس عامة في هذه الدنيا والاخيرة

وقد تكون مكتسبة بتكرار الافعال الخاصة بها والاعتياد على ممارستها . وقد تكون غريزية في خلق صاحبها فتزداد بممارسة افعالها قوة وسهولة وثباتاً .

وقد تكون مفاضة في نفسه بفضل من الله او بنعمة منه يختص الله بها من يشاء من خلقه بقدر ما يشاء والله جواد كريم .

فتكون بهذا الاعتبار مواهب خاصة وزيادة فضل منه تعالى فوق طبع الانسان .

واما الفضائل المسيحية منها فهي الفضائل التي علّمها السيد المسيح لتلاميذه واتباعه باقواله واعماله وهم يمارسونها لوجه الله وطاعة له واقتداءً به . وبهذا الاعتبار تكون سامية فائقة

وينبغي ان نعلم بان ممارسة هذه الفضائل لا تكون ذات قيمة فائقة عند الله او ذات استحقاق في الاخرة الا اذا كان صاحبها يقصد بها وجه الله ورضاه او طاعته . والا فلا تخرج عن كونها انسانية محضة لا شأن لها والحالة هذه بالاخرة . وبالتالي لا تستحق المكافأة الفائقة من الله بالسعادة الابدية التي هي فوق طبع الانسان وفوق استحقاقه باعماله الانسانية اذا كانت بدون قصد رضا الله .

وهي بالحقيقة والفعل لاتكون منفردة في انسان . بل لابد ان تكون مجتمعة مع سواها من الفضائل سواء كانت غريزية او مكتسبة او مفاضة . فانها تلازم بعضها ويتولد بعضها من بعض فتتعزز كل واحدة منها بصاحبتها او بصواحبها لما بينها من شدة الارتباط والاتحاد في مصدرها ومبداها الذي هو الله والانسان وفي غايتها التي يتوخاها الانسان عادة ويقصدها باعماله .

ثم يجب ان نميز هنا بين هذه الفضائل والافعال الصالحة . فان الفضائل ملكات راسخة في النفس تصدر عنها هذه

الافعال بسهولة على وجه ثابت . والاعمال الصالحة لا تستحق اسم الفضيلة الا اذا كانت تصدر عن ملكة راسخة في نفس صاحبها لا لسبب طارئ قد يعود عنها صاحبها الى ما يخالفها او يضادها وينقضها كما يشاء او كما يدعوه الهوى .

ومرادنا بفضائل الاب بشارة في هذا الفصل فضائله المسيحية السامية خاصة البارزة باعماله الصالحة بثبات عجيب من اول حياته المسيحية او الرهبانية الى النفس الاخير مما لا ريب بانها صادرة عن نفس بارة كريمة عند الله معززة بنعمة منه فائقة بايمان حي ورجاء عظيم ومحبة فائقة كل محبة لا يشوبها شائبة زغل اوغرض بشري .

ولا نحاول ان نعدد هنا هذه الفضائل واحدة واحدة ولا ان نأتي على وصفها بالتمام كما ينبغي اذ لا يسعنا ذلك في هذ االفصل . وانما نخص بالذكر منها امهاتها او السامية منها الدالة على غزارة نعمة الله في هذه النفس الكريمة . وقد قال فيه بهذا الصدد احد رفاقه في حياته الرهبانية شاباً وشيخاً حضرة الاب الجليل الارشمندريت بطرس الخرياطي ب م كلمة مرجزة ما اصدقها وما احلاها في موضعها هنا . وهذه هي : اية فضيلة مارسها القديسون ولم يمارسها الاب بشارة ؟

واول هذه الفضائل فضيلة الايمان التي هي الركن الاول والاساس لكل فضيلة وقد افاضها الله في نفسه منذ صغره بسر

العماد المقدس الذي ناله بكفالة والديه . ثم نمت هذه الفضيلة وتعززت فيه مع الايام بفضل عنايتهما به وتربيتهما له تربية مسيحية كما ينبغي على ممارسة اسرار الكنيسة واعمال التقوى التي تزكي النعمة وتقويها حتى شب وثبت عليها الى ان شاخ ومات وانتقل الى الحياة الابدية الفضلى .

على ان الايمان الصحيح الصادق لا يكون الا مع الرجاء برحمته تعالى والاتكال عليه وعلى صدق وعده بالخيرات الابدية . وكذلك لا يكون هذا الايمان صحيحاً او حياً بدون اعمال التقوى ومحبة الله ومحبة القريب لاجل الله . لان الايمان مهما كان قوياً ومعززاً بالرجاء فلا فائدة فيه لصاحبه بدون اعمال التقوى اذ يكون حينئذ هذا الايمان في نفسه كالميت لايتحرك لعمل مفيد يدل علي حياة صاحبه حياة ايمان ودين . بل لا يدل الا على فساده .

نعم ان نعمة الايمان افاضها الله على جميع المسيحيين بالسواء في سر العماد الذي فيه اعادة ولادتنا الدينية بالمسيح والايمان به . الا ان استخفاف كثيرين بهذه النعمة واهمالهم ممارسة الاعمال الصالحة التي يوجبها هذا الايمان جعل ايمانهم كالميت لا يزكو ولا ينمو ولا يتحرك صاحبه بعمل صالح او بفضيلة حميدة تدل على وجود هذا الايمان في نفسه

واما الاب بشارة فكان الايمــان يستغرق كل اعمــاله

ويستوعبها كلها وكأنه ما كان يحيي الا بالايمان او كأنّ الايمان المسيحي مبدأ ومصدر لكل اعماله وفضائله . واي دليل اظهر واوضح على ايمانه الحي من دوام مثابرته على عبادة الله باعمال التقوى ومحبة الله فوق كل شيء وعلى محبة القريب لاجل الله كل مدة حياته بدون ملل ولا ضجر ولا فتور؟

لا ريب بان الملل والضجر والفتور الذي يستولي علينا عادة في كثير من اعمالنا المختلفة ولا سيما اذا طال امدها انما هو من لوازم ضعف عقيدتنا بصحة مبدانا في هذه الاعمال وضعف املنا بنجاحنا فيها لبلوغ غايتنا التي نتوخاها منها . فان ثباتنا فيها هو الدليل الصادق على ذلك ومقدار ثباتنا فيها هو القياس الصحيح على ما في نفسنا من ذلك . وبناء على هذا الاعتبار الصادق الذي لا شك فيه نستدل من هذا الثبات العجيب الذي ظهر لنا من الاب بشارة ومثابرته على الاعمال الصالحة كل حياته بلا ملل ولا ضجر ولا فتور على انها صادرة عن ايمان حي مقرون برجاء وطيد في الله وبمواعيده وانها نتيجة قوة الله الفائقة التي اختصها الله به نعمة منه وتفضلاً عليه .

وبالتالي يصح بل يحق لنا ان نقول عنه بكل حق وصدق بدون مبالغة انه قضى حياته بعبادة الله بالروح والحق كما ينبغي بصلواته المتواصلة التي هي جوهر العبادة الحقيقية وفي الاعمال الصالحة لخير القريب الذي هو صورة الله وعمل يديه كما يعلم حقيقة

ذلك كل الذين كان لهم معرفة به ولا سيما الذين عرفوه شاباً وشيخاً.

وكانت محبته للقريب تظهر مجسمة باعماله وانعطافه القلبي بنوع واضح على وجهه الباش مع الجميع حتى كان يخيل الى كثيرين من اصحابه انه كان يحبهم محبة خصوصية ممتازة افضل واكثر من سواهم بحب منزه عن كل غرض ونفع ذاتي .

وحقيقة الواقع انه كان يحب الجميع على السواء بانعطاف واخلاص لاجل الله الذي يستحق ان يحب في خلقه ولا سيما الانسان الذي خلقه على صورته ومثاله وافتداه بدمه الكريم . ومن ثم كانت محبة القريب من فيض وفضل محبة الله عنده وهي بالحقيقة الدليل الصادق عليها في اعماله مع الناس ولا سيما الفقراء والمرضى والخطأة المحتاجين الى مساعدته بغيرة خالصة لوجه الله . فوق محبته لنفسه وهي اعظم انواع المحبة

وهذه الفضائل الثلاث يقال لها الهية لان الله مصدرها ومبدأها لانها نعمة منه تعالى وهو غايتها وموضوعها الخاص ومنها تتولد فضيلة التقوى او خوف الله والتواضع وسائر الفضائل الدينية . واذ يطول بنا كثيراً نفس الكلام عن فضائله اذا حاولنا ان نشبع الكلام عنها كلها كما ينبغي نقتصر على ذكر فضائله الرهبانية التي لها علاقة بحفظ نذوره الرهبانية اي الطاعة والعفة والفقر الاختياري

﴿ الفصل الثالث والاربعون ﴾

في

المراد الكلام على فضائله السامية

الطاعة فضيلة ادبية اجتماعية لا بد منها لقيام وحفظ كيان كل جمعية مؤلفة من افراد احرار مختلفين بعقولهم ومقاصدهم. وهي عند المسيحيين ولا سيما الرهبان منهم فضيلة دينية توجب على الراهب ان يخضع باعماله لامر رؤسائه وارادتهم لاجل الله وكرامة له. وكمالها ان يتجرد بقصده ونيته من كل اعتبار بشري ليكون عمله متجهاً بتمامه الى الله مبدأ كل سلطة. ولا ريب ان الاب بشارة قد بلغ بممارسة هذه الفضيلة كمالها الى اقصى ما بلغ فيها ابناء الطاعة القديسون وانه ما خالفها في شيء كل حياته التي قضاها كلها مرؤوساً لا رئيساً. ولم نجد احداً من رؤسائه يلومه على مخالفة او تقصير اذ كان خاضعاً دائماً لهم باطناً بعقله وارادته بقدر ما كان خاضعاً لهم بالعمل والخارج. ولم يسمعه احد يشكو من رئيس على ظلامة او جهالة او سوء ادارة وقد كان اكثرهم اصغر سناً منه. ويحسن بنا ان نذكر هنا ما كتبه عنه احد رؤسائه الاب ملاتيوس خوري بهذا الصدد عن خبرة تامة به بعد اربع وعشرين سنة معه قال:

منذ اتيت الى دير القمر كاهناً وتعينت رئيساً على الرهبان

لم يخالف لي امراً ولم يقل لي ولا عني كلمة سوء او تحقير او تصغير ولوكانت بحقٍّ مثلاً هذا شاب او هذا اصغر مني كما كان الواقع . بل كنت بعض الاوقات اجربه وامتحن طاعته مثلاً عند ما كان يعود من الوادي الظهر او الهاجرة في ابان الصيف اقول له قبل ان يجلس على المائدة للغداء . يوجد في كفرقطرة مريض فيتناول حالاً رغيفين في يده ويضعهما في محرمته ويسير . فاقول له حينئذ ارجع تناول غداك ولا تذهب فاني امزح معك للتسلية بعد الاكل . واذا قلت له قدّس قدّس . واذا قلت له اذهب الى المحل الفلاني يذهب حالاً . واذ قلت له لا تخرج اليوم من الانطوش لم يخرج منه ولو دقيقة . الا انه ما كان يطيع لي ولا لغيري امراً ما يخالف وصية الكنيسة بتناولة الطعام الزفر يومي الاربعا والجمعة وباقي الاصوام والقطاعات ولو كان مريضاً مرضاً ثقيلاً . واتفق مرة ان مرض مرضاً ثقيلاً في قطاعة السيدة فامرته بشدة ان يأكل زفراً فلم يفعل . فبلغت ذلك الى الطيب الذكر المطران باسيليوس حجار فذهب لزيارته معي وقال له كل حليباً وانا احلك من قانون القطاعة . فاجاب طيب سآكل . فقلت حينئذ لقواص المطران يوسف واكيم الذى هو اليوم كاهن مية ومية اذهب احضر له الحليب ليشرب قدام المطران ففعل . واذ حضر الحليب قال له المطران : هذا الحليب قم اشرب . فاجابه : ساشرب بعداً . فكرر له المطران القول ذاته مراراً وانا كذلك لكن بدون جدوى وهو يقول : بعداً بعداً .

واخيراً زعل المطران وخرج وهو يقول عمرك لا تشرب . قليل الادراك لا يسمع من حبر الكنيسة

الفقر الاختياري فضيلة مسيحية علمها السيد المسيح لتلاميذه بمثله في حياته باختياره مذود البهائم الحقير بيتاً له بميلاده فيه ، وقضى حياته كلها كما قال الانجيل عنه ليس له مكان يسند اليه رأسه حتى مات اخيراً على صليب عارياً. والرهبان اوجبوا على نفوسهم ممارسة هذه الفضيلة بنذر جعلوه سنَّة على نفوسهم . وقد بالغ الاب بشارة بممارسة هذه الفضيلة حتى بلغ فيها الغاية والكمال منها على ما يعرف ويشهد بذلك كل معارفه واصحابه . ويحسن ان ننقل هنا ما كتبه عنه بهذا الشأن رفيقه الاب ملاتيوس خوري قال :

لم اسمعه مرة قط ذكر المال او طالب احداً بحق مالي او تذمر من احد لسبب مالي او لحقٍ له عنده لم يدفعه . او قال فلان اعطاني كثيراً او قليلاً او قال فلان غنيٌ . واذا كان مصروفنا الشهري زاد على المرتب لنا معاشاً شهرياً من وكلاء الوقف كان يدفعه بدون اعتراض ولا مماطلة ولا شكوى لا بوجهنا ولا بغيابنا مع انه كان يأكل قدر نصف ما يأكل الواحد منا . وكنت الومه مراراً لاعطائه مبلغاً من المال قرضة لاناس فقراء لم يرجعوه له الى اليوم فلم يشكُ منهم ولا تذمر عليهم من سلوكهم امامي ولا امام احد . بل كان يقول كعادته : هؤلاء فقراء

مساكين الله يساعدهم . ودفع مرة امامي لشخص عشرين ذهباً عثمانياً نفقة سفره الى اميركا فسافر والى اليوم لم يدفع له بارة . واذ كنت اذكره به بعض الاوقات فكان يجيب بانه مسكين الله يسامحه . لو كان معه لكان ارسله وزيادة ولكن يظهر انه غير موفق . وقد سفَّر غير واحد على نفقته ولم يكن يشكو من احد منهم امام احد . الا انه يظهر ان ضميره كان يبكته على استعماله هذا المبلغ الكبير الذي يعد بمقتضى نذر الفقر انه من مال الرهبانية . ولكبر قدره لا يمكن ان يحسب حسنة ومن ثم كتب رسالة الى الاب العام يعترف له بذنبه هذا ويلتمس السماح منه على ذلك وتعهد بان لا يعود الى مثله .

وكان كل مرة يعطي مبلغاً لاحد يقول لي اعطيت لفلان قدر كذا . فكنت اقول له : من اين له ان يرده لك . فيقول لي مسكين فقير . ان رجعه او لم يرجعه لمجد الله

وقد اتفق ان نسي مرة باب غرفته مفتوحاً فسرق له احدهم منها مبلغاً من المال فاتى الي واخبرني بذلك . فذهبت الى غرفته فوجدت الفرشة والطراحة والحصيرة مقلوبة راساً على عقب ويظهر ان السارق كان يعرف بوجود المبلغ او بشيء منه فقلب الفراش والطراحة والحصيرة حتى وجد الدراهم تحت الحصيرة فاخذها مسرعاً تاركاً كل شيء على حاله . فلمته على وضع الدراهم في محلها هذا وعلى عدم وضعها في صندوق مقفل وزعلت

لذلك كثيراً فقال لي : لا بأس ولا ترعل . انا لست الان محتاجاً نظيره والله يرزقنا غيرها . ويظهر ان السارق مسكين وفقير ومحتاج الى ذلك . ولولا حاجته ما كان سرق . الله يسامحه . والغاية لم يزعل ولم ينزعج لذلك بل ذهب الى الكنيسة يصلي لاجل السارق ليغفر الله له خطيئته . . وهذا اوضح دليل على زهده بالمال وعلى محبته للقريب فوق المال وفوق محبته لنفسه ولو كان شريراً ولصاً سارقاً

العفة فضيلة ملايكية اكثر منها ادبية يوجبها الراهب على نفسه بنذر وعهد لله على ان يمتنع عن كل محرم وحلال من شهوات الجسد ليكون لله بجملته طاهراً نقياً بجسمه ونفسه وعقله وكل رغباته وليكون متجهاً تماماً نحو الله بكل عواطف نفسه بلا مانع من قبل هذا الجسد المركب من لحم ودم . ولا يخفى ان الانسان لا يقدر ان يكون عفيفاً حقيقة بالتمام بدون عون الله تعالى له مع اعمال الشدة في عزمه على اماتة اهواء واميال هذا الجسد والنفس الامارة بالسوء او اهواء الانسان الجسداني

واذ كانت العفة من خواص النفوس المجردة عن الجسد وتخالف امياله كان احرازها صعباً بل متعذراً على الانسان المتلبس بهذا الجسد المتحد به طبعاً الا اذا قهر امياله الجسدية بقوة عزمة مع مساعدة نعمة الله له . ولشدة هذه الملابسة بين النفس

والجسد يقال لهذه الاميـال على سبيل التسامح اهواء النفس والنفس والذات ايضاً. فقهر الذات اذاً اول شرط للعفة لا بد منه وهو الدليل الصادق عليها وكان يدعوه الاب بشارة كسر الارادة ويدعوه بولس الرسول اماتة وهي صنفان باطنة تقوم بقهر اميال النفس الباطنة الخفية في الانسان وخارجة تقوم بامساك النفس ومنعها عن التمتع بطيبات الدنيا مما هو خارج عن النفس. وكلاهما لا بد منه للعفة لان القبيح الذي لا يجوز عمله بالخارج لا يجوز ذكره ولا التفكر به باطناً . بل يجب مجانبته والابتعاد عنـه وعن الاسباب التي تدعو اليه .

وقد بلغ الاب بشارة بعفته حد الكمال وهو بعنفوان شبابه فـلم يكن يعف فقط عن ارتكاب الاعمال القبيحة والشهوات المحرمة بل كان يمسك نفسه ويمنعها عن كل لذة حسية ولو كانت مباحة صيانة لعفة نفسه . وبلغ بها الى ان قهر نفسه واماتها في كل اميالها . فلم يكن يكتفي بممارسة الاصوام المفروضة من الكنيسة فرضاً على بنيها . بل زاد عليها بانه كان يمنع نفسه دائماً عن الاكل صباحاً ويكتفي بايام الصيام بوقعة واحدة ويختار الفتات من الخبز لقوته . وكان يضع على الطبيخ الدسم الماء حتى يزول طعمه وكل لذة فيه . وكان يمنع نفسه عن أكل شيء في غير وقت الاكل المعين حتى لم يكن يشرب الماء في احر ايام الصيف في البرية الى اخر ايام شيخوخته . بل كان يحمل في يده حجراً ثقيلاً كان يخفيه

عن نظر الناس تحت العباءة الثقيلة التي كان يلبسها في الصيف ايام كان راعياً للرهبان . ولم يكن ينظر محدقاً بوجه امرأة او رجل ولا بشيء من جمالات الطبيعة ومحاسنها في الارض ولا السماء مع انه كان جميلاً والجميل يحب الجمال . بل كان دائماً منخفض النظر اينما كان . ولا اذكر اني شاهدته ولا غيري شاهده مرة يقرأ في جريدة او مجلة ولو كانت ادبية ودينية وقد امتنع عن كل فضول لمعرفة الاخبار وحوادث هذه الحياة .

وقد قهر نفسه واماتها حتى ازال منها قوة الغضب مع انه كان عصبي المزاج . ولم يكن احد يشاهده غاضباً ابداً كما انه لم يشاهده احد قط ضاحكاً ضحكاً بقهقهة وان كان السرور غالباً عليه مع بشاشة وجه الا وقت الصلاة والاجتماعات . ومع هذا لم يكن يمزح بكلامه مع احد مطلقاً وان كان يسر بالنكتة اذا سمعها ان كانت لطيفة مهذبة . والا سد اذانه باصبعه حالاً نفوراً من سماعها الى اخرها . وتمام القول بهذا المعنى انه قهر نفسه بكل اهوائها واماتها تماماً حتى صارت منزهة عن كل عيب بنعمة الله .

ولا نستطيع ان نختم هذا الفصل دون ان نقول كلمة عن تواضعه الذي هو اجل فضائله عند الله والناس واكثرها رسوخاً في نفسه . وهو الحفرة التي وضع فيها اساس فضائله كلها

وحقيقة التواضع ان يضع الانسان نفسه في موضعها الحقيقي الذي شاء الخلاق الحكيم ان يضعها فيه بان يعتبر عن يقين تام ان

كلما له وما هو عليه هو من جوده وفضله تعالى وليس له ان ينسب شيئاً من هذا النفسه لا بقول ولا عمل ولا فكر .

والتواضع في الانسان من صحة اعتقاده انه مخلوق من الله وعبد له وان اول واجب عليه ان يعبده تعالى بالروح والحق كما ينبغي او ان يتقيه تعالى كما يجب وان لا غنى له عن عنايته وفضله . ومن مقتضى ذلك ان يتذلل في نفسه امام الله والناس وان ليس له مزية او فضل على احد من الناس لولا فضل الله عليه .

كثيرون يصلون ويتواضعون ويعملون الخير ليذكرهم الناس بالخير الذي يفعلونه . واما الاب بشارة فانه كان يفعل كل هذا لاجل الله ولعرفانه قدر نفسه بانه تراب ورماد . ولذلك كان يختار ان يجلس دائماً في اخر مكان في كل مجلس الا ان يقال له اجلس هنا . وكان يسبق الجميع بالسلام . الا انه لم يكن يبدا بحديث مع احد . وجوابه كان بايجاز بقدر السؤال كالفتوى . الا اذا اراد ان يظهر اهتمامه بخدمة للمخاطب . ولذلك لم يكن يجادل في شيء ولا يلح في طلب حاجة مهما كانت . ولا يذكر شيئاً من ماضيه او عملاً من اعماله امام انسان . ولا يعد احداً بشيء من ذات نفسه . ولا يذكر احداً بعيب اصلاً ولو على سبيل المزاح ولم يكن يستعمل المزاح مع احد اصلاً . لكنه يذكر الجميل عند الاقتضاء ويشكر صاحبه عليه سواء كان عمله له او لاخرين. ولم يكن يبالغ بالمديح كثيراً ولم يكن يمدح او يشكر انساناً الا تابع ذلك بالدعاء

له والصلاة لاجله . واذا مدحه انسان تغيرت وتبدلت سحنته حالاً حياء وخجلاً وسكت ليقطع على المتكلم حديثه بهذا الشأن بدون اخذ ورد او سد اذانه باصابعه وغطى وجهه بكفيه . او قال انا خاطي . وخطيئتي عظيمة .

ولبليغ تواضعه في نفسه لم يكن يظهر عليه شيء من التكلف او التصنع الكاذب في كلامه السابق ذكره او ماشا كله لان امارات التواضع الحقيقي كانت ظاهرة عليه بكليته نفساً وجسماً في رأسه المنخفض ونظره وكلامه ان مشى او جلس او صلى او سلم او تكلم او سكت او مرض او تعافى او تألم .

ولئلا يطول بنا الكلام كثيراً بهذا الفصل ويمل القارىء العزيز من اطالته نختمه بما ذكره حضرة الاب ملاتيوس خوري عنه بهذا الصدد قال :

قلت مرة للمرحوم المطران باسيليوس حجار ان يرسم الاب بشارة ارشمندريتاً مكافأة له على تعبه واعماله في خدمة النفوس في ابرشيته . فقال لي هذا واجب لكن المذكور لا يقبل . فقلت للمطران انا اقنعه بقبول ذلك . ثم ذهبت قابلت الاب بشارة وقلت له سيدنا يريد ان يرسمك ارشمندريتاً فقال لي في اي وقت . قلت له غداً صباحاً قبل سفره الى صيدا . قال لي انا ممنون . وتبسم . فقلت له اياك ان تمانع . فقال لي : اصير اذاً البس الصليب والخاتم واللاطية ؟ قلت نعم . قال من اين اجيب كل هذا؟ قلت له انا اقدم

لك الصليب والمطران يقدم لك الخاتم . قال مليح اصير اذاً البس رسمياً في الوادي ؟ اجبت نعم ولا بأس اذا لم تلبس لكن يكون لك لقب ارشمندريت للشرف . قال طيب ...

وفي اليوم التالي اذ قام المطران ليقدس طلبه فلم نجده لانه ذهب باكراً الى الوادي . فقال لي المطران اما قلت لك انه لا يقبل .

وعند المساء عاد الاب بشارة من الوادي . فقلت له لماذا فعلت بنا هكذا والمسألة مع المطران ؟ فقال لي لماذا لقب ارشمندريت ولبس لاطية وغيرها ؟ ولماذا كل تعب القلب ؟ وهل انا اعرف البسها ؟ انا ممنون كثر الله خيرك وخير سيدنا المطران

﴿ الفصل الرابع والاربعون ﴾

في حوادث واخبار شتى عنه .

جرى مرة الحديث امامه عن حوادث سنة ١٨٦٠ واخذ البعض يدعون على الدروز . فنهاهم عن ذلك وقال لهم حرام . فقال له غير واحد منهم كيف هذا حرام ؟ بل حلال جزاء ما فعلت ايديهم بالنصارى وفيك وباهلك وباهل زحلة . فتبسم وقال لهم : هذا بسماح الله كان . والا لما صار شيء من هذا . والغاية انه كان لا يحقد على احد ولا يذكر احداً بشرٍ .

وفي اول سني ايام خدمته في الوادي اتفق ان ذهب الى هناك

يوم احد لاتمام خدمته فيها . وكان شتاء والمطر يهطل عليه بغزارة طول الطريق وهو لا يبالي . ولما بلغ مسيل الماء الجاري في ذلك الوادي ورام ان يعبر الى الجهة الثانية على القنطرة التي هناك وجد المياه تجري فوقها بغزارة وقوة . لكنه ما بالى بذلك بل سار عليها متكلاً على الله بعد ان رسم ذاته باشارة الصليب كعادته . واذ كانت مياه الامطار والسواقي المنصبة على الوادي تجرف الى مجراه كلما تجد امامها من تراب وخشب قذفه هذا السيل مسافة ولا نعلم كيف نجا واتم طريقه الى القرية حتى قدس فيها وكانت المياه تسيل من ثيابه كلها وقت القداس ولم يذكر لاحد شيئاً مما اصابه في طريقه . ولم يقترب من النار لينشّف ثيابه الا بعد القداس وبعد ان شددوا الطلب اليه كثيراً . وهذا كان شأنه دائماً صابراً على كلما يصيبه اعتقاداً منه انه كان بسماح الله وارادته .

روى لي ولغيري سليم ابو رجيلي انه كان يرافق الاب بشارة مراراً ليخدم له القداس في بعض القرى وكان له عادة ان يقضي الطريق بالصلاة معه فكان يقول الاب بشارة القسم الاول من الصلاة الربية والسلام ثم يكمل القسم الاخير منها رفيقه . فاتفق ذات مرة ان ضجر سليم المذكور او تعب في الطريق وكف عن الجواب . فالتفت اليه الاب بشارة وابصره انه حردان فقال له لماذا لا تجاوب ؟ او لا تحب الصلاة يا ابني؟ فاجابه سليم بلى ولكن اصلي بقلبي . فقال له ماذا تصلي . فاجابه واراد ان يداعبه اطلب

من الله ان يقطع لسانك حتى تستريح وتريحني من الصلاة . فقد زحت الله وزحتني بكثرة الصلاة . فضحك له وقال له كعادته الله يساعدك . هل في الصلاة تعب . بل الصلاة خير وزيادة الخير خير . ثم استأنف صلاته وحده دون ان يزعج رفيقه وكان سليم حينئذ فتى صغيراً . وبعد قليل استرضاه واخذ يصلي معه .

ذكر هذا الخبر الخوري نقولا ابو هنا عن لسان المطران مكسيموس الصائغ الذي سمعه من سليم المذكور في دير المخلص يوم جناز الاب بشارة

وذكر الاب ملاتيوس خوري فيما ذكر عنه الخبر التالي قال : ذهبت في ايام الحرب الى بكشتين للسلام على سعيد بك البستاني وتهنئته برجوعه من المنفى برفقة الخواجا سليم نجوم وسليم البستاني فقلت للاب بشارة هل تريد الذهاب معنا . فقال لي امرك وسار معنا . وبعد زيارتنا لسعيد بك ذهبنا الى الدبية . واذ علم بحضورنا الى هناك الوجيه الكريم الخواجا ألبر حبيب دوماني وكان مقيماً حينئذ في ضيعة له هناك اسمها بقعون دعانا الى تناول الغداء عنده . فذهبنا كلنا وكنا قد خرجنا من دير القمر صباحاً بدون اكل . وقد اعد لنا غداء فاخراً بل نادراً في تلك الايام واكلنا ملياً . لكن الاب بشارة ابى ان يا كل شيئاً معنا لان الاكل كان زفرياً واليوم يوم جمعة . ولم نستطع كلنا ان نحوله عن عزمه ليأكل معنا ولو اكلاً صيامياً من حواضر البيت وهو يقول لا اقدر

لست جوعان . ولما عزمنا على مبارحة دار آل دوماني والعودة للدير قلت للخادم ان يعطيه زوادة صيامية للطريق خوفاً من ان لا يقدر ان يسير معنا الطريق كله مسافة ثلاثة ساعات نزولاً وصعوداً . ففعل الخادم . ولما بلغنا بطريقنا صعداً الى كفرحيم نظرت اليه حاملاً زوادته ورجليه ترجف من الضعف والجوع فقلت له اجلس كل زوادتك . فلم يفعل . ثم واصلنا طريقنا الى دير القمر فالتقى بنا هناك ولد فقير فغافلني واعطاه الزوادة . ولما عرفت أنبته على ذلك وقلت له انك بالحقيقة تريد عمداً ان تموّت نفسك . فسكت وبقي صائماً الى وقت العشاء فتعشى في الدير كالعادة

ومما يدل على شجاعتهِ الادبية فيما لله ما ياتي في هذا الخبر وهو انه تقدمت مرة ابنة صبية لتناول القربان المقدس من يده بعد القداس في دير القمر وقد جرّدت زنودها وقسماً من صدرها كشكل بعض الغاويات المتفرنجات من نساء هذا العصر . فقال لها اذهبي يا ابنتي بدّلي ثيابك واستري جسمك بحشمة وهلمي تناولي . فذهبت الصبية طائعة وفعلت كما قال لها وعادت الى الكنيسة حالاً لتتناول فناولها هو ذاته ومدح تقواها اذ صارت مثالاً صالحاً بتقواها وحشمتها وطاعتها واصلحت بذلك ما بدا منها سابقاً عن خفة بدون قصد للشر .

ومن هذا ايضاً انه ابصر ذات يوم في كنيسة صيدا بطريقه الى كرسي الاعتراف امرأة جرّدت هكذا زنودها من ملابسها

تقليداً لنساء العصر الغاويات من الافرنج — ولا احب ان اذكرها باسمها حفظاً لكرامتها وانا اعرفها عن يقين ذات سمعة حسنة بادابها وطيب سريرتها واعرف كذلك زوجها من افاضل واتقياء اعيان صيدا — فوقف قليلاً بقربها وخفض نظره واطرقه في الارض ومد يده مشيراً الى عري زندها ثم همس باذنها بصوته المنخفض وقال لها ما هذا في الكنيسة ... بيت الله ؟ في الكنيسة يجب ان تكون النساء بحشمة في بيت الله للصلاة لان قلة الحشمة تجلب علينا غضب الله عوض الرحمة ... فسكتت المراة ولم تستطع ان تقول له كلمة جواباً ولا اعتذاراً . بل عادت الى بيتها ولم تعد الى الكنيسة بهذا الشكل من العري وزاد احترامها واحترام زوجها للاب بشارة وللكنيسة بعد هذا الحادث الذي كان له اثر جميل في نفوس اهل صيدا ولا سيما النساء حتى لم تكن الواحدة منهن تجسر ان تظهر امامه بهذا العري ولو في بيتها خشية ان يقول لها كلمة توبيخ على ذلك في محلها

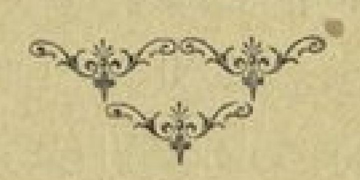
ونختم هذا الفصل بالخبر التالي عنه بلسان رفيقه ورئيسه الاب ملاتيوس خوري قال :

كنا ذات ليلة من ليالي الصيف نسهر حوالي المرحوم المطران باسيليوس حجار في ايوان دار الانطوش في دير القمر بقرب باب كنيسة مار الياس وكان الاب بشارة يصلي حينئذ كعادته في الكنيسة امام القربان المقدس مع من كان يلتف اليه من النساء

والرجال وافضى بنا الحديث حينئذٍ الى ذكر اعمال الاب بشارة ومثابرته على اعماله التقوية . فكان المطران يسمع كل ذلك ويهز راسه بانبساط وسرور كعادته الى ان قال اخيراً : اذا ثبت هذا الكاهن على هذه الاعمال وفاز على الشيطان بهذا السلاح سلاح الصليب والصلاة فلا بد ان يطوَّب قديساً . واذا لا سمح الله فشل وغلبه الشيطان يكون سقوطه هائلاً .

وهوذا والحمد لله قد انتهت حياته بالثبات على البر والاعمال الصالحة التي اعتادها منذ صغره وقد فاز فوزاً كاملاً على الشيطان وعلى جسده وعلى كل اعداء خلاصه بفضل نعمة الله

نسأل الله تعالى باستحقاقات مخلصنا يسوع المسيح وبكرامة خادمه الصادق ووليه البار ان يحقق هذه النبوَّة التي هي جل اماني تلاميذه واماني كل رهبان دير المخلص ونرجو من كل قراء كتابنا هذا ان يلتمسوا من جوده تعالى بصلاة خاشعة ان يحقق ذلك وان يلهم الرؤساء ليسعوا السعي اللازم لهذا الامر باعداد كلما يلزم بالطرق القانونية التي تفرضها كنيسة الله المقدسة للفحص وتحقيق قداسة اولادها الصالحين



﴿ الفصل الخامس والاربعون ﴾

في كرامته وعلو قدره عند الناس

لايخفى ان الفضيلة تجعل صاحبها محترماً ومكرماً من جميع معارفه مهما كانت ادابهم واخلاقهم ومهما كانت منزلته الاجتماعية فيما بينهم لان فضيلته تجعله في منزلة ممتازة يفوق بها عليهم حتى يضطرهم وجدانهم ان يحترموه لاجلها . واذا كان له في المجتمع الانساني رتبة عالية توجب الاحترام فان فضيلته الشخصية تزيده قدراً واحتراماً اذ يتضح للجميع انه حاز رتبته هذه عن اهلية واستحقاق ذاتي لا عفواً ولا اتفاقاً ولا كرامة لاحد من ذويه واصحابه .

ونحن نعلم العلم اليقين مع كثيرين من القراء ان الاب بشارة كان في حيـاته ذا قدر عظيم و كرامة فائقة لدى كل الذين اتصلوا به لاجل مجرد فضائله الذاتية التي كان مزداناً بها . لا لمجرد ثوبه الرهباني او الكهنوتي او مراعاة للحقوق الانسانية والاداب الاجتماعية العامة . وكان بظاهره مسكيناً بنظر الجميع .

فقد تقدم الكلام بانه كان منذ صغره وفي عنفوان شبابه محترماً من اهله ورفاقه لاجل تقواه وعقله ورصانته وحشمته فيما بينهم . واذ شبّ على التقوى والفضيلة الراهنة منزهاً عن زهو

الشباب ونزغاته ونزعاته المعروفة زاد قدره احتراماً عند الناس عامة وخاصة بين الكهنة ومعلميه ورؤسائه في المدرسة الاسقفية في زحلة وفي دير الابتداء بالرهبانية وفي مدرستها لاجل فضائله التي كان متحلياً وممتازاً بها عن رفاقه واترابه حتى كان رؤساؤه يؤثرونه ببعض امور لاجل كمال فضيلته مع كونهم نظراً لمقامهم ولصفاتهم الخاصة لا سبيل لاتهامهم بالمداجاة له بملق كاذب . فمن يعرف الطيب الذكر بطرس الجريجيري بصفاته ومقامه حينما كان بعنفوان شبابه رئيساً لمدارس زحلة ومرشحاً ليكون مطراناً لها يظن او يقول عنه انه كان يداجي او يداهن تلميذه الشاب سليم جبور حينما كان يتخذه رفيقاً له في بعض اعماله وزياراته الكهنوتية مؤثراً له بذلك على غيره من الكهنة والمعلمين الذين كانوا حينئذٍ تحت يده .

وكذلك من يعرف المرحوم الخوري يوسف غنام وما اختصه به الله من المواهب التي تقتضيها الرئاسة والسلطة لتهذيب الرهبان الشبان يظن او يقول انه كان في غواية وغرور اذ جعل الاخ بشارة من اول عهده به في الرهبانية ناظراً للمبتدئين والرهبان الذين كان اكثرهم اكبر سناً منه وقد رضخوا له واحبوه ولو كانوا بعنفوان شبابهم . بل الحق اولى ان يقال بان لا سبب لذلك الا الفضيلة التي كان يتحلى بها المذكور بوجه ممتاز ولذلك لم يكن ليرضى عنه بديلاً .

على اني تحققت بذاتي ومن جميع الذين استنطقتهم عن اعماله واستخبرتهم عن سيرته فيهم انه كان بمنزلة ممتازة بل فريدة من الاحترام والحب عند الجميع قلما بلغ اليها انسان في هذه الحياة التي لا نجد فيها صديقاً صادقاً حتى يكون لنا الف عدو .

ومن الحوادث التي تدل على ذلك اني ابصرت ذات مرة انساناً جافي الطبع والشكل – لا احب ان اذكر اسمه وقد مات رحمه الله – يسارع لخدمته بلطف ولهفة حب غريبة . فقلت له : هل تحبه حتى تسارع الى خدمته بهذه اللهفة والاحترام . فاجابني : من لا يحبه ولا يحترمه .

ومن هذا ايضاً ما رواه لنا مرعي المكاري من سرجبال امام كثيرين من اهل بلده واهل الوادي سنة ١٩٢٨ بانه ابصر ذات يوم الاب بشارة بطريقه الى سرجبال وقد مر بجماعة من اهل كفرحيم وكلهم دروز . فلما قرب منهم الاب بشارة وقفوا له كلهم وهجموا عليه يتسابقون الى قبلة يديه وطلب بركته بكل احترام . وقد قالوا لمرعي المذكور الذي كان حينئذ قريباً منهم : انهم كانوا يشاهدونه مراراً في طريقه رافعاً يمينه وفيها مسبحته وحاملاً بشماله قلوسته او جبّته يرفع صوته قليلاً بصلاة خاشعة تكاد تكون دائمة ما طال الطريق . ولم يجد الجماعة نعتاً لائقاً يصفونه به افضل من قولهم عنه . هذا وحده خوري .

وبالحقيقة انه قلَّ من كان يراه يصلي صلاته في طريقه او في

الكنيسة بقلب خاشع وصوت خافت ونظر منخفض ولا يتأثر من هذا المنظر الخاشع ولا يقول عنه انه يعبد الله بالروح والحق كما ينبغي

ويجدر بنا ان نذكر هنا من هذا القبيل ما كتبته لنا ابنة اخته مريم السيدة حنينة ابنة عبد الله الزحلاوي انها ابت ان يبارك اكليل عرسها على ابن خالتها الخواجا يوسف قادري سوى خالها بوجود سيادة المطران بولس ابي مراد نسيب اهل العريسين لاعتقادها ان خالها كاهن فاضل وقديس وان بركته لعرسها ذات فاعلية خاصة تضمن لها ولقرينها عيشة سعيدة ذات هناء وتوفيق . ولم تحفل بشرف المطران ومقامه مع قرابته لها ولعريسها

ومن هذا القبيل ايضاً ان كثيرين كانوا ياتون اليه قصداً من اماكن بعيدة لسماع اعترافاتهم او لطلب صلاته لشفاء مرضاهم او لدفع آفة عنهم وعن ارزاقهم وحاصلات مواسمهم او لطلب نعمة خاصة من الله بواسطته وبصلاته لاعتقادهم انه مستجاب الدعاء عند الله وان لصلاته قوة فائقة لصلاحه ولفضيلته . وما اكثر الناس الذين كانوا يقدمون اليه الماء ليصلي عليه ليرشوا بيوتهم به لدفع آفة النمل والفار عن موسم دود الحرير الذي كان العمدة عليه بمعاشهم وكان لهم بهذا الماء بركة صانوا بها حاصل موسمهم وكذلك كم من الناس رشوا بهذا الماء حقولهم المزروعة فكان لهم فيه بركة دفعت آفة الجراد عنهم سنة ١٩١٥ فلم يصبها اذى .

ولم تزل كثيرون يحفظون في بيوتهم شيئاً من هذا الماء المبارك الى عدة سنين بعد موته . وكان من عادته ان يبارك على الزيت بصلاة طقسية باسم الكنيسة ويوزعه على من يطلبه وقد حُفظ كمية من هذا الزيت في دير المخلص بضع سنوات بعد موته . ولكثرة طلب الناس له اضطر اصحاب الشان ان يمزجوه بزيت جديد ليوزعوه على من يطلب

نعم ان الاحسان سلسلة او طوق جميل في عنق المحسن اليه يضطره ان يحب المحسن ويحترمه ويخضع له مهما كان طبعه وخلقه جافياً بل لو كان وحشاً ضارياً . لكن الاب بشارة لم يكن محبوباً ومحترماً فقط من الذين كان يشملهم باحسانه . بل كان بقدر ذلك محبوباً ومحترماً من الذين يحسنون اليه ايضاً او الذين كانوا يحسنون الى الفقراء على يده . فانهم كانوا يعدونه خير واسطة لعمل الخير الى الناس ولاكتساب الاجر من الله عن ذلك بواسطته وعلى يده لاعتقادهم الخير به وحسن القصد باعماله .

وحقيقة الواقع انه لم يكن يتثاقل او يتشدد بطلب الاحسان من اهل الخير لئلا يكون هذا منهم عن كراهية او عن حياء بشري ويفقد المحسن اجر احسانه اذا كان بغير رضاه

وقصارى الكلام انه صح وتحقق فيه القول المأثور : من احبه الله حبّبه الى الناس



﴿ الفصل السادس والاربعون ﴾

في كرامات عند الله

الكرامات اعمال خارقة فوق الطبيعة يأتيها الله للناس كما يشاء لاظهار مجده وكرامة لولي له يحبه مكافأة له على حبه له فوق كل شيء . فهي نوع من الحب والاكرام المتبادل بين الله الكلي الصلاح والانسان الصالح . وهي بمقام نيشان يختص به الله من يريد اكرامه من الناس . وليست هي من جوهر القداسة او ذاتياتها . ولكنها هي عنوان لها ودليل صادق على قداسة صاحبها لانها مفعول قدرة الله الفائقة ظاهرة للعيان على يد من يريد الله اكرامه في خلقه .

والغرض الاول منها اظهار مجد الله بقوته ولذلك تدعى قوة الله وقوات . ولا تكون الا على يد اهل الصلاح الموالين له تعالى الذين يحبونه فوق كل شيء ويبتغون رضاه دائماً في كل حال . فلا تكون على يد اناس يتقلبون بين الخير والشر تارة يحبون الله ويبتغون رضاه باعمالهم وتارة يؤثرون عليه خلقه وهوى نفوسهم . ولهذا يقال لها آية وعلامة لانها تدل على كرامة من جرت على يده دلالة واضحة لا اشكال فيها ولا ابهام يدركها كل انسان ذي عقل سليم مندهشاً من وقوعها على

خلاف مجرى ناموس الطبيعة ولذلك يقال لها اعجوبة وعجيبة. ويقال لها ايضاً معجزة لان الانسان يعجز عن الاتيان بمثلها بقواه الطبيعية ولا بقوى الطبيعة التي تخضع له.

وليس مرادنا في هذا الفصل ان نفكه القارىء بسرد الاخبار الغريبة عن الاب بشارة لنثير اعجابه واستعظامه له بل جل قصدنا ان نذكر هنا بعض الاعمال التي شاء الله ان يجريها على يده كرامة له لخير اناس لم يزالوا او لم يزل اكثرهم احياء. وهم الذين اخبرونا عنها على سبيل الاقرار بالفضل والشكر لله ولوليه البار. ونحن ننقلها كما وردت الينا منهم بالدقة التامة بكل امانة وصدق. ولذلك نذكرهم باساميهم والامكنة التي يقيمون فيها لتسهل مراجعتهم بذلك لمن رام زيادة التحقيق فيها حتى لا يبقى ادنى اشكال ولا شبهة شك في تحقيقها اصلاً ولا في نقلنا لها بالوجه التالي وقد محصناها تحقيقاً قدر الطاقة

ومن ثم لا ينبغي ان نلام اذا لم نكثر من ذكر حوادث كثيرة خارقة يرويها اناس بانها جرت على يده حياً وميتاً. وربما تكون قد جرت حقيقة كما يذكرونها ولم نذكرها لانها لم تزل عندنا في شبهة وعرضة للنقد ولعلها فيما بعد تنجلي حقيقتها اكثر وتزول عنها كل شبهة.

ثم لا ينبغي لاحد ان يستغرب هذه الكرامات في هذه الايام بعلة انه طمى فيها الفساد بين الناس وقلّ رجال الله الصالحون فان

الله تعالى لم يزل كلي الصلاح وقدوس القديسين وفي وسط كنيسته المقدسة وهو فيها بنعمته الى منتهى الدهر . ولكثرة صلاحه وحبه للبشر يريد ان يظهر صلاحه وخيريته على يد اهل الصلاح من ابناء كنيسته التي لا تخلو منهم ابداً . والا فقد فسدت عروس الله المختارة المتحدة به اتحاداً مقدساً ابدياً .

ومن هذه الكرامات واولها ان وردة ابنة مخول رحال من غريفة امرأة شاكر تايج من مزرعة الحتقرة قررت لي امام جمهور من راهبات دير البشارة التابع لدير المخلص وامام رئيسة الدير الام ماريا حجار في نفس الدير في ١٢ اذار سنة ١٩٢٧ في الصيام الكبير بعد رياضة روحية بانها اذ كانت تساعد الراهبات في بعض الاعمال اليدوية ومنها غسيل ثياب الرهبان وكانت تشعر بوجع في عيونها وضعف في بصرها من لطخة او لقطة حمراء فيها ظاهرة تكاد تطبق على عيونها وقد عالجتها بقطرات مختلفة بقدر ما تسمح لها حالتها لكن بدون فائدة حتى خطر على بالها وهي تغسل ثياب الاب بشارة ان تغسل عيونها بها اعتقاداً منها انه رجل صالح كما كانت تسمع عنه سابقاً في غريفة من اخيها المرحوم الخوري خليل من الكهنة العلمانيين في ابرشية صيدا وانها بقوة الله وبركة الاب بشارة رجل الله تشفى من مرضها . وكان لها ذلك وزال من عيونها الوجع وضعف البصر ولم يبق اثر لتلك اللطخة التي كان يراها على عيونها كل الراهبات وكل اهل

المزرعة . وانا قد شاهدت عيونها اذ كانت تقص علي ذلك فلم اجد فيها اثراً ولا شيئاً من الاحمرار وهي لم تزل الى اليوم حية تروي خبرها هذا لكثيرين . وقد سالت عنها وعن عقلها وسيرتها زوجها الذي كان حاضراً معها حينئذ والراهبات اللواتي كن يعرفنها جيداً فشهدوا بحقها شهادة حسنة وان ليس لها في عقلها وسيرتها ما يجرح شهاداتها وكلامها .

ومن هذا ما رواه الخواجا مسعود شبلي صافي من دير القمر من طائفة اخوتنا الموارنة عن اعجوبة جرت معه لولده الوحيد شبلي فانه مرض مرضاً شديداً بذات الرئة حتى قطع الامل من حياته هو وطبيبه الخاص الدكتور يوسف البستاني وكان مسعود قد حضر جناز الاب بشارة في دير المخلص مع الوفد الديراني واخذ عن يد الاب العام حينئذ قطعة من قميص الاب بشارة بركة وذخيرة فخطر على باله في هذه الشدة امر هذه الذخيرة فالتجى الى الله تعالى الطبيب الشافي لكل مرض بواسطة صفيه الاب بشارة واخذ القطعة المذكورة ووضعها على محل الوجع من ولده ولم تمر على ذلك مدة عشرين ساعة الا وقد شفي المريض تماماً .

ولما اتم لي كلامه هذا طلبت منه ان يكتب لي خبر ذلك كما رواه او كما جرى الامر له تماماً بدون زيادة ولا نقصان كانه امام الله . فكتب لي ذلك بالحال على ورقة بخط يده وامضائه وهذه صورتها منقولة عن الاصل حفراً بالزنك .

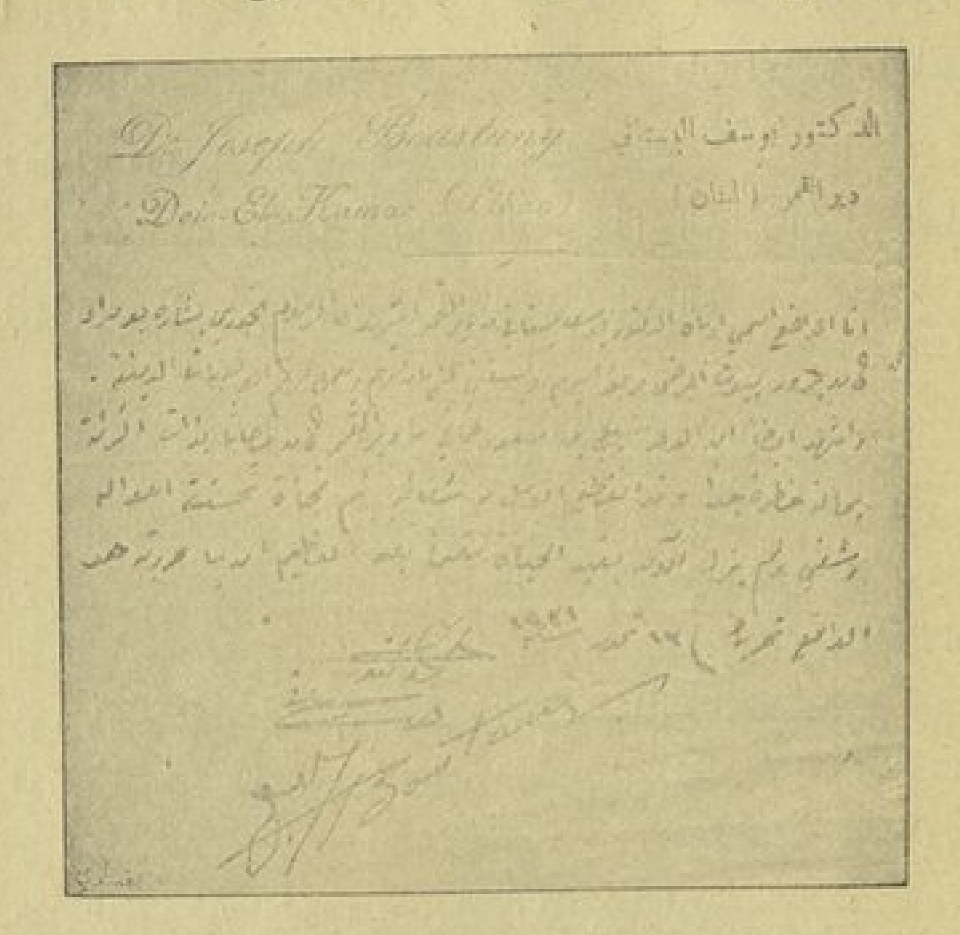
انا كنت مع الوفد الرهباني الذي حضر دفن المرحوم بشارة ابي مراد [illegible]
في الجثمان [illegible] على قطعة من قميص سيادة الاب العام
[illegible] ولدي [illegible] في زمان الرئيس ووصل الى
حالة الخطر الكلي وكان يعوده الدكتور يوسف بستاني ولما [illegible] في حال
خطر [illegible] ذكرت قطعة القميص التي اقتنيتها من دير [illegible]
وقطعت جزءاً صغيراً ووضعتها على [illegible] نام تماماً مدة عشر ساعات
حتى تغيرت حالته [illegible] وبعدها شفي كما انا بشفاعة المرحوم بشارة
وهذه الحادثة جرت مع ولدي [illegible] مع [illegible] بالله [illegible]
المقدسة [illegible]

مسعود شبلي
[illegible]
دير القمر

وقد شاهدت الولد المذكور صحيحاً سالماً امام دكان والده انا والخوري باسيليوس خرياطي ب.م. رئيس انطوش دير القمر

ثم ذهبت معه في اليوم ذاته او في اليوم التالي لزيارة الدكتور يوسف البستاني في داره لأتحقق منه الخبر عن هذا الامر وعن غيره مما يعرفه عن الاب بشارة . فاخبرنا عنه بما ينطبق على رواية مسعود المذكور . فطلبت منه ان يكتب لي ذلك بخط يده مفصلاً بكل دقة فكتب لي حينئذ بخط يده وانشائه هذه

الشهادة التي ننقلها هنا عن الاصل محفورة على الزنك


الدكتور يوسف البستاني
Dr Joseph Boustany
دير القمر (لبنان)
Deir-El-Kamar

والدكتور المذكور من اسرة معروفة في دير القمر وكل لبنان وقد تربى في بيت مشهور بالتقوى ووالدته من فضليات نساء دير القمر . وقد درس الطب في كلية الاباء اليسوعيين في بيروت ومارس الطب بنجاح وسمعة طيبة في دير القمر وضواحيها ليس عليها غبار في سلوكه واعماله

ومن هذا ما جرى لحضرة الاستاذ الفاضل جورج سعيد الحيمري مدير غرفة رئيس الجمهورية اللبنانية ورئيس اخوية سيدة

الجبل بلا دنس في بيروت وهو وحيد لوالديه حفظه الله وكلاهما من دير القمر وهو مولود في بيروت بجوار دار الوكالة المخلصية وقد اتم دروسه كلها في كلية الاباء اليسوعيين

وفي رسالته لسيادة الاب العام بهذا الشان البيان الوافي ننقلها بالحرف عن الاصل المحفوظ عندنا بامضائه

حضرة الاب الفاضل رئيس عام رهبنة المخلصية الجزيل الاحترام

بعد استمداد ادعيتكم الخيرية اعرض اني اجابة لرغبتكم اكتب لكم ما وقع لي ولابنة عمي حين زيارتنا دير المخلص في السنة الماضية . فاني دخلت الكنيسة مع زوجتي وصلينا مبتهلين اليه تعالى ان يرزقنا مولوداً وفي تلك الاثناء ذهب بي حضرة الاب الارشمندريت بولس شعيب الى غرفة الاب الورع الطيب الذكر المرحوم بشارة ابو مراد وطلب ان يصلي لي ليرزقني الله ولداً لانه مضى على اقتراني ثلاث سنوات بدون ان تتحقق لي هذه الامنية فصلى لي حالا . وبعد مضي اقل من شهر استجاب المخلص الدعاء واصبحت قرينتي حاملاً .

فاظهاراً للواقع كتبت اليكم هذا التحرير راجياً في الختام ان تقبلوا فائق احترامي وجزيل سلامي .

جورج حيسري

بيروت في ٢٩ آذار سنة ١٩٣٠

وفي ١٠ ايار سنة ١٩٣١ زار المذكور مع حضرة قرينته وابنتها الصغيرة دير المخلص وكنيسته وقبر الاب بشارة ووقفوا كلهم امامه يشكرون المخلص لتفضله عليهم بواسطته واوعزوا الى المصور الشمسي ليأخذ صورتهم واقفين امام القبر ثم الصقوا



الاستاذ جورج حيمري ومدامته وطفلتها الصغيرة امام قبر الاب بشارة ومقابلهم الرئيس العام (صفحة ١٩٣)

الصورة على صفحة من صفحات الدفتر الموضوع على قبره اقراراً بفضله وشكراً للمخلص ولوليـه الاب بشارة و كتب تحت هذه الصورة في الدفتر المشار اليه بخط يده ما يأتي :

يا أبتِ بشارة الكلي الاحترام

اني شكراً لك قد اتيت مع قرينتي والطفلة الصغيرة التي نلتها ببركتك ودعائك . واتشرف بان اضع رسم زيارتنا على قبرك الكريم ذكراً مخلداً واقراراً بفضلك وشفاعتك امام المخلص الالهي . في ١٠ ايار سنة ١٩٣١

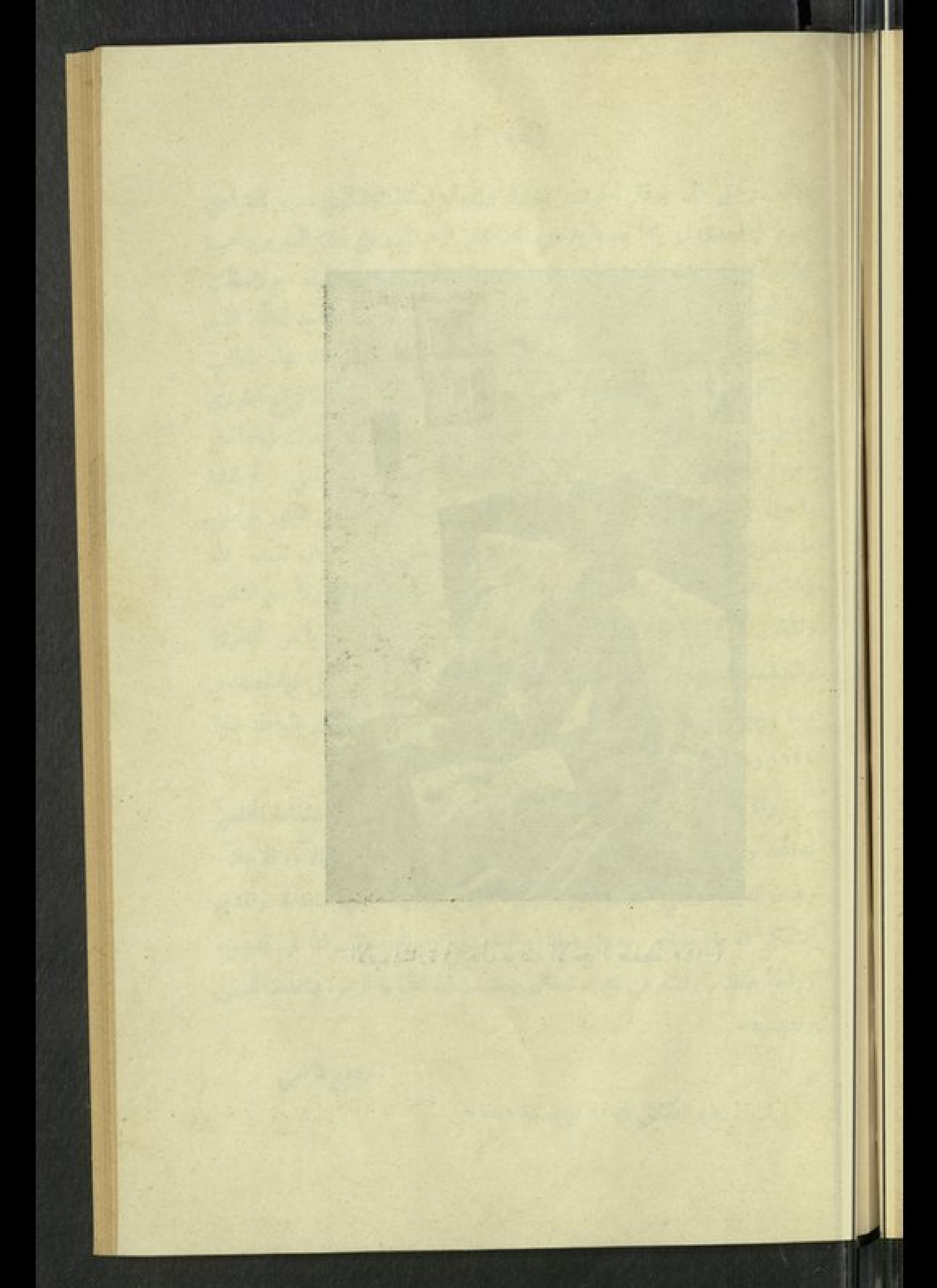
جورج حيمري
جورجيت ورنيه
حيمري

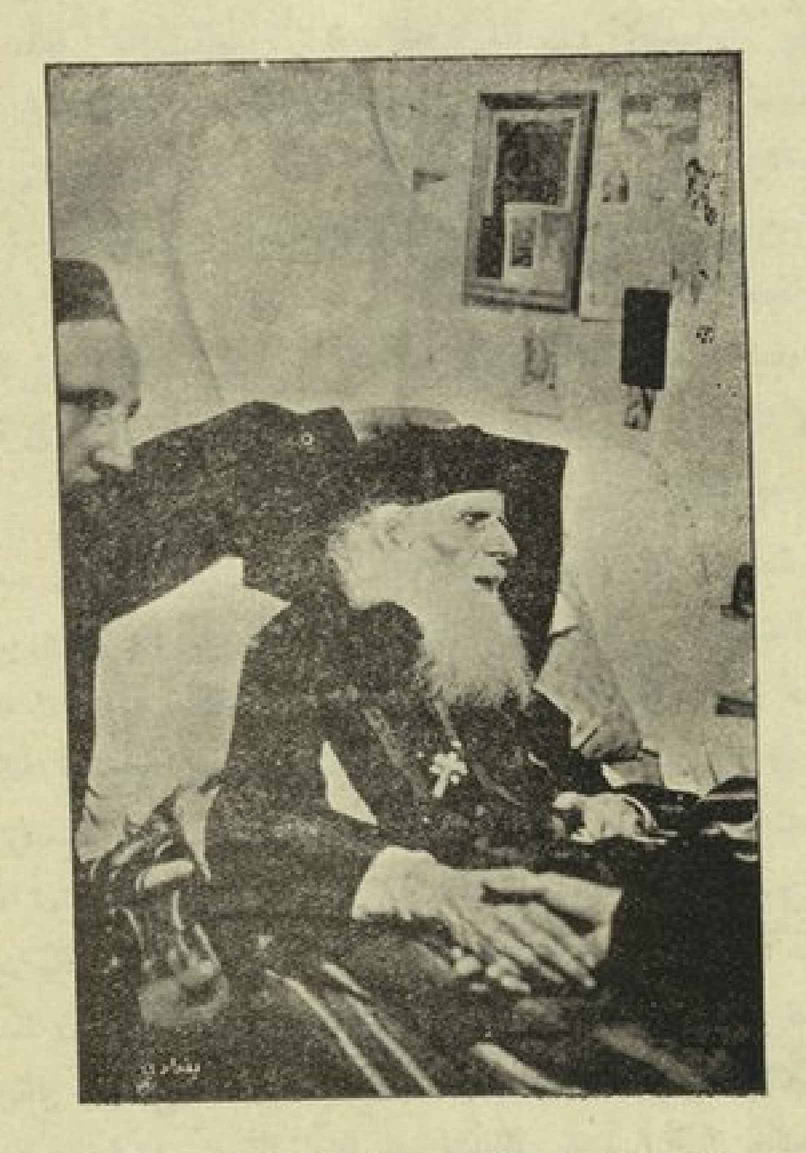
ويتصل بهذا ايضاً ما جرى من هذا القبيل للشيخ وديع الرامي من فالوغا . وهو من اسرة كريمة قديمة من مشايخ لبنان بالعهد الشهابي . وفيما كتبه وامضاه بخط يده ومهره بختمه البيان الوافي ننقله بالحرف عن اصله المحفوظ عندنا .

انا وديع الرامي ابن داود صليبي الخوري من فالوغا المتن من محافظة جبل لبنان وحيد لوالدي ولي شقيقة بتول تدعى مريم . وقد تزوجت نسيبتي انيسة عبده الرامي من فالوغاعينها في ١٥ ايار سنة ١٩٢١ و كان عمري حينذاك سبعة وثلاثين سنة . وقد كان مضى على زواجي تسع سنين ولم ارزق فيها ولداً برغم المعالجات الطبية التي أجريت لزوجتي عنـد اعظم الاطباء شهرة في الجمهورية اللبنانية وغيرها . فبلغني ذات يوم ان صديقي جورج افندي حيمري سكرتير رئاسة الجمهورية اللبنانية — وهو وحيد نظيري لوالديه — قد حملت زوجته بعد

ثلاث سنين من زواجها. فقصدته في غرفته في السكرتيرية لأهنئه . فبادرني — لمعرفته السابقة بحالي — بقوله هل تؤمن بالعجائب ? — قلت له اني اول من يؤمن لاني مسيحي كاثوليكي ولي ثقة كبيرة بمعتقدي وبعجائب الله . فقال لي : عليكم بزيارة دير المخلص في نواحي صيدا بايمان صادق . وتجدون في نفس الدير راهباً قديساً يدعى الخوري بشارة ابي مراد . فاذا زرتم الدير وقبلتم بركة هذا الكاهن فلي رجاء ان تنالوا ما نلته لان صحة معتقدي ومعتقد زوجتي قد انالتنا الآن نتيجة كثيراً ما سعيت وراءها بدون جدوى ولم نوفق اليها الا بزيارتنا هذا الدير ونيلنا بركة الكاهن المذكور . وما كاد ينهي كلامه لي حتى تمثلت بايماني اني لا محالة احصل على نتيجة من زيارتي لدير المخلص فرجعت الى فالوغا واخبرت زوجتي بذلك فوافقت حالا على معتقدي

في ٨ شباط ركبت وزوجتي سيارة قاصدين بيروت حيث قابلت صديقي جورج واطلعته على عزم كلينا . ولما كان جورج افندي عالماً بان الخوري بشارة مريض وانه يحظر عليه المقابلات اخذني الى الوكالة المخلصية في بيروت عينها واستحصل لي على كتاب توصية من سيادة الرئيس العام على الرهبانية المخلصية الارشمندريت اغابيوس نعوم الكلي الشرف الى حضرة الاب المدبر نائبه في دير المخلص ليتاح لي ان ارى الخوري بشارة المريض . فركبت ومدامتي سيارة اقلتنا الى الدير المذكور فبلغنا اليه في الساعة الثالثة بعد الظهر ودخلنا تواً الى الكنيسة حيث وجدنا جمهوراً من الآباء الاجلاء يقيمون زياح البركة بالقربان المقدس فحضرنا الصلاة بخشوع واحترام وايمان . وبعد ان حصلنا على البركة بالقربان المقدس خرجنا من الكنيسة فخف لمقابلتنا بعض الآباء الاجلاء واكرموا وفادتنا وادخلونا ردهة في الدير وابدوا لنا بشاشة ولطفاً نادرين واحتراماً قبل ان نطلعهم على الكتاب الذي بيدنا مما دل على سمو اخلاق ابناء هذه الرهبانية المباركة . وبعد ان سلمتهم الكتاب المذكور قالوا لي ان قانون رهبنتنا لا يجيز للنساء الدخول الى غرف الرهبان فتدخل انت وحدك فقط . فامتثلت للامر ودخلت





الاب بشارة في حال مرضه الاخير (صفحة ١٩٥)

دون زوجتي الى غرفة الخوري بشارة وللحال استلفت نظري سرير اعتيادي بسيط في احدى زواياها حسبا يقتضي نذر الفقر الرهباني وعلى ذلك السرير راهب يجلله الشيب ورهبة الشيخوخة وامائر الوقار والقداسة بادية على محياه . ولاحظت من تجعدات في وجهه انه في العقد السابع من عمره . فعرفه بي احد الآباء الذي كان بصحبتي بقوله له : امامكم وديع الرامي من المتن وقد جاء يطلب بركتكم قاصداً نفس الغاية التي طلبها قبله جورج افندي حيمري . فرفع الخوري الجليل يده وباركني وانا جاث امامه . وعند اعطائه لي البركة شعرت في داخلي شعوراً قوياً وتجلى لي حينذاك نتيجة اعتقادي بجرى الدمع من مقلتي . ثم قفلنا راجعين بعد ان اودعت شكري واحترامي ذلك الكاهن الفاضل الذي لم يمض عليه سوى بضعة ايام حتى انتقل الى رحمة ربه ليدخل فسيح جنانه تغمده الله بوابل رحماته . وقد تركت تلك الزيارة اثراً في نفسي قوياً مما لقيته اولاً من الانس واللطف وكرم الاخلاق والضيافة من رهبان الدير الاجلاء وثانياً من التقوى والقداسة البارزتين على وجه ذلك الكاهن المزور . ولم يمض على زيارتي للدير مدة وجيزة حتى اضحت زوجتي حاملاً وفي اليوم السادس من شهر شباط سنة ١٩٣١ وضعت ولداً انثى .

وانا وزوجتي وابنتي الصغيرة نتمتع والحمد لله بصحة جيدة بشفاعة المخلص له المجد وشفاعة خادمه القديس الخوري بشارة وبدعاء حضرات الآباء الاجلاء رهبان الدير . وانني عدت اليوم لزيارة المخلص لتجديد طلب الشفاعة وتقديم الشكر لله على ما انعم به علي معلناً واقعة حالي ومبيناً عجائب الله في قديسيه وراجياً حفظ ما نلته عن غير استحقاق وملتمساً ان انال ما ارجوه بشفاعة المخلص وقديسيه .

وديع الرامي

دير المخلص في ٢١ ايار سنة ١٩٣١

والاب المدير نائب العام المشار اليه بكلام الشيخ وديع السابق ذكره انما هو الارشمندريت اغناطيوس جمال وقد قال لنا ان الاب بشارة لم يكتف حينئذ بمنحه البركة للشيخ المذكور كما توهم عبارته. بل صلى على رأسه وهو راكع لدى سريره بصوته الخافت صلاة الروح القدس التي أولها ايها الروح الخالق الخ. وبعد ان اتم هذه الصلاة قال له ان امرأة الشيخ باقية في الكنيسة تصلي وطلب لها بركته فرفع يمينه الضعيفة وباركها عن بعد متجهاً نحو الكنيسة.

وينبغي ان نعلم ان البركة التي يعطيها الكاهن برسم الصليب المقدس بايمان حي يعطيها باسم المسيح وبالاشتراك معه ولها قوة بركة المسيح اذا قبلت كذلك بايمان حي. وكذلك كل الصلوات التي يتلوها حسب طقس الكنيسة وترتيبها فانه يتلوها بصفته كاهن الكنيسة وخادم المسيح الذي هو رأسها المتحد بها بالايمان والرجاء والمحبة. ومن ثم تكون هذه الصلوات ذات قوة وفاعلية فائقة اذا تليت وقبلت هكذا

ومن هذا القبيل ايضاً ما جرى له مع سيادة الاب العام الارشمندريت اغابيوس نعوم وهو انه في ٦ ايارسنة ١٩٢٩ كان قد اشتد الحر جداً فوقف الاب العام امام باب الكنيسة الجنوبي مع الاب بشارة وقال له: اما تشعر بهذا الحر فاجابه: نعم. فقال له الاب العام اذهب وقل ليسوع ان الرئيس امرني ان اطلب

من حنانك ورأفتك تخفيف شدة هذا الحر . فأجابه الاب بشارة انا خاطي . فقال له الاب العام : انا لااعرف . لكن يجب ان تعلم ان الطاعة تقدس الاعمال . الا تذكر كيف عمل القديس بولس البسيط لما أمره رئيسه القديس انطونيوس ان يخرج الشيطان . فتدبر انت اذاً معه وقل له ان يشفق على الاطفال واليتامى والارامل ولا يعاملنا بحسب خطايانا . فذهب الاب بشارة الى الكنيسة يصلي واطال صلاته حتى تغير الطقس تغيراً فجائياً وسقطت الامطار بغزارة فعجب الرهبان من ذلك ومجدوا الله وشكروه لذلك .

ومن هذا ايضاً ان السيدة ماري امرأة الخواجا بولس مقساس من دير القمر وهي امرأة فاضلة معروفة هناك هي ورجلها وقد قضت معه مدة ولم يرزقا ولداً . وبدعاء الاب بشارة فتح الله مستودعها وولدت صبياً . وبعد زمان فجعت بموته بحياة الاب بشارة فكان حزنها عليه شديداً وعاتبت الله والاب بشارة بقولها اذا كنت يا رب اعطيتني هذا الولد لتفجعني بموته فقد كان خيراً لي ان لا تعطيني اياه ولا تفجعني بموته العاجل . . . وبعد مدة زارت الاب بشارة في دير المخلص وطلبت بواسطته من المخلص ولداً عوضاً عن الميت . فقبل الله صلاتها ورزقها ولداً دعته انطونيوس واتت به الى دير المخلص تزوره وتزور قبر الاب بشارة في ١٢ تموز سنة ١٩٣١ وتشكر المخلص على ذلك . وهي اخبرتني ذلك في دير

المخلص بالتاريخ المذكور واعادته لي عندما زرتها في بيتها في دير القمر في اواخر شهر تموز من تلك السنة .

وقد روى لي الخواجا جبرائيل عبيد من كفرقطرة من القرى التي كان الاب بشارة يخدم النفوس فيها ان ابنه كنعان مرض مرضاً شديداً لم يجد لعلاجه وشفائه سبيلاً فطلب من الاب بشارة صلاته لاجل شفائه بشدة وقوة وذكره بقول المسيح لرسله اشفوا المرضى . فصلى الاب بشارة على قليل من الماء صلاة حارة تحركت جوانحه وجوانح الحاضرين معه وشرب منها المريض وشفي تماماً . وقد نظرته في كفرقطرة عند ما زرتها سنة ١٩٣١ وهو شاب بكمال العافية والصحة وذكر لي جبرائيل المذكور امام كثيرين من كفرقطرة ان الجميع يقرون للاب بشارة بفضله وتقواه وليس له فيهم من يذمه بشيء .

ونكتفي بذكر هذا القدر من كراماته التي نقلناها على رواية اصحابها لنا بكل دقة وامانة . ولم نحب ان نذكر كل ما بلغ الينا منها اكتفاء بما ذكرنا هنا لئلا يطول بنا كثيراً الكلام في هذا الفصل . وربما ننشر في ملحق خاص ما فاتنا نشره منها في هذا الفصل ان شاء الله تعالى.

ملحق الكتاب

﴿ الفصل الاول ﴾

يشتمل على بعض مراسلات كتبها الاب بشارة الى من يأتي ذكرهم عدا ما ذكرنا منها في فصول الكتاب في محلها وهي تنم على رقة حاسياته وعلى مبلغ تقواه . وابقيناهـا على اصلها مع ما فيها من الاغلاط اذ لم يكن يهتم بمراعاة احكام الصرف والنحو كثيراً ولا سيما في اخر حياته رحمه الله

اولاً ما كتبه للرئيس العام الارشمندريت جبرائيل نبعة في ١٥ كانون الاول سنة ١٩١٣ .

سيادة مولاي الكلي الاحترام

بعاطفة الشوق والاحترام الثم راحاتكم مستمداً بركتكم وطالباً دعاكم لولدكم الخصيص واطلب من المخلص سلامتكم وطول بقاكم لامنا الرهبنة ...

انا اتقدم بكل خضوع واهنئكم في هذه الايام الخلاصية المقدسة فالمولى يا ابتي يحفظكم لاعوام مديدة تطوون سبلها بغاية النجاح ودوام الراحـة ولا ترون فيها ادنى كدر ... انا اؤكد جيـداً ان سيادتكم تحبوني وتريدون راحتي وترغبون مساعدتي خصوصاً في هذه المواسم الخلاصية فانا ابين لحنوكم ما هو متوجب علي في هذه الايام وما انا ملزوم ان اتممه لنحو الشعب المقام لرعايته في دير القمر وكفرقطرا ووادي الدير وسرجبال والبقيعة وبقعون وخلافهـا فهذه كلها يجب علي ان اتجولها حتى اعرفهم واناولهم الاسرار المقدسة . وكذلك الاحد والعيد اقدس مرتين ودائماً محشور . فاذا اردتم سيادتكم وترغبون ان

تريحوني نوعاً ان تتكرموا بارسال كاهن في مدة هذه المواسم الجليلة فقط وينام في دير عميق او في كفرقطره او عندنا في دير القمر وبهذا تصيروني ممنونا جداً وغريق الافضال . والارادة والامر لسيادتكم . ومن جهة سيادة المطران والريس يرغبون ذلك . والمخلص يديم لنا اقنومكم الجليل راجياً من حبكم ان تؤازروني بطلباتكم البارة ولا تنسوني من دعاكم ورضاكم فيا اني بتزيد الانعطاف والاحترام اكرر لثم يديكم مولاي

مستمد دعاكم
ولدكم الخضوع
الخوري بشاره
بو مراد ب . م .

ثانياً ما كتبه له في ١٣ نيسان سنة ١٩١٦ .

مولاي الكلي الاحترام

باكرام واحترام الثم انامكم الطاهرة مراراًوالتمس مبرور دعاكم ورضاكم . ابدي قد صار مدة وانا منحرف الصحة وحاصل لي الم عصبي في المعدة وبسبب الظروف الحاضرة قد احتجت الى دراهم وقلت الى قدس الاب المدبر بان تتكرموا علي بارسال خمس ليرات وألحيت عليه وقلت له مراراً حيث اني باحتياج كلي اليهن . ومن حين ابراحه من دير القمر وانا منتظر ذلك حيث اني اخذت من بعض اشخاص كم غرش فالتزم بردهم . وعلي ثمن ادوية وخلاف ذلك . وانا لي دراهم مع سيادة المرحوم المطران باسيليوس ومع رئيس العازارية مقدار ثمانية عشر ليرا افرنسية وكسور ومع خلافهم ايضاً . ولكن يدي ليست طايلة لشيء الان . ومتى اخذت هذه الدراهم كلها ادفعها لابوتكم . فالان ارجو من حنوكم وكرم اخلاقكم ابتي ان تجودوا علي بالقيمة المذكورة صحبة الساعي الياس يوسف زيادي فيكون لسيادتكم الفضل والثواب ولا تجاوا عايق لمطلوبي ولو مهما كان الامر . هذا بشأنه مكرراً لثم الانامل الطاهرة مراراً مع تقبيل ايادي .

آبائي الاجلاء المدبرين وطلب دعاهم واطلب من المخاص ان يديم لنا سيادتكم للرهبنة ركناً وسنداً وعضداً . اللهم استجب آمين

ابتي اني اخبر سيادتكم باني قد خالفت نذر الفقر مراراً لاني كنت اعطي لمن يطلب مني بزيادة وكنت اعطي لبعض اشخاص تسافر لاماريكه حينما يطلبوا مني المساعدة لاجل السفر ويوعدوني بانهم يعوضوا علي وكذلك قرضت لبعض اشخاص ولا يعود يمكنهم ان يعطوني وخلاف ذلك وتعرفون جيداً احوال العالم . فانا قد خطئت باعمالي هذه التي هي ضد نذر الفقر فارجو منكم يا ابتي ان تغفر لي وتسامحني عما خالفت به عهودي ومن الان فصاعداً بنعمة الله ما عدت افعل شيء من هذا الا بحسنة جزئيـة للفقراء . وذلك يكون بسماح من ابوتكم ولا تخرجوني من دايرة رضاكم ودعاكم .

الداعي لسيادتكم
ولدكم الخضوع
الخوري بشاره
بو مراد ب . م .

ثالثاً رسالة تهنئة لسيادة الارشمندريت باسيليوس شحادة بانتخابه رئيساً عاماً وفيها ما فيها من عواطف الحب والاحترام مع الجراة الادبية :

عن دير القمر في ٢٤ ايلول سنة ١٩١٩

سيادة مولاي الارشمندريت باسيليوس اب عام ب م
الكلي الاحترام ادامه المولى

بعظم الاحترام والاكرام الثم انامكم الطاهرة والتمس مبرور دعاكم طالباً من المولى حفظكم وسلامتكم ابد الدهر .. ابتي الحنون اقدم لقدسكم اسطر التهاني بما نلتموه من لدن المنان ايها الاب الجليل استلامكم زمام الرئاسة

العامة التي بكل عدل احيلت لعهدة قدسكم فسبحان من قلدكم هذه الرتبة المقدسة لاتمام مشيئته تعالى وحفظ هذه الرهبنة ونجاحها . فهذا المنصب الرفيع لايق بذاتكم الجلي طالباً من المخلص سبحانه ان يأخذ بيدكم اليمنى وتزداد هذه الرهبنة بنموها في الروحيات والزمنيات وتنشو بالاعمال الصالحة وتكونوا مع لفيف الآباء الاجلاء المدبرين بغاية واحدة ورأي واحد ومقصد واحد لنجاح واصلاح ما تعكس من قوانين الرهبانية وهذا نؤمله ليس في مبادىء الامر فقط بل تدوم دائما بالوفق والغيرة لان طبيعتنا البشرية ضعيفة جداً جداً يقتضي لها مهاز ومحرك ينبهها دائما وانا لمن انذر . لانكم كلكم حاوين الصفات الحسنة والعلوم الكافية وعلم السياسات الروحية ولنا الامل والرجا بالله تعالى بتقدم هذه الجمعية المقدسه ونصلح ما حدث من الخلل والنقصان واملنا كبير بالله تعالى ان لا يسمح بسقوط وانحطاط امنا الرهبنة المخلصية فنسأله تعالى من صميم القلب بحفظكم جميعاً وتوفيقكم ونجاحكم في مساعيكم الايلة لمجده اللهم استجب امين

مستمد دعاكم
ورضاكم لولدكم
الخصيص الخوري
بشارة ابي مراد ب م

عدم المواخذة سيدي لانه حصل زيادة تطفل

رابعاً ما كتبه تهنئة للآباء المدبرين في ٢٤ ايلول سنة ١٩١٩ .

قدس الآباء الاجلاء الجزيلي الاحترام

باكرام وحب واحترام اقبل اناملكم الطاهرة واستمد مبرور دعاكم ورضاكم ابدي بأسر آن سر قلبي جداً عند بلوغي بشرى ترقيتكم معارج منصب المدبرية واستلامكم زمام اعمال الرهبنة فشكرت المولى سبحانه على انتخابه لذاته قهادمة غيورين على نجاح ارهبنة ونموها بما هو مرضي لله نظير حضراتكم آبائي

الافاضل وارجو واتأمل ان تكونوا متحدين بقلب وغاية واحدة مجردة ويكون نجاح الرهبنة وتقدمها عن همتكم ونشاطكم وانا بسرور قلب اسأل الله ان يديم للرهبانية ذواتكم الجليلة لتكونوا نبراساً يستضيء به كل الناظرين لقداستكم وبالختام اكرر لثم انامكم طالباً دعاكم ورضاكم لولدكم الخصيص

الخوري بشاره

بو مراد ب·م·

خامساً ما كتبه الى الاب بشارة غفري وكيل الرهبانية في رومة في ٣٠ اذار سنة ١٩٠٣ ·

قدس الاب الوكيل ب م الجزيل الاحترام

بغاية الانعطاف ووفور الاشواق اقبل يديكم الطاهرتين الكريمتين والتمس مبرور الدعا ابدي شرفني كتابكم العزيز وهذه اول مرة فقط رقم ١٨ الجاري فشكرت المولى على صحة سلامتكم وتوفيقكم · فقد غمرتموني بفضلكم العميم عزيزي وصرت ممنوناً من معروفكم الوافر ومزيد حبكم نحو اخيكم وما تكرمتم به علي من قداسات اول مرة مائة عن يد قدس الاب العام قد ارسل لي حسنتها اربعماية غرش دون تحرير من ابوتكم · وهذه المرة الثانية تكرمتم ايضاً علي بماية اخرى فأشكر همتكم وجميلكم والله سبحانه وتعالى يكافيكم عني ويعوض عليكم اضعاف ذلك بما ترغبونه وتتمنوه دنيا وآخرة · والثانين فرنك حسنة المائة قداس الاخيرة يمكنكم ارسالها او لتحت يد وكيل المخلصية في بيروت الخوري ملاتيوس حجار او لغيره من الذين تعرفوهم في بيروت من تجار وخلافهم حالا يصلوا ليدنا فانا ممنون لالطافكم · وقد ضاعفتم المكارم لنحو هذا الداعي بتهنئتكم اياي بعيد شفيعتكم وشفيعتي سيدة البشارة فالمولى يا ايها العزيز يعاد على ابوتكم مع عيد الفصح العظيم المجيد اعوام مديدة تطوون سبلها بغاية النجاح ودوام الراحة ولا ترون ادنى مكدر راجياً من حبكم ان تذكروني

بصلواتكم ولا تنسوني من دعـاكم وحضرة الآباء الكرام يهدونكم جزيل اشواقهم فيما اني بمزيد الانعطاف اكرر لثم يديكم الكريمتين مراراً عزيزي .

اخبركم اني تكلمت من مدة طويلة مع احد الاساقفة ان مرادي اكتب الى رومية لاجل عمل مدرسة للبنـات حيث موجودين في مدرسة الامريكان لعدم وجود مدرسة عندنا لربما يساعدوني في هذا المشروع الخيري فأجابني الاسقف حينما ارجع الى رومية فأسعى لك بهذا المشروع فلحد الآن لم يتوجه ولا اظن انه يرجع لرومية فاردت اخبر ابوتكم هل ممكن وجود مساعـدة لي من الحبر الاعظم او من احد الكردينالية او من غيرهم الذين عندهم غيرة لعمل الخير والرحمة اقله اجرة معلمتين واجرة محـل للمدرسة او بدراهم او بقداسات . فكم يكون لهم اجر عند الله واي اجر يكون لكم اذا سعيتم بهذا المشروع لاننا بواسطة هذه المدرسة نختطف هذه الانفس المشتراة بدم ابن الله من مخالب الشيطان . والدراهم منفعتها لمثل هذا العمل . والبشر ضل عن الطريق المستقيم وعن الدين لعدم من يلتفت ومن يسعى لعمل الخير والاحسان فدبروا بفطنتكم والله يلهمكم ويمسك بيدكم . اعرضوا هذا المشروع ولا تخجلوا والساعي بالخير نظير فاعله . فهذا العمل لخير الانفس نافع جداً فالله سبحانه وتعالى يحرك قلوبهم لعمل كذا ودمتم سالمين .

مستمد دعاكم

اخوكم الخوري

بشارة بو مراد ب م

سادساً ما كتبه له في ١٦ شباط سنة ١٩٠٤ .

قدس الاب الوكيل الكلي الاحترام

بعاطفة الشوق والولاء الثم يديكم الكريمتين والتمس مبرور الدعا . ابدي بغاية المسرة تقبلت كتابكم الكريم الحامل بشرى سلامتكم بعبارات حبية تدل على طيب لبكم ومتـين صداقتكم . وما تكرمتم على اخيكم من

قداسات عدد ١٠٠ مع حسنتها قد قبلناها بمسرة شاكرين افضالكم ومعروفكم وحبكم لاخيكم . فالله يكافيكم عني ويحفظكم وينجح اموركم ومساعيكم وتكونوا سنداً وعضداً لامكم الرهبنة فلا تواخذوني لاني اثقل على ابوتكم واتعب سركم واقلق راحتكم ولكن الصداقة والحب المتبادل يزيلان التعب والقلق فالله يديم لنا اقنومكم الجليل وكونوا براحة ضمير من جهة القداسات لانها تتقدس حالا وانا حررت لقدس سيدي الاب العام حتى يرسل لي كم قداس اذا كان فاضل عنده وارسلت هذا التحرير لتحت يده حتى يرسله ضمن تحرير ويصل لابوتكم لان البوسطة ما عادت تصدق جيداً هذا بشانه وحضرة الاباء المحترمين يهدونكم جزيل اشواقهم ويسألون خاطركم واذا وجد تحت يدكم ذخيره تحوى عظام القديسين تكرموا على اخيكم بثمنها بقدر ما تكون ولكم الفضل والمنة مكرراً لثم اليدين وطلب الدعا لاخيكم

الخوري بشاره

بو مراد

ب م



﴿ الفصل الثاني ﴾

يشتمل على ما كتبه السادة الاحبار الآتي ذكرهم عن الاب بشارة تزكية لمضمون الكتاب وتحقيقاً له . واولها رسالة الاب العام للمؤلف .

ايها الاب الجليل والاخ الحبيب الخوري قسطنطين الباشا ب م

الجزيل الاحترام

ما اجمل اعمال الله التي تتجلى بنوع سام في خلائقه الناطقة المبدعة «على صورته كمثاله» وما اعظمها في اوليائه خدمته الحقيقيين الذين تبعوا من أرسله ليكون «الطريق والحق والحياة». فكم يصعب اذا على الكاتب ان يدبّج حياة احد اولئك الاولياء. وكم يرى ذاته بعيداً عن ان يوفيهم حقهم من الوصف والتجلة والثناء. بل يرى نفسه اعجز من ان يشخصهم في بيانه تمثيلاً وتصويراً الى اذهان البشر التي طالما اعتادت النظر الى ما هو مادي ووقتي. وقلما تعودت رفع الابصار الى ما هو روحاني وابدي. واذا ما اضطر ان يمثل على القرطاس بالمداد والقلم اعمال الفرد من رجال الله فما يقدم على عمله هذا الا وجلاً خائفاً لعلمه انه ياتي امراً عزيز المنال صعب الملتمس.

وهذا ما نلاحظه في الكتبة المحققين الذين تستفزهم الحمية لنشر حياة النفوس البارة او احد خدام الله الحقيقيين. وهم يعلمون يقيناً انهم انما يدونون اعمال اعظم الرجال. غير ان وعورة هذا الامر لا تثنيهم عن عزمهم ولا تخمد همتهم بل يسيرون الى الامام متوخين مجد الله وخير النفوس وهكذا يخلدون اعمال الله في

بطون التواريخ بنشر حياة خدامه الذين هم بالحق الابطال الاوحدون المخلدون .

وانتم ايها الاب الجليل اخذتم من زمن طويل بالتنقيب والبحث عن اعمال خادم المخلص الاب بشارة. بل بحثتم ولا شك عن اعمال المخلص عينه في هذه النفس الكريمة . اذ الغاية من نشر عمال خدام الله وقديسيه ليست على الحقيقة نشر اعمال البشر بل بالحري نشر اعمال الله نفسه فيهم . « وما اعجب الله في قديسيه . الذين جعلهم عجباً » حسب قول الكتاب الالهي .

لا شك ان الدافع لكم الى هذا العمل هو حبكم لراهب وكاهن المخلص وعرفانكم بجميل من له عليكم فضل عظيم . الا اننا نرى هنالك دافعاً اسمى واقوى هو حبكم للمخلص ذاته الذي شاء بتنازله وعطفه ان يتجلى بعض التجلي في هذه النفس المستترة في داخلها مع المسيح التي اخذتم بكتابة حياتها ونشرها تمجيداً للثالوث الاقدس وللمخلص الكريم . وكلنا يعلم كم عنّا كم طلب المستندات التاريخية وكم قاسيتم في البحث عنها

ومما يجدر بنا ذكره انكم تركتم بقية دروسكم المهمة وانكببتم على التنقيب والبحث لتسرعوا في نشر تلك الحياة الطيبة حياة من تعتبرونه ليس اخاً لكم في الرهبانية فقط بل اباً روحياً ايضاً ومرشداً اميناً . ولا ريب انكم قد اتكلتم في امركم على عون المخلص . وها هو قد كلل عملكم وآتاكم القوة لتنجزوا

بهمتكم . وها ان حياة الاب بشارة قد طُبعت فقدمتموها لنا فتلوناها وقلّبناها صفحة صفحة حتى اتينا على آخر كلمة منها .

وكيف نعرب عن تلك التأثرات التي شعرت بها النفس لدى مطالعة هذه الحياة الداخلية لا سيما ونحن نعلم سمو تلك الفضائل الكهنوتية والرهبانية المثلى التي تمرس بها خادمه المخلص الامين منذ دخل الرهبانية وتكرس للثالوث الاقدس كانما في معمودية ثانية رحضته من بعض ما يكون قد علق بنفسه الطيبة من غبار الحياة الفانية المتصاعد ذرات من كل صوب وناحية . نطالع فنتأمل ونردّد في سريرة نفسنا ان ما اجمل خدمة الرب منذ الصغر ونتبصَّر ملياً في البهاء السني بهآء النفس البارة فيرتفع الى العلى . نتصفَّح تلك الحياة القدسية فكاننا نتصفح فيها نفسه الورعة فما نتمالك عن ان نقول ما اجملها . وحينئذ تعود الذكرى بخاطرنا الى الايام السالفة ايام كان ذلك الكاهن الجليل والراهب البار يتردد فيما بيننا فنسمعه ونبصره وكأن نفسه المتألقة باشعة الروح القدس تنجلى على ابصارنا وبصائرنا . نرى جمالها الداخلي يتلألأ بشراً على محياه الوضاح المشرق الوجنتين فوق لحية كللها الشيب ببياضه الناصع وما بياضها الا صورة ضئيلة لبياض نفسه الزكية . وهكذا كان يجتمع فيه البشر المتهل الجذاب الى الوقار والخشوع مما يحمل الناظر اليه على مهابته والخشوع المقدس امامه وقلما اجتمع البشر والمهابة في نفس اجتماعهما في نفسه حتى لو

سُئلنا عن تعريف الاب بشارة لقلنا انه بِشر ومهابة ، ابتسام وورع . هكذا عرفنا رجل الله وابن المخلص . نعم عرفناه متأخراً. انما كانت هذه السنون الاخيرة كافية لنستنشق عرف فضائله . ويا حبذا لو كانت معرفتنا له اطول مدى ، وكم كانت رغبتنا عظيمة بان نعيش معه امداً بعيداً ، هكذا عرفناه في حياته وهكذا اختبرناه في مرضه الاخير اذ أُتيح لنا ان نكون ممن اعتنوا به في مرضه الاخير وسهروا عليه احياناً وساعدوه في حاجاته بعد ان امست القوى الطبيعية عاجزة عن مساعدته .

على اننا لا نخفي ان أجمل الصفحات في حياة خادم الله الاب بشارة هي تلك الصفحات التي تبين لنا فضائله السامية . فكررنا قرآتها واعدنا النظر فيها فاذا هي شائقة بليغة على ما فيها من ايجاز لم تتجاوز الفصلين . اجل لقد اجدتم في حصركم الكلام على فضائله عامة وفي اجمالكم الحديث عن اقدسها واسماها تلك الفضائل السامية التي مصدرها الله واليه تعود رأساً . عنيت بها الفضائل الالهية الايمان الحي والرجاء الثابت والمحبة السامية ثم الفضائل الرهبانية الثلاث . وكان احسن ختام كلامكم عن ذلك الاساس المتين للحياة الروحية . اي التواضع الذي عليه يقوم بناء الحياة الروحية . فكل من رغب في ان يزيد هذا البناء ارتفاعاً وجب عليه ان يجعل في نفسه اساساً اكثر عمقاً واشد تمكيناً اي ان يمكن في نفسه فضيلة الاتضاع . ولا ريب ان

الكافل لثبات البناء العالي انما هو اساس متين قوي يحمله ويثبته فيجعله في حمى من عواصف الايام والسيول الجارفة من كرات الدهور . فاذا هو معقل حصين وبناء مكين خالد . اذ لا شبهة في انه اذا توطد الاساس تمكنت اعالي البنيان والتقى طرفاه — كما يقول الفلاسفة — بجامع المتانة والقوة . ان هذا موضوع جلل طرقتموه وبحثتم فيه بايجاز بليغ . والقارئ يستطيع ان يجد كثيراً منه في سائر ما كتبتم من الفصول الجميلة . ففي كل صفحة من كتابكم تظهر اعمال الاب بشارة الصالحة وفضائله الممتازة . ولا عجب فما هذه الاعمال والفضائل الا ثمار ناضجة لحياة روحية داخلية قوية راهنة . فالفضيلة كما تقولون ايها الاب المفضال هي قوة حيوية في النفس لا بد لها من ان تظهرها اختفت وكمنت . بل قد تنفجر مدفوعة الى الخارج بقوة الحب وهل من دافع اعظم ؟ فقد شهد الروح القدس عينه « ان المحبة كالموت .. لهيبها لهيب نار ولظى الرب . المياه الغزيرة لا تستطيع ان تطفئ المحبة والانهار لا تغمرها » فما اعجب هذه القوة التي جعلت القديسين يأتون اعمالاً غريبة (هي اعمال الله في قديسيه) كما سبق القول . وبهذه القوة عينها وصل خادم المخلص الامين الى حياة سامية . وما كان فيه من لظى الرب ولهيب حبه تعالى جعله محبوباً جداً ، جعله حبيب الله وحبيب الناس على اختلاف اخلاقهم وآدابهم . واظن انه لا يمكن ان يذكر مبغض للاب بشارة .

واذا أتيح لنا ايضاً ان نأتي بذكرياتنا الشخصية كما فعلتم انتم امكننا ان نقول اننا أيانَ .ردنا رأينا حب الاب بشارة في القلوب المسيحية . وطالما سمعنا باذننا مديحه في صيدا ودير القمر وغيرهما من البلدان ولا سيما اثناء نيابتنا العامة في هذه الابرشية التي قضى فيها حياته الرسولية ولم يخرج منها .

وكيف يمكن ان ننسى حب تلاميذ المدرسة المخلصية له ذاك الحب البنوي الخاص الشديد . وكم كانوا يفرحون لدى نظرهم اياه نازلاً الى المدرسة لسماع اعترافاتهم . فانه رحمه الله لم يكن ينزل اليها عادة الا لهذه الغاية . فكانوا يحيطون به متهللين جذلين ويخفون اليه والابتسامة على وجوههم وهو ينظر اليهم وكله فرح وابتسام وهزة طرب يظهر ما تكنه نفسه وما يطويه قلبه بكل كيانه الخارجي بيديه المضمومة كفاهما الواحدة الى الاخرى حسب عادته يفركهما فركاً متواصلاً وبعينيه الابويتين اللتين تفيض منهما نظرات العطف والحنان ، بجبينه ووجنتيه المتوردتين حتى بمشيته ايضاً اذ كان يسرع اليهم لقضاء الواجب المقدس واجب الاعتراف والارشاد ، وكم كنا نسر لهذا المنظر الجامع بين مهابة الشيخوخة ولطافة الشبيبة مندمجتين بهذه المشاهد . فكنا بدورنا نطرب كما يسر التلامذة الاحداث ، وهل من دليل اعظم على حب الجميع له واحترامهم قدره ؟

واذ شئنا ان نلج داخل نفسكم الطيبة ايها الاب الوقور

لنعلم الغاية التي قصدتموها في نشر حياة الخوري بشارة رجل الله هذا نجد ان ما توخيتموه في مشروعكم الصعب هو مجد المخلص الذي يتمجد في النفوس التي تقف حياتها على خدمته ، والى هذه الغاية العليا تنتمي وترجع غايات أُخر لا ريب انكم قصدتموها ايضاً واخص بالذكر منها غاية جذب النفوس الى اقتفاء الاب بشارة الكاهن والراهب الحقيقي وهكذا تجذبونها به الى الله. قصدتم ولا ريب ان تهيبوا بالكهنة والرهبان عموماً وباخوتكم المخلصيين خصوصاً لان يسلكوا طريقته في التمرس باعمال التقوى بكل اصنافها وانواعها وما احسن قصدكم هذا! قصدتم ان تبيّنوا لهم ان بين ابائهم نفوساً كريمة طيبة سارت وراء المخلص فوصلت بنعمته الى اوج الكمال والحق وما اجمل قصدكم بنشركم حياة الاب بشارة ان تقولوا لهم ان القداسة لا بد لها من جهاد مدة الحياة كلها. وان لا قداسة بلا ثبات ، وفي هذا المعنى تخطر على البال كلماتكم التي ذكرتموها عن لسان المطران باسيليوس حجار المثلث الرحمات « اذا ثبت هذا الكاهن على هذه الاعمال وغلب الشيطان بهذا السلاح سلاح الصليب والصلاة فلا بد ان يطوَّب قديساً » (فصل ٤٤ ص ١٨٠) احببتم باعلانكم مثال ابيهم واخيهم الاب بشارة المثال العالي للكمال الكهنوتي والرهباني ان تقولوا لهم ان الثبات ضروري للقداسة وان القداسة والثبات ولو انهما مستحيلا المنال بالقوى الطبيعية والاعتماد عليها يُستسهل

الحصول عليهما بنعمة المخلص المقوية على ما قال القديس الرسول بولس « انا نقدر على كل شيء بقوة من يقوينا » ابنتم كل ذلك في حياة الاب بشارة وما اوقع واصدق البيان بالاعمال. فيمكن القول ان خادم المخلص الامين نَهَجَ نَهْجَ الكمال باعماله وعاش عيشة القداسة بفضائله السامية. فهذا قصدكم. فنعم القصد وحبذا الغاية. وهذا ما نرجوه من مراحم المخلص عينه ان يتممه في كل نفس تقرأ حياة خادمه الاب بشارة كما نرجو من المخلص ان يتم ذلك في تلك النفوس بكرامة صفيه وحبيبه صاحب تلك الحياة.

على انه لا يخامرنا ريب ان الخير الذي يحصل عن نشر هذه الحياة جزيل عظيم ليس فقط لنفوس اخوتنا الرهبان المخلصيين فحسب، بل لنفوس سائر الرهبان والكهنة ايضاً. ولا نظنه اقل نفعاً من ذلك للنفوس المسيحية الظامئة الى الحياة الروحية. والذي يشجع ويقوي املنا هذا هو الحاح الكثيرين ممن عرفوا الاب بشارة وسمعوا به في طلب كتاب سيرته وسؤالهم كثيراً عن نشره. نقول ذلك عن خبرة شخصية ثابتة لا تزال تتأكد لنا كل يوم بسماعنا الاسئلة المتواصلة من اخواننا وغيرهم ومن كثيرين من المسيحيين. فكرامة للمخلص وبغية لخلاص النفوس ونزولاً عند رغبة الرؤساء والكهنة واخوتكم الرهبان ورغبة العدد الكبير من المسيحيين واتماماً لرغبتكم وحبكم الخالص للاب بشارة اخذتم في كتابة حياته وقد عنّاكم شديد العناء طلبكم الدقة في ذلك

وتابعتم جهادكم وتلك الغايات السامية نصب عينيكم وهي التي كانت تشجعكم فلم تضعف همتكم ولا فشلت عزيمتكم . وها ان كتابكم خرج جميلاً كافياً في طبعته الاولى . ولم تكتفوا بان تضعوا مؤلفاً كبير الحجم في حياة بطلكم . بل قد بذلتم الجهد ايها الاب الحبيب في وضع طبعة مختصرة او مقتضبة عن الكبرى فحذفتم في هذه المختصرة ما ربما لا يهتم به جمهور القرآء وقد زاد ذلك على اتعابكم اتعاباً .

فليس علينا الا ان نثني على همتكم في رسالتنا هذه التي احببنا ان تكون ديباجة او خاتمة لكتابكم في الاب بشارة . ثم نمحضكم شكرنا لكلما تجشمتموه من تعب وعناء . ونسأل المخلص ان يقويكم على متابعة ابحاثكم عن خادمه الامين وغيره من رجال الطائفة وشهدائها من كهنة وعالميين .

اننا نحثكم على هذا ونصرح لكم برغبتنا هذه التي لا ريب انكم تعتبرونها امراً عذباً على قلبكم لما انتم عليه من الغيرة والحب لمثل هذه الابحاث والاخلاص لطائفتكم وامكم الرهبانية واننا على ثقة انها تعود عليها بالفخر ويتمجد بهذا الله والمخلص .

على انه غير خفي عليكم ان الرهبانية قد تفانت حتى الآن بالذود عن حفظ الطائفة العزيزة وكيانها صارفة ليس اتعاب ولعراق ابنائها فحسب . بل دماءهم ايضاً ثمناً رخيصاً في سبيل

خلاص النفوس المفتداة بدم المخلص . وهي لن تفتأ تتابع سيرها المعهود بعون المخلص الكريم الذي تنتمي اليه بكل فخر متكلة عليه وحده .

وليس لنا احسن ختام من مصافحتكم اخوياً بالرب داعين لكم بالبركات الغزيرة والنعم الوافرة والمخلص يحفظكم لاخيكم

عن دير المخلص الرئاسي
في ٦ كانون الاول سنة ١٩٣٤

الارشمندريت
نقولا برغش
اب عام ب م



ثانياً : مشرفة من غبطة السيد البطريرك الكلي الطوبى للمؤلف :

سجل عـدد الاسكندرية في ٢٨ دسمبر ١٩٣٤
٨ ٤٣

لحضرة الابن العزيز الخوري قسطنطين الباشا المخلصي المحترم
سلام ودعاء وبركة رسولية

تصفحنا بارتياح « سيرة الاب البار بشارة ابي مراد المخلصي » التي اخذتم على نفسكم نشرها بغيرة واهتمام. وكنا قد سمعنا عن ذلك الاب البار اشياء كثيرة جميلة وعجيبة فجاء كتابكم محققاً لما قد سمعنا ولم نكد ننهي مطالعته حتى شعرنا بتأثير الخشوع العميق يملك فؤادنا. وحسناً فعلتم بكشفكم اسرار تلك الحياة الخفية لتكون امثولة حية للاكليروس عموماً يتعلم بها طريقة القداسة بتقديس النفس والنفوس على مثال الاب بشارة الذي حفظ بقداسة ما هو مقدس فتقدس. فنحن بكل سرور نبارك مؤلفكم القيم ونحرض الجميع على مطالعته ونثني على همتكم ايها الابن العزيز لانكم اصبتم المرمى المنشود. وبينما نسال الله تعالى ان يمجد سيرة هذا الاب البار نجيز لكم نشرها لفائدة الجميع مكررين لكم مع الدعاء الابوي والبركة الرسولية.

كيرلس التاسع
بطريرك انطاكية والاسكندرية
واورشليم وسائر المشرق

ثالثاً : مشرفة لسيادة الاب العام من السيد الجليل المطران اغوسطين البستاني الكلي الشرف والوقار :

قدس الاب الحبيب المفضال الارشمندريت اغابيوس نعوم
رئيس الرهبانية الباسيلية المخلصية الكلي الاحترام

بعد اهداء الواجب لكم خالص الحب والاعتبار بلغنا ان احد آباء ديركم العامر يهتم في تدوين حيوة رجل الله المرحوم الخوري بشارة ابي مراد احد ابناء رهبانيتكم المخلصية الجليلة الذي قضى برائحة القداسة في اواخر شهر شباط المنصرم فراقت لدينا الفكرة جداً واثنينا اطيب الثناء على القائمين بتحقيقها لمعرفتنا بما سيكون لها من الحاجة والاهمية في مستقبل الايام وبما ينجم عنها من عظيم الخير والنفع الروحي في هذا العصر الذي ضعف فيه لسوء الحظ روح الايمان وسادت قوة الاعتماد على العقل والطبيعة واشتدت الحاجة الى الامثلة الصالحة . ولما كنا عرفنا الاب بشارة معرفة شخصية واستجلينا عن قرب قداسة سيرته وما زيّنه الله به من الفضائل والمناقب النادرة رأينا من الواجب ان نقول فيه كلمة مختصرة اوحاها الضمير والاختبار .

جاء الاب بشارة بامر الطاعة المقدسة الى انطوش مار الياس لرهبانيتكم الكريمة في دير القمر للمعاونة بخدمة الرعية وما كاد يستقر به المقام حتى اكتسب القلوب بوداعته وملك العقول

بغيرته واجتذب العواطف بمحبته ونال ثقة الجميع على اختلاف الطبقات والمشارب باعماله الرسولية التي تلألأ فيها على الخصوص بتجرده الكامل وتواضعه العجيب وتضحيته المتواصلة في سبيل خلاص النفوس المفتداة بالدم الالهي الثمين .

عرفناه رجل التجرد لانه بالحقيقة تجرَّد عن ذاته وترك ارادته وامات امياله وسلم نفسه بكل قواها لمشيئة الله فكان على الدوام وفي مختلف الحالات والاوقات على اتم هدو وطمأنينة وسلام يعمل بهمة ونشاط وبسلامة النية وفرح النفس وحرية الروح شأن ابناء الله المختارين الذين افلتوا من سلطة محبة الذات ومن قيود شهوات الطبيعة وملكاتها السيئة وتفرغوا من الخليقة باسرها وغاصوا بكل قواهم في محبة الخالق لائذين بجماه الامين حيث لا عاصفة تقلق راحتهم ولا نازلة تزعزع عزيمتهم فكان يعامل الجميع معاملة واحدة دون نظر الى الغنى والفقر او الى الوجاهة والخمول او الى القوة والضعف بل يبذل الخدمة نحو كل واحد على قدر حاجته بمروءة راسخة نادرة ليس فيها أثر للتفاضل والتمييز يزور في كل سبت المقابر حيث يطيل الصلاة عن انفس الموتى والدمع ملء عينيه ويقضي يومياً وقتاً طويلاً في منبر سر التوبة فيقبل اليه التائبون برغبة وثقة لتنقية ضمائرهم من المآثم والادران . وكان كلامه الرقيق الخارج بالوداعة والحق يلج حتى اعماق النفوس فيوقظها من غفلتها ويرشدها الى الصواب وقد

عرفنا كثيرين من استغوتهم الدنيا بزخارفها وانهمكوا في اباطيلها اقامهم من سقطاتهم المريعة واعادهم الى الله بالتوبة الحقيقية. ولا يزال بعضهم حياً يذكر هذا الفضل.

وبعد ان رأيناه مائتاً هكذا عن العالم وعن ذاته لا عجب اذا لم يكن للمال او لقوة المال عليه من سلطان فما ذلك سوى نتيجة طبيعية لذاك التجرد الباطني الكامل. اجل لم يكن للمال شأن عنده فما كان يصل منه ليده كان يجود به باريحية وسرور على المعوزين خصوصاً العيال المستورة شأن القديسين الذين فقهوا كلمة السيد المسيح «الحق اقول لكم ان كل ما فعلتموه مع احد اخوتي هؤلاء الصغار فبي فعلتموه» واذا اراد احد ان يتصدق على المساكين كان يرى في الخوري بشارة الوسيلة الامينة لايصال الصدقة الى المستحقين. فأحبه الفقراء ووجدوا فيه خير تعزية وسلوى في البؤس والشقاء.

عرفناه رجل التواضع: كانت لذة الخوري بشارة في ان يقوم بواجباته الكهنوتية والرعائية بقدر ما يستطيع وتسمح له الاحوال من الدقة والنظام والتهيب والخشوع وان ينزوي بعد الانتهاء منها في قلايته او على الغالب في الكنيسة مختفياً عن العيون كالبنفسجة الوديعة مستغرقاً في مناجاة ربه. وفي هذه الخلوة البعيدة عن الضوضاء يعمل كالنحلة التي بعد تنقلها بين الازهار تلجأ الى خليتها الصغيرة حيث تهيء عسلها الشهي المغذي

المفيد . ولما كانت فضيلة التواضع محبوبة ومحترمة من ذات طبعها فقد كانت الناس تتهافت على تكريمه واحترامه وكانوا يقتربون اليه بدالة بنوية في امراضهم الروحية مندفعين بما يشعرون به في قلوبهم من الثقة بهذا الكاهن الصالح الذي كان يمثل اجمل تمثيل ذلك المعلم الصالح الذي انما « ارسل ليعزي البائسين ويشفي منكسري القلب ويكرز بالسنة المقبولة ويوم الخلاص » وما كان اشد حياءه وخجله عندما كان الناس يمدحون فضيلته او يثنون على عمل من اعماله . فنحن طالما شاهدناه في مثل هذه الظروف وقد علا الاحمرار جبينه مطرقاً في الارض حياء واحتشاماً معبراً في ذلك عن حقارته وعدم اهليته للمديح والكرامة . ومما نذكره انه بعد ان انتهى احد المجامع العامة في دير المخلص العامر وتعينت اصحاب الوظائف الرهبانية التقينا بالخوري بشارة صدفةً في دير القمر وكنا لا نزال في حضن امنا الرهبانية فسألناه مازحين : يظهر ان قد تم توزيع الوظائف في دير المخلص ولم يفتكروا فيك فما قولك ؟ اجاب بابتسامة لطيفة وببساطته المعروفة : شو شايفين فيّ حتى يفتكروا فيّ : عبارة ساذجة بليغة لا يزال صوتها يطن باذننا قالها باسلوب يشف عن اقتناعه الباطني بان ليس فيه ما يستحق الوظيفة . ولا غرابة فهذا جواب بديهي لمَن تعمق في درس نفسه فعرف حقارتها وعظمة الله فكان هو في نظر نفسه لا شيء وكان الله كل شيء . والتواضع اساس راسخ لكل سلام و كمال .

عرفناه رجل التضحية : لم يمارس الخوري بشارة اعمال التقوى والقداسة في حقبة ما من حياته الطويلة او في زمان قوته فقط بل كانت الفضيلة رائده والتضحية رفيقه في كل اطوار حياته فكان يسير كالجبار في طريق البرّ ومراقي الكمال لا يعوقه الحر والبرد ولا تضعفه المشقة والتعب ولا تهوله وعورة الطريق وبعد المسافات ولا تخيفه الاوبئة والامراض ولا تضعفه المحن والتجارب ولا تصده عناصر الطبيعة اية كانت بل كان يقتحم تلك المصاعب بهدو وسكينة وتسليم للعناية الالهية التي كانت تسهل امامه العقبات للقيام بواجباته نحو النفوس العزيزة التي اخذ على ذاته خدمتها الروحية فكان وهو يقيم في انطوش الرهبانية بدير القمر ينزل مشياً على الاقدام الى وادي دير القمر والمزارع بجوارها والمسافة نحو ساعتين فيتلو الذبيحة الالهية ويتمم لاهالي تلك الناحية فروضهم الدينية ويعود الى دير القمر دون اكل وشرب تخفيفاً لاثقاله عن الاهالي وقهراً لجسده فيبقى صائماً على الغالب الى العصر . وقد اتفق ان مرّ في احد الايام على الطريق بين الوادي ودير القمر الدكتور يوسف البستاني فرأى الخوري بشارة وقد انهكه التعب والصوم ملقى على الارض فاركبه فرسه وجاء به الى قلايته في دير القمر . ولم يكن ثقل السنين ليوهن عزائمه في هذا السبيل الشاق بل كنا نراه في هذا الدور الاخير من حياته اوفر نشاطاً واشد عزماً كالجندي الباسل الذي يلمع

لعينيه فجر يوم الانتصار فيزداد جراءة واقداماً في اقتحام المخاطر اذ يعلم ان رأسه اوشك يعصب بتاج المجد والبهاء. وهكذا سار رجل الله في مصاعد الحب الالهي حتى بلغ قمة جبل القداسة بشيخوخة صالحة مثقلة بأجمل الاعمال ومعطرة بأسمى الفضائل .

قضت الشيخوخة ان يستدعيه رؤساؤه الى الراحة فغادر دير القمر تاركاً فيها وفي جوارها وخصوصاً في قلبنا ما يتركه الكاهن القديس من التذكارات المقدسة العذبة اللذيذة التي لا تزول . ولما فاضت روحه الطاهرة في دير المخلص العامر برائحة القداسة في اواخر شهر شباط المنصرم من هذه السنة شاركنا الرهبانية وكل عارفي قدره في الحزن المرضي لله اذ خسرنا فيه افضل قدوة ومثال في التجرد والتواضع والتضحية نفعنا الله بشفاعته وحفظ الرهبانية المخلصية الكريمة وزادها نمواً وازدهاراً في المحاسن والكمالات الانجيلية لتظل على الدوام منارة باهرة الضياء ترسل بابنائها امثال الخوري بشارة اشعة الفضل الى كل مكان لاجل زيادة مجده تعالى الاعظم وخير النفوس .

اغوسطين البستاني

مطران صيدا

بيت الدين في ٦ تشرين الاول سنة ١٩٣٠

رابعاً : مشرفة للمؤلف من السيد كيريوس نقولاوس نبعة مطران صيدا ودير القمر الكلي الشرف والوقار :

لحضرة الاب الفاضل الخوري قسطنطين الباشا ب م
الجزيل الاحترام سلام ودعاء وبركة

طالعنا برغبة وسرور ما نشرتم عن حياة السعيد الذكر الاب بشارة ابي مراد ب م. فذكرتنا تلك الصفحات الحية ما طالما شهدت اعيننا من بينات التقوى الراسخة والفضائل المسيحية السامية والكمال الرهباني الكهنوتي في نفس ذلك الاب الدائم الذكر المثلث الرحمة. وكنا ونحن نتصفح تلك الاوجه كانما نجدّد ذكر الايام الغابرة التي اسعدنا فيها الحظ ان نكون بقربه في سنيه الاخيرة ونعاين امثلته الصالحة ونتتبع سيره اليومي في مدارج القداسة ونضوج نفسه الطاهرة بفيض النعم السماوية الغزيرة .

فاذا كان قصد المؤرخ احياء ذكرى الرجال العظام بسرد تفاصيل عيشتهم اليومية لتحفظ مع كرور الزمن وتصوير ما يتبين من خلال ذلك من مناقب نفوسهم العالية وقلوبهم الكبيرة فيحق لكم ايها الاب الفاضل ان تفتخروا بانكم فزتم بالنجاح واصبتم المرمى . فلقد بحثتم بتدقيق مُعجب عن كل ما يمكن الوصول الى معرفته ولم تثبتوا الّا ما تتيقنون من صحته التاريخية بالشواهد القاطعة والبراهين الاكيدة . وتقصيتم في ذلك كله اثر

عمل النعمة في نفسه البارة فاجتهدتم بالولوج مع القارئ، الى ذلك الكنز الثمين للاستفادة مما فيه من امثلة الفضيلة والسير في مسالك التقوى .

فنهنئكم ايها الاب العزيز الفاضل باتمام هذا العمل المهم لتخليد ذكر الاب ونشر عبير فضائله بين الانفس التقية المتشوقة الى اتباع آثار القديسين ونتمنى لمؤلفكم الثمين ان تتداوله كل الايدي المسيحية لتستفيد منه فضيلة وتقوى وتتنشط الى الاقتداء بسيرة رجل الله والسلوك في مدارج الفضيلة والكمال . وعسى الله ان يجعل هذا الكتاب مدعاة لزيادة نشر صيت رجل الله وتمجيد اسمه تعالى فيه ومقدمة للسعي بادراجه في سجل خدام الله القديسين .

نسأله تعالى ان يكلل مساعيكم بالنجاح ايها الاب الفاضل وان يجزل لكم المكافأة والاجر في الدارين مكررين لكم الدعاء والبركة .

تاودوروس

مطران صيدا ودير القمر
وما اليهما

صيدا ختام سنة ١٩٣٤



†

PAX

VISITE APOSTOLIQUE DES BASILIENS MELKITES

Les Pères Bénédictins Visiteurs ont été frappés, dès leur arrivée au Couvent de St. Sauveur, par les vertus et la vie toute sainte du père Bichara Abou-Morad. Ils ont vu dans les exemples donnés par ce vrai religieux le modèle des Moines, tel qu'ils désirent que le deviennent tous les Basiliens que le St. Siège leur a confiés pour les aider à revenir à l'esprit de leurs Fondateurs. Ces exemples, dont ils ont été les témoins, pendant une année entière, leur ont été tout à la fois un grand encouragement de la Providence, une démonstration de la possibilité de la vraie vie monastique, même au milieu des circonstances actuelles, un secours très puissant aussi par les prières très ferventes que cet ami de Dieu leur a données pour les aider dans leur œuvre difficile. Ils pleurent la grande perte que le Couvent de St. Sauveur a faite en rendant à Dieu cette belle âme dont les exemples étaient une prédication continuelle et un rappel aux grands devoirs de la vie religieuse pour tous les moines qui chaque jour le voyaient au milieu d'eux, miroir vivant de la Règle et de la perfection chrétienne, religieuse et sacerdotale.

Ce qui les a frappés par dessus tout, c'est l'intensité de sa prière qui était vraiment continuelle. Il passait ses journées entières et une partie de ses nuits à l'église, toujours à genoux devant le S. Sacrement, devant l'icone de la Vierge, au pied de la Croix, tout absorbé dans la présence de Dieu, auquel il parlait dans de tendres effusions, même à voix haute, lorsqu'il se croyait seul ou lorsqu'il voulait entrainer les autres à la prière. Lorsque la cloche l'appelait cependant, il obéissait aussitôt, mais sans interrompre son oraison qu'il continuait partout et dont on voyait sans peine la ferveur dans toute son attitude,

soit au Réfectoire, soit aux réunions de la Communauté, soit dans sa cellule, soit même en compagnie de ses frères. Cette intensité de sa prière s'est manifestée surtout dans sa dernière maladie. Même au milieu des plus vives souffrances, son esprit ne se détachait pas de son unique préoccupation et il suffisait de faire devant lui quelque signe religieux, de prononcer quelques paroles de prière, pour qu'aussitôt il devînt comme insensible à tout ce qui l'entourait, insensible même à la souffrance.

C'est ce même désir de Dieu qui rendait aussi son obéissance si complète et si admirable, car c'est bien là encore un des traits les plus caractéristiques de cette vie exemplaire. Soumis aux prescriptions de la vie de Communauté jusque dans ses moindres détails, il donnait à tous l'exemple de l'exactitude et de la fidélité la plus complète. Mais c'était merveille surtout de le voir obéir avec une simplicité d'enfant au moindre mot, au moindre geste de ses supérieurs, même en des choses où l'obéissance religieuse semblait n'être pas en cause : on voyait que chez lui il n'y avait plus de place pour le moindre désir personnel, pour la moindre recherche de lui-même et qu'il avait sacrifié toute volonté propre à la volonté de Dieu manifestée par ses supérieurs. Le simple mot d'obéissance, comme le mot de prière avait sur lui comme un pouvoir irrésistible. Obéissance d'enfant aussi vis-à-vis des divers officiers du couvent lorsqu'ils lui parlaient au nom de son supérieur, vis-à-vis des infirmiers qui le soignaient et à qui il s'abandonnait avec une patience inlassable, vis-à-vis de l'Hôtelier qui venait souvent le déranger dans sa prière pour qu'il se mît à la disposition des nombreux pèlerins qui venaient lui demander son ministère, sa bénédiction, ses prières ou l'absolution de leurs péchés, vis-à-vis même des serviteurs du couvent qui venaient lui transmettre quelque ordre des supérieurs.

Il s'abandonnait entièrement à ses supérieurs pour tout ce qui regarde la vie matérielle et il vivait au couvent dans une pauvreté absolue, ne disposant même pas de ses honoraires de Messes, se contentant d'un seul vêtement, distribuant aussitôt ce qu'on l'obligeait à accepter. Lorsqu'il vivait au monde dans

le ministère paroissial et qu'il se dévouait sans compter au salut des âmes de ses paroissiens, avec un zèle et un succès admirables, il donnait aux pauvres tout ce qu'il recevait, toujours dans les limites de l'obéissance. Sa cellule ne contenait que le strict nécessaire, le tout rangé avec une propreté et un ordre parfaits. Le seul vêtement qu'il avait à son usage était d'une simplicité toute monastique, mais sans aucune tache et aucune négligence. Mais il voulait que les autres fussent bien soignés et eussent tout ce qu'ils pouvaient désirer et il se préoccupait souvent avec beaucoup de délicatesse de savoir si rien ne leur manquait pour le vivre et le vêtement.

Son grand souci surtout était d'aider ceux qui l'entouraient à vivre dans une parfaite pureté de conscience et son zèle était admirable pour faire la guerre au péché. Il se dévouait sans compter, malgré son âge et ses infirmités, au ministère du confessionnal, et au soutien de ceux qui venaient lui demander son ministère. On sentait son âme toute brûlante d'amour de Dieu lorsqu'il exhortait ses pénitents à se repentir de leurs fautes, à en demander pardon, à éviter le péché, à redouter les châtiments de Dieu. Il voulait à tout prix éviter aux autres les occasions de péché et sévissait avec vigueur en particulier contre les modes indécentes auxquelles il attribuait la perte de tant d'âmes. Lui-même, malgré son âge avancé et sa longue habitude de la vertu, ne pouvait pas supporter la vue de ces mondanités. Il avait demandé à Dieu de lui enlever l'usage de ses yeux afin de ne plus voir tout ce que le monde étale actuellement de désordres et de scandales et il avait été partiellement exaucé. Ce sacrifice si douloureux pour lui, puisqu'il le privait de la célébration de la Messe, lui semblait nécessaire pour la paix de son âme.

Dans sa profonde humilité, il redoutait d'ailleurs les responsabilités du ministère et se reconnaissait absolument indigne d'exercer les fonctions sacerdotales. Il se disait pécheur, avec un accent d'une sincérité touchante, et ne comprenait pas qu'on eût si souvent recours à lui. Il souffrait de se voir lui-même l'objet de témoignages de respect et de vénération. Il s'humiliait en toutes choses et poursuivait cet abaissement

de lui-même dans tous les détails de sa vie intime. Tout cela lui était naturel et on ne sentait rien de convenu dans toute sa conduite. Les relations qu'il avait avec le prochain et avec ses frères étaient tout empreintes de simplicité et de bonne grâce. Il se préoccupait de ne faire de la peine à personne et de donner à tous des témoignages d'une affection très délicate et très sincère. La vie auprès de lui était agréable et douce.

Il semble bien que Dieu ait voulu glorifier son serviteur, à mesure qu'il s'abaissait davantage et cherchait à se cacher aux yeux du monde pour vivre plus près de Lui. Le peuple fidèle et beaucoup d'autres étrangers à la vraie foi le vénéraient comme un saint; les prêtres de tous les rites avaient recours à lui comme à un grand ami de Dieu.

Ses funérailles, qu'il aurait voulues très humbles et très ignorées comme toute sa vie, ont été un véritable triomphe et une sorte de canonisation populaire. Tant d'âmes qui lui devaient le retour à la vraie foi ou à la vertu sont venues prier auprès de son corps et le vénérer comme un corps saint : il a fallu même prendre des moyens énergiques pour le préserver de leurs pieuses indiscrétions. Nombreux sont les faits à caractère miraculeux qu'on attribue à son intercession, pendant sa vie et après sa mort.

Nous espérons que Dieu voudra mettre le sceau à son œuvre et donner à ce fidèle disciple et ami du Saint Sauveur la gloire qu'il a promise à ceux qui Le suivraient docilement dans l'humilité et la charité et faire briller aux yeux de tous la lumière et les vertus de cette vie si profondément et entièrement monastique, afin que, en cela comme en toutes choses, IL SOIT TOUJOURS GLORIFIÉ.

P. Benoit Gariador Ab. O. S. B.
visiteur apostolique

S. Guilhem de Lajudie
O. S. B.
visiteur apostolique

F. N. S. Menez O. S. B.
visiteur apostolique

سادساً : من رسالة حضرة رئيس المدرسة الصلاحية لسيادة الاب العام
بتاريخ ١١ نيسان سنة ١٩٣٠

«...Une grâce que la Providence a bien voulu me donner à St. Sauveur, c'est de voir le Saint Père Bechara. Déjà, en 1907, je l'avais rencontré à Deïr-el-Quamar, et j'avais gardé de lui le souvenir d'un Religieux mort au monde et vivant continuellement avec Dieu. Aussi n'ai-je point été étonné de voir l'influence qu'il exerçait sur les âmes et la confiance que les gens avaient en ses prières.. Sainte Thérèse de l'Enfant Jésus disait qu'elle passerait son ciel à faire du bien sur la terre. Je suis bien sûr que le Saint Père Bechara fera lui aussi pleuvoir beaucoup de roses sur la chère Congrégation.. et sur le Séminaire qu'il a bien voulu bénir en ma personne, à mon départ...»

J. Portier



سابعاً : ما كتبته حضرة رئيسة راهبات مار يوسف في صيدا

Le très Révérend Père Bechara religieux Salvatorien a été lé confesseur de nos élèves pendant plusieurs années.

Il était d'une mortification et d'une patience exemplaires; quand on l'apercevait pour la 1ère fois on avait l'impression de se trouver en face d'un saint Curé d'Ars. Tout dans sa personne révélait Dieu.

En été, le bon Père venait célébrer la messe à notre Maison de campagne, dès 5 h. du matin, il était là ... après son action de grâces faite entièrement à genoux ou debout, il reprenait le chemin de la ville pour aller se mettre à la disposition de ceux qui désiraient se confesser.

Le grand esprit de foi qui éclairait la vie de cet humble religieux se révélait dans toute sa personne; une douce et radieuse lumière pénétrait ceux qui avaient le bonheur de l'approcher... c'était l'homme de Dieu ... c'était un saint.

بعد دفن الاب بشارة في ضريحه المعد له جعل الاب العام على طاولة امام الضريح دفتراً كبيراً ليكتب فيه الذين يزورون الاب بشارة في ضريحه اسماءهم وما يحبون ذكره عنه . وفي الحال كتب الذين كانوا قد حضروا جنازه اسماءهم وفي اولهم كتب السيد اثناسيوس خرياطي مطران صيدا بخط يده رحمه الله هذا الدعآء البليغ الحار الصادر لا محالة عن نفس اخذ منها الخشوع كل مأخذ ننقله هنا بحرفه ونجعله ختام الفصل . ولا يسعنا ان نذكر وننقل كلما كتب فيه حينئذٍ وفيما بعد .

ايها الرب القدوس الذي شآء ان يضم الى قديسي فردوسه السماوي عبده وكاهنه الخوري بشارة اخانا في الرهبانية بعد ان جعله على الارض مثال الفضيلة الرهبانية والقداسة والغيرة الكهنوتية أعطنا ان نعيش عيشته ونموت الميتة التي اوصلته الى بهآء مجدك من اقرب السبل واحفظ بيننا روحه الذي كان المحرك الوحيد لجميع اعماله . وهبنا رهباناً و كهنة قديسين على مثاله بجودك العميم ورحمتك العظمى .

† اثناسيوس
مطران صيدا ودير القمر
وما يليهما

في ٢٢ شباط ١٩٣٠

ثم استدرك ما ربما يظن البعض انه تجاوز حد سلطته الى مـا يختص براس الكنيسة الكاثوليكية العام فعلق حاشية على ما كتب قال فيها :

انا حتى صدور حكم الكنيسة المعصوم لا نعلق على ما ننسبه الى المرحوم الاب بشارة ابي مراد سوى معنى وقوة الشهادة ليس الا .

اثناسيوس
مطران صيدا ودير القمر وما يليهما

﴿ الفصل الثالث ﴾

فيما كتبه عنه بعض اصحابه ورفاقه بعد وفاته

بعد ان استأثرت رحمة الله بحياة هذا الاب الفاضل بنقله من دار الشقاء في هذه الدنيا الى دار البقاء والمكافاة له بالخير والسعادة اوعز الاب العام الى الرهبان الذين كانوا في دير المخلص قد حضروا موته واشتركوا بصلاة الجناز على جثمانه ان يكتب كل واحد منهم ما يعرفه عن الراقد بالرب من سيرته واعماله ولا سيما فضائله ليكون من مجموع ذلك ما يساعدنا على وصف سيرته وصفاً تاماً كاملاً يليق بشانه ، فاجاب بعضهم الى ذلك وكتبوا ما تيسر لهم تحريره مما عرفوه عنه من ذلك بالذات . لا بالنقل عن اخرين بالسماع . ومن ثم يجدر بنا ان ننقل في هذا الفصل من الملحق ما كتبه من هذا القبيل بعض اصحابه ورفاقه بامضاواتهم الخاصة مما له شأن خاص . ولنا من مجموع ذلك شهادات تزكية جمة وتكملة مهمة تزيدنا تحقيقاً لما قررناه عنه في كتابنا مما يزيل لا محالة عنه كل شبهة شك من نفس كل مرتاب بحقيقة ذلك بعد ما ذكرنا كثيرين غيرهم ممن نقلنا اقوالهم او اشرنا اليهم بصفة رفاق له . ونجعل في اول ذلك ما كتبه حضرة الاب الجليل افرام حنين الديراني المتقدم بين كهنة الموارنة في دير القمر وقد قضى معه نحو ربع قرن في خدمة نفوس اهل دير القمر بوفاق المحبة والنشاط.

رجل الله

الخوري بشارة ابي مراد ب م

في دير القمر

هو احد رهبان انطوش مار الياس للروم الكاثوليك في دير القمر مثال التقى والورع ، مثال الطهارة والعفاف ، مثال الغيرة الدينية والفضائل السامية .

عاشرته رحمه الله في دير القمر واحداً وعشرين سنة ونيف اذ كنت مدبراً للرهبانية الحلبية اللبنانية المارونية ورئيس رسالتها في دير القمر . وفي كل تلك المدة لم اسمع اين توجهت واني ذهبت الا الثناء العاطر على صفاته والتحدث بكرم محامده . ما نكون في مجتمع او مجلس ويؤتى بذكره الا والكل السنة مدح على برارته وقداسته . كان رحمه الله اذا سمع بمريض يذهب بالحال لعيادته ويؤاسيه بالفاظ كلها عذوبة ورقة ويذكره بامجاد الله . وكثير من المرضى يطلبون من تلقاء نفوسهم الاعتراف وتناول الاسرار الالهية المقدسة عن يديه بالنظر الى ما يرونه منه من التعزية والغيرة الدينية . كثيراً ما شوهد جاثياً على ركبتيه مصلياً الى الله بكل خشوع وحرارة وذارفاً الدموع لشفاء مريض . ولم يكن يتأخر عن اداء خدمة المرضى ولو كان المرض من الامراض الوبائية مضحياً بذاته لمجد الله الاعظم .

هل كان يسمع بفقير بائس الا ويسرع حاملاً اليه ما يخفف عنه وطأة البؤس والفقر . كثيراً ما كان يستندي اكف المحسنين والاغنياء ويذهب بما جمعه لاعالة ومساعدة العائلات الفقيرات المستورات دون ان تدري شماله ما فعلت يمينه .

كان مترفعاً عن حب الذات والانانية . كان لا يعطي يده لاحد ليقبلها : كان

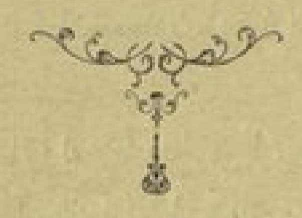
لا يرفع نظره الى النساء اذا كلمهنَّ . كان يقضي جميع اوقات فراغه من خدمة المرضى ومساعدة المرضى وخدمة النفوس جاثياً في الكنيسة مصلياً مبتهلاً الى الله ولو كان ذلك في اشد اوقات الحر والبرد في الليل والنهار .

كان على جانب عظيم من التقشف والزهد . كان يصوم كل نهار سبت حتى بعد الظهر وفي ايام الصوم الكبير كان يصوم حتى المساء . كان لا يتأخر عن الحضور في جميع الاحتفالات الدينية لا يمنعه مانع عن ذلك . ومعا هو عليه رحمه الله من الشيخوخة وكبر السن كان يذهب كل يوم احد وعيد يقيم الذبيحة الالهية في وادي بحلّيه التي تبعد عن دير القمر لا اقل من ساعتين يذهب ماشياً على الاقدام لا يؤخره الحر ولا البرد ويبقى صائماً حتى رجوعه لدير القمر بعد الظهر .

كان قدوة للجميع بسلوكه الحسن وصفاته الكريمة . واني اسأل الله ان يعده في عداد ابراره وقديسيه الصديقين امين .

عن دير القمر في ٢٢ ت ٢ سنة ١٩٣٠

الاب افرام حنين الديراني
الراهب الحلبي الماروني
اللبناني



شهادة بما عرفته عن الخوري بشارة ابي مراد

تعرَّفت بالمرحوم من نحو ٢٣ سنة في دير القمر حيث كان الجميع يقرون بفضله وفضيلته ويحترمون قداسته وكنت أراه دائماً في كنيسة مار الياس راكعاً ومصلياً بحرارة وخشوع وما زالت تلك الذكرى مطبوعة في قلبي حتى اليوم وقد أثرت فيَّ تلك الهيئة الجميلة تأثيراً شديداً حتى انني أخذت باعتبار ذلك الرجل كقديس منذ صباني كما كان يعتبره باقي الناس

على ان ما عرفته فيه منذ ذلك الوقت لم يتغير مع طول الزمان وتوالي الايام. ولذلك لما عاد الى دير المخلص وقد كلّت عيناه عن البصر شاهدت فيه كما شاهد غيري كل صفات القداسة والكمال الرهباني. ففي طاعته كان مثال الراهب الحقيقي الذي يصح ان نقول عنه انه احسن بكل ما صنع واتم جميع قوانينه بالدقة التي تطلب من انسان حتى لا يمكن ان تؤخذ عليه مخالفة . وتجرده او زهده كان يظهر باجلى بيان لانه لم يكن يملك شيئاً الا ما تسمح الطاعة باستعماله . فيمكنه ان يقول انني كنت فقيراً بالروح لا املك سوى الاشياء التي لا بد منها للحياة . أما عفته فقد ظهرت وبانت للاعين في كل حياته ولا سيما ايام مرضه الاخير لانه كان دائماً محافظاً على الحشمة مع ما كان يشعر بالتعب والعياء، وبالجهد كان يسمح لنا بان نساعده على قضاء حاجات نفسه عندما لا يتمكن من الوقوف والجلوس .

واما باقي فضائله فحدث عنها ولا حرج فلم نسمع انه فاه بكلمة في حق احد من الرهبان او الاكليروس او العالمين . انما الشيء الوحيد الذي كان يتشكى منه هو ان بعض الرهبان يعجلون في صلواتهم ولا يُفهمونها له (لانه كان ثقيل السمع)

روح الاماتة كان حائزاً له تاماً فنظره كان مضبوطاً . ولذة ذوقه كان قد اماتها منذ صغره ولذا كان يخلط الاطعمة التي يتناولها ببعضها ويأكل بقابلية

دون ان يبدي حركة اشمئزاز . وكان يتناول من كل ما يقدم له دون ان يطلب شيئاً خصوصياً .

روح الصلاة والاتحاد مع الله لا يعلم قدره معه الا الله وحده لانه كان يقضي كل اوقاته بالصلاة وبمناجاة حبيبه يسوع في سر القربان المقدس فكنت تراه في الكنيسة يحرك راسه ويتخشع وينادم محبوبه بما يوحيه اليه قلبه النقي .

هذا ما اعرفه عن الخوري بشارة قبل مرضه . اما في مرضه فاليكم ما اتذكره وهو قليل من كثير : مساء الثالث من شباط نحو الساعة السادسة ونصف قبل ان يذهب الرهبان الى القراءة الروحية وبعد الجرس الاول كنت في ممشى الرهبان الشرقي فسمعت انيناً فتوجهت حالاً نحو الصوت فاذا هو صوت الاب بشارة فدخلت الى غرفته ووجدته يتقلب على سريره ويئن من وجع شديد المّ بجنبه . وكان حضرة الاب يوسف صابونجي سمع ذلك قبلي فأسرع وأحضر له قليلاً من العرق فشرب ولم يسترح . وبقي يتقلب نحو نصف ساعة هدأ بعدها الوجع قليلاً . ثم عاوده بنوبة أخف من الاولى . ثم سكن هنيهة وبعدها عاوده بنوع اشد من الاول والثاني وبقي على تلك الحال الى الساعة الثانية عشرة ونصف بعد نصف الليل التي فيها حضر الطبيب حنا الحداد من صيدا وحقنه بابرة « كافور » استراح بعدها وسكنت اوجاعه . وكان الرهبان في هذه المدة يتردّد اكثرهم الى غرفة المريض لان النعاس كان تشرّد عن اجفانهم لنظرهم ما جرى للأب بشارة

قلت ان الاب بشارة كان يئن ويتقلب على فراشه . ويقوم ويقعد لكنه في كل ذلك الوقت الذي فيه تشتد النوبة عليه لم يخرج من فمه كلمة تذمر او تمرمر على الله او على الاوجاع . لا بل كان يصدر افعال ايمان ورجاء ومحبة وثقة بالباري تعالى ويردّد صلوات سهمية كثيرة كان قد تعودها وعلمها غيره كقوله : « اني أشرك آلامي مع آلامك . بين يديك استودع روحي . يا أم المعونة الدائمة عينيني . ارادتك يا الله فلتكن . اني اريد ان اموت برضاك . ليكن

اسم الرب مباركاً » . وصلوات غيرها كثيرة لم اعد اذكرها . ولما شعر ان المسألة حرجة وخطرة طلب الحلة ومسحة المرضى . ولما دهنه بالزيت المقدس الخوري انطون كيورك وانتهى قال ماذا يبقى لي من الواجبات اعطوني اعطوني كل شيء . لا تنسوا شيئاً .

وقبل ان يأتي الطبيب سمع من الحاضرين انهم يريدون ان يستدعوا طبيباً من صيدا فقال لهم لا حاجة الى طبيب . انه لا يعمل شيئاً . ولما حضر الطبيب وفحصه قال ناولوه عشاءه ودعوه ينام لانه تعبان .

بعد ان كان الامل ضعيفاً جداً ببقاء المريض في الحياة الى الصباح انتعش وتقوى وأخذ قلبه الذي كانت نبضاته قد ضعفت وانذرت بدنو ساعة الموت ينبض نبضات تبشر بالحياة والصحة وعندئذ طلب من الحاضرين ان يتلوا له صلاة الفرض . ومنذ ذلك الوقت ماوحت غرفته الصغيرة معبداً للرهبان يقيمون فيها الصلاة بالاشتراك مع تلك النفس البارة . وقد اسعدني الحظ بأن اكون من الذين كانوا يواصلون الصلاة عنده والسهر نهاراً وليلاً وقد كنت اشعر بنفسي بعاطفة غير اعتيادية وخشوع ومحبة للصلاة وتقدم في حالتي الروحية .

ومن جملة ما قاله لنا في الليلة الاولى من مرضه اذا متُّ فإياكم ان تستدعوا احداً لان الناس يظنون انني تقي ولكنني عارف نفسي انني اكبر الخطأة . الويل لكم اذا قال الناس عنكم حسناً وانتم لستم كذلك .

ولما انتعش وتقوى قليلاً بالعناية المتواصلة نهاراً وليلاً وشعر انه قوي مع ضعفه احب ان ينام وحده لكي لا يزعجنا فتركناه مدة ليلتين . وكان في النهار يخرج الى الشمس غير انه في اليوم الثالث انتكست صحته وعاوده الوجع بنوع شديد جداً . ومنذ ذلك الحين لم نعد نفارقه لا ليلاً ولا نهاراً الى يوم وفاته مع انه كان منذ اول ليلة يلحُّ علينا بأن نذهب فنرتاح .

وعندما كان يشعر ان حاجاته الى المساعدة كثيرة ويظن انه ثقّل علينا كان يقول قد اتعبتكم فسامحوني الله يؤاجركم . الله يرد عنكم . الله يكافئكم .

ان النفوس الكبيرة تبين يوم الشدة وزمان الضيق . ونفس الاب بشارة لطهرها كبيرة لانها صبرت على الاوجاع واحتملت الآلام بثبات وعزم لا يعرف الضجر وكانت في ابان تلك الاوجاع هادئة ساكنة ترتفع بالفكر والقلب نحو الله وتشرك اوجاعها مع اوجاعه على الصليب .

الجسم الكليل الهابط القوى يطلب الراحة والسلوة لانه يشعر بانحلال عزائمه فلا يمكنه ان يحصر قواه طويلاً بالصلوات الكثيرة اما الخوري بشارة فلم يكن جسمه يطلب الراحة بالتعزيات الخارجية بل كان يجد لذته في الصلاة ومخاطبة حبيبه . ولا عجب فانه قضى حياته في الصلاة وفي الاتحاد مع يسوع وكانت اشارته الاخيرة التي ابداها قبل مفارقته هذه الحياة طلب الصلاة بنوع متداوم . ولم يكن يقنط منها ابداً او يضجر ودليل ذلك هو انه كان يبدي عند الصلاة كل ارتياح وكل سرور وكان يجهد نفسه ولا يتحرك كما كان يعمل في باقي الاوقات . وكان يصغي ويشترك معنا على قدر مكنته وكان يتبين للحاضرين ان الاب بشارة في وقت الصلاة هو غير الاب بشارة في سائر اوقات مرضه وما ذلك الا دليل محبته لله وقمعه لجسده المتعذب .

وقد كان يشرق وجهه ويشع نوراً عند الصلاة وبعض المرار كان يتبسم كأنه يخاطب يسوع وجهاً لوجه . ولم يكن الاب القديس يكتفي بالصلوات الكثيرة المتوالية التي كانت تتلى في غرفته بل كان يصلي في داخل نفسه ولذا كنت ترى شفتيه دائمتي الحركة وكانت تبسماته في الصلوات الفردية تتوالى مراراً او دائماً .

ولما كنا نشعر انه تعبان كنا نردد له بعض صلوات سهمية مثل التي كان يردّدها او نصلي له طلبة العذراء . او قانون المديح او يسوع الحلو او الباركليسي او بعض مزامير خشوعية كمزامير التوبة التي يطاب تلاوتها .

قبل آخر يوم من وفاته اسعدني الحظ ان اقضي عنده معظم النهار وكنت في تلك الساعات اصلي له قوانين السواعية واردد له صلوات سهمية

كثيرة . وطلبت اليه ان لا ينسى الذين تعبوا عليه فرفع يديه وعينيه الى السماء وتمنى لهم كل خير ثم تركته مسآء. ولم اعد اراه الا وهو على سرير الموت .

هذا بعض ما امكنني تذكره عن حياة هذا الرجل البار وهو قليل من كثير وانني ارجو من الله ان يريحه في اخداره السماوية ويرتبه في مدرج القديسين حتى يتمجد اسمه القدوس ويعلو اسم الرهبانية المخلصية التي لم تخلُ في كل زمان من رجال اتقياء يشفعون بها عند الباري تعالى ويطلبون لها من المخلص الكريم كل تقدم روحي وزمني

دير المخلص ٢٨ شباط سنة ١٩٣٠ — الخوري جورج غبريل ب م

ما كتبه عنه أول رفيق له بالابتداء والمدرسة الرهبانية

جُلَّ ما اذكر عن يقين بانه منذ دخوله الرهبانية ظهرت عليه سمات الرصانة والسكوت والاحتشام والتقوى حتى حملت هذه الفضائل رجل الله الخوري يوسف غنام زائر دير السيدة دير الابتدآء والاب العام بان يعهد اليه رعاية المبتدئين في دير السيدة وفي المدرسة . وكان رحمه الله انيس المعشر مهذب اللسان صافي القلب مثلاً صالحاً للجميع . ولهذا كان يستأسر قلوب التلامذة الرهبان فكانوا كلهم يحترمونه

ثم اذكر امراً لا يمكن ان تمحوه السنون بان أخرج من الغرفة بعد نصف الليل . فدهشت عند نظري الاخ بشارة راكعاً امام باب الكابلا مشبوح اليدين يصلي كأنه مخطوف بالروح . . .

ليفورنو ٢٩ كانون الثاني ١٩٣١ — الارشمندريت يوسف شلهوب ب م

اجابة لرغبة رئيسنا العام الارشمندريت اغابيوس نعوم الكلي الاحترام اكتب انا الموقع اسمي ادناه ما عرفته وشهدته من اعمال الخوري بشارة ابي مراد

قد شاهدت في هذا الكاهن مدة ثلاث سنوات تقوى عظيمة. فقد كنت اراه دائماً في الكنيسة مصلياً بكل حرارة نفسه ومظهراً علامات تخشع غير اعتيادي ومرات كثيرة عندما كنت آتي لزيارته اراه راكعاً في غرفته وهو يصلي بكل حرارة نفسه ، وقد ظهرت تقواه في كل مظاهرها في مرضه الاخير فكانت الصلاة لا تنقطع في غرفته وهو كان يطلب من الحاضرين ان يصلوا امامه فقد صليت امامه لا اقل من اثنتي عشرة مرة بيوت قانون المديح وطلب مني ثلاث مرات ان اصلي له مزامير التوبة . وصليت له مراراً قانون يسوع الحلو وقانون الملاك الحارس . ولم اسمعه قط متشكياً او متمرمراً او متضجراً من شيء ، غير انه قد نبهني ثلاث مرات ان اقرأ في الكنيسة على مهلي وارفع صوتي قليلاً وذلك لان سمعه قد ضعف في آخر حياته .

ولم يذهب قط الى النزهة كما هي عادة الرهبان بعد صلاة الغروب بل كان يقضي نزهته امام القربان المقدس لذة نفسه الوحيدة . وقد كان مواظباً على الحضور مع الجمهور في الكنيسة والمائدة وقاعة القراءة الروحية وفي كل مكان ولا سيما في الكنيسة وقاعة القراءة الروحية . كان يصغي بكل قوته بحيث انه كان دائما يضع يديه وراء اذنيه كيلا تفوته ادنى كلمة . وقد قضى نحو سنة كاملة ونيف يخدم القداس بخشوع وتهيب لا مثيل لهما .

وقد كان محتشماً في نظره ولبسه وجميع حركاته وقد مارس فضيلة الصمت ممارسة عجيبة فلم يكن يتكلم لا عن ذاته ولا عن غيره .

وبما اني قد ساعدته في انفاسه الاخيرة اذكر ميتته المقدسة بتفصيل : الساعة الخامسة من صباح ٢٢ شباط سنة ١٩٣٠ قد ذهبت لغرفته فوجدت هناك الاب انطون كيورك يصلي المسبحة فأردت ان اغلق الشباك فقال لي الاب

المذكور اتركه مفتوحاً لانه اوفق لراحته · وبعدئذٍ اتى الاب داود الخوري · واخذنا ثلاثتنا نصلي السحرية الى القانون · ثم ذهب الابوان انطون كيورك وداود الخوري ليقيا الذبيحة الالهية وبقيت وحدي عنده · وقد قال لي الاب انطون : كن منتبهاً لاعطائه الحلة الاخيرة لان حالته خطرة · فجلست امامه وسمعته يتنفس تنفساً شاقاً غير مألوف (حشرجة الموت) · ولعلمي انه يسرُّ كثيراً بتلاوة ابيات المديح اخذت اصلي له الابيات الستة الاخيرة من المديح · وفي نصفها رفع يده بسرعة ورفع طاقيته عن رأسه ثم اسند يده عليَّ فأخذت من يده الطاقية ووضعتها على حافه ووضعت يده عليها وامسكته بيدي ونظرت اليه فرأيته انه قد انتبه باصغاء للصلاة فاستأنفت ما بقي من ابيات المديح · ولما لاحظت انه يريد ان اصلي له ايضاً وانه شديد الانتباه للصلاة بدأت اصلي الابيات الستة الاولى من المديح وعيني تتردد بين النظر الى الكتاب والنظر الى وجهه · ولما وصلت الى البيت الثاني اقبل سيادة المطران اثناسيوس خرياطي مطران صيدا ودير القمر فوقف ينظر الى وجهه ثم قال لي سيادته : كيف حاله فأجبته ان حالته خطرة ثم اكملت الابيات الستة · فسأله سيادته عن صحته فعمل له اشارة صليب على صدره كأنه يقول له صلِّ صلِّ فبدأ سيادته الابيات الستة الثانية من المديح ووقفت انظر الى وجهه فرأيته يلمع وفتح عينيه جيداً ثم نظر الي قليلاً ورفع نظره الى السما. فأمرني سيادة المطران ان آتيه بالخولوجيون فأسرعت وأتيت به وحينئذٍ قال المطران للاب بشارة: اني اعطيك الغفران الاخير فأشار بالقبول · وبدأ به وهو بغاية الانتباه ثم ذهبت واخبرت الرئيس العام الذي كان بالكنيسة ان حالته خطرة جداً فأتى ودخل عليه وبعد دقيقتين لفق لفقة · فقال الرئيس خلص انتهى الامر · فقال له سيادة المطران أعطه الغفران الاخير فأعطاه اياه وفيما هو يختم الصلاة لفق لفقة ثانية واسلم روحه الزكية بيد خالقه بكل هدوء وسلام · ثم رشه سيادته بالماء · واستدعيت الابوين غريغوريوس حوراني وباسيليوس شاهين فألبساه ثيابه ثم اغمض سيادته عينيه

والابوان غريغوريوس الحوراني وموسى الكايد اطبقا فمه . واذ لم يكن بعد قد ابتدأ القداس اتى جمهور الرهبان من الكنيسة وصلوا على جثانه ثم اخذوه الى الكنيسة وابتدأ القداس الذي قدمه جميع الكهنة لراحة نفسه وحضره جميع تلامذة المدرسة . وبعد القداس تلوا على جثانه صلاة النياحة ومساء صلاة الجناز لراحة نفسه الطاهرة .

الخوري ميخائيل المقدسي ب م

دير المخلص في ٢٨ شباط سنة ١٩٣٠

رسالة رفيق قديم في المدرسة الرهبانية

تقبلت رسالتكم التي فيها تستفهمون عن تأخير سيامة الرجل القديس والكاهن المفضال الخوري بشارة ابي مراد عن رفقائه تلامذة مدرستنا المخلصية الذين قبلوا السيامة دونه . فاقول انه رحمه الله طلب من رئيسه الخوري يوسف غنام بكل تذلل ان يعفيه من السيامة برتبة الشماسية والكهنوتية او على الاقل ان يؤجل الامر بذلك ليستعد الاستعداد الحسن لقبول هاتين الدرجتين المقدستين . وبعد رفض قبول ملتمسه سمح له الرؤساء بتأجيل السيامة الكهنوتية الامر الذي عده نعمة من فضل الرؤساء . وكان هذا التمنع متأتياً حسب زعمه من عدم اهليته لهذه الدرجة السامية . وفي كل فرصة ملائمة كان يفيض بالشرح عن واجبات هذه الدرجة وقداستها بالترفع عن الارضيات والتأمل الدائم في السماويات وكان يذكر الدينونة الشديدة لمن لا يكون كاهناً حقيقياً الى ما هنالك من الحديث الشائق عن تواضعه العميق وعن معرفته حراجة موقف من يتقدم الى درجة الكهنوت المقدسة . ولم يكن يتغافل عن طلب ودرس الكتب التي لها علاقة بوصف قداسة الكهنوت وكل ما يتعلق به من الفضل والصلاح .

ولسبب ذلك اجمع صفنا اثناسيوس صباغ واغناطيوس خياطي وجبرائيل نبعه وفلابيانوس مطران لما أمرنا بالتقدم الى درجة الكهنوت بان نطلب الاعفآء من الرسامة نظراً لما كنا نسمعه من كاهننا القديس عن حراجة هذا الموقف المخيف . وعندما دعته الطاعة ثانية للتقدم الى درجة الكهنوت نظرنا فيه الخوف الشديد ووقتئذ اخذ بالصلاة الحارة ليلاً ونهاراً الى الله ليقيه مما ربما يكون سبباً لهلاكه الابدي . وبعد ذلك أُقنِعَ فأطاع وأُمر فتقدم الى مائدة الرب واقتبل الجوهرة الالهية بعد وضع اليد على هامته المعدة من الله لعمل الصلاح والخير .

وعقيب سيامة هذا الكاهن الصالح شرع بتقديم الذبيحة الالهية على منوال غريب في بابه من الخشوع فكنا نراه كأنه ملاك سماوي لا انسان ارضي . وكان غير متحرك على درجة الهيكل الالهي رافعاً يديه الى السماء وشاخصاً بنظره نحو العلا . يناجي من هو موضوع محبته ويخاطب ملائكة السماء . وسكان البلاط الالهي تالياً صلوات الخدمة الالهية بخشوع دونه كل خشوع وكانت هذه الصلوات كأنها سهمٌ حارٌ يخترق فؤاد كل من الحضور . ولا خفاكم ايها الحبيب ان هذه التقوى النادرة لم نرَها الا في هذا الانسان وكانت تؤثر فينا غاية التأثير . وكنا نراه في وقت القداس كأنه مرتفع عن الارض وكنا كأننا عند المناولة الالهية من يده المقدسة لا نشعر بنفوسنا اننا ارضيون من مزيد الخشوع الذي كان يمازجنا في تلك الآونة . وقد كنتم بصحبتنا في ذلك العهد وهذا امر لا تجهلونه ايها الحبيب .

تقبلوا اخيراً الاشواق والدعآء. يحفظكم — اخوكم

الخوري بطرس خرباطي ب م

صور ٢٥ آب سنة ١٩٣١

انا الموقع ادناه الخوري استفانوس الياس بم وكيل الضيوف في دير المخلص والموكل على توزيع الخرج امتثالا لأمر الطاعة اكتب ما شاهدته بأم العين وعرفته بنفسي عن المرحوم

الخوري بشارة ابي مراد الراهب المخلصي

الراقد بالرب في رائحة القداسة في دير المخلص (قرب صيدا)

١ ـ في حياته

معرفتي به لاول مرة : اسعدني الحظ بان تعرفت عليه سنة ١٩١٩ في اواخر شهر آب حين مررت بدير القمر كعابر سبيل مع احد الاباء ب م وكان اذ ذاك لي من العمر ١٥ سنة ، واذ نزلت في الانطوش كنت دائماً اشاهد الاب الجليل المذكور في الكنيسة . وكنت اشترك معه في الصلاة . وكان يطلب مني ان ارتم له واتذكر جيداً اني رنمت له بيوت المديح . وكان صيت قداسته ذائعاً وهي لا تزال حقاً كذلك . وقد شاهدت ذلك بام العين في السنين التي قضيتها في مدرسة دير المخلص ، ثم في دير المخلص خصوصاً وانا كاهن فيالسنتين الاخيرتين من عمره

تجرده : كثيراً ما كنت الجأ الى الحيلة كي افصل له ما هو لازم من الثياب . وكل مرة اعرض عليه شيئاً كان يقول لي بلهجة خاصة : لا حاجة لي بذلك . ولماذا هذا ؟ هذا غير موافق للروح الرهباني .

قبل ان يمرض بقليل كان عنده في الغرفة ديوان صغير . فقال لي يوماً ارغب

ديواناً اصغر او سحارة لان الديوان الكبير يضايقني خصوصاً لان نظري قد ضعف في هذه الايام . فالتزمت اجابة لرغائبه ان آخذ له صندوقاً بسيطاً مربعاً ، ووضعت عليه طراحة . وهذا الصندوق (السحارة) لا تزال في غرفته . وبهذه الواسطة كان مسروراً جداً .

كل غرض كان يستغني عنه كان يجلبه لي ويقول خذ هذا يا ابانا لاني لا احتاجه . وهكذا حفظت هذه التذكارات الثمينة عندي باعتناء وبعد مماته سلمتها لسيادة الرئيس العام .

طاعته : كثيراً ما كنت اعرض عليه بعض اشياء ، وعندما كان يرفضها كنت اقول له يا ابت سأزعل منك واشكيك لسيادة الرئيس العام . فكان للحال يأخذ بالاستغفار كانه مذنب ويطرق برأسه الى الارض ، وبعد ذلك يأخذ ذلك الغرض والابتسامة على شفتيه ، فاركاً يديه كما كانت عادته .

حرارته في الصلاة : لما كان احد الزوار يطلب الاب بشارة الجليل كنت اذهب بذاتي افتش عنه . ودائماً كنت اجده في الكنيسة وخصوصاً في السكرستيا في الجهة القبلية وفي يده الصليب يخاطب المصلوب بلهجة قوية .. وتارة كنت اشاهد بين يديه كتاب تأملات حاصراً فيه نظره الذي ضعف كثيراً ومحازاً برأسه غارقاً في بحر من التأملات غير منتبه الى من يمر به او يأتي نحوه . وتارة كنت اجده في معبد القديس انطونيوس مختبئاً خلف القرّاءة راكعاً ورأسه مطرقٌ الى الارض ، واخرى كنت اجده يصلي في قاعة الرئاسة وهي قاعة الاستقبال الرسمية في الدير .

تواضعه وهربه من مشاهدة العالم : حين كنت اخبره بان بعض الزوار يريدون ان يشاهدوه كان يحزن . خصوصاً اذا دُعي الى دار الضيوف . وقبل ان ينزل كان يسألني هل ابونا العام طلبني ؟ وهل قال لي ان انزل الى الدار؟ ماذا يريدون مني ؟ ولما ينزل كان يجلس بعد السلام وعيناه الى الارض .

كنت وضعت بإيعاز من الرئيس العام اعلاناً (ممنوع الدخول) امام مدخل حصن الدير ، ولما كان يسمح لاحد الزوار آتياً من بعيد بالذهاب الى غرفته وقت انحراف صحته البسيط لينال البركة منه كان يقول لي لماذا وضعت هذا الاعلان ؟ فكيف الناس يأتون عندي ؟

•

غيرته على خلاص النفوس : لما كان يأتي ضيوف الى الدير كان دائماً يسألني هل تكلمت معهم في موضوع الاعتراف والتناول . وكم كان سروره شديداً حين كنت اخبره ليذهب الى كرسي الاعتراف لاجل اولئك الزوار . وهو كان يدعو ويحمل كثيرين على اتمام هذا الواجب . اما كيفية اعترافه فحدث عنها ولا حرج ، وكثيراً ما سمعت الضيوف يقولون لي : اننا حاسدون جمهوركم على هذا الاب الجليل . فلم نرتح ، ولم نعترف نظير هذا الاعتراف .

مرة اتى شابٌ من بلدٍ بعيدٍ من انسباني كزائرٍ ، وقد حملته على الاعتراف فاعترف عند الاب بشارة الجليل ، ولما انجز اعترافه قال لي يا ليت كل الكهنة يعرفون نظير هذا الشيخ الفاضل ، ثم مرت سنة واذا بذلك الشاب آتٍ كعادته ليزورني مع احد اقربائه . فلما نزل من الاوتوموبيل ابتدرني بالسؤال مع السلام هل ذلك الشيخ الجليل الذي يقضي اوقاته وحياته في الكنيسة لا يزال في الدير فاني اريد ان اعترف عنده ، وقد انتظرت فرصة مجيئي الى الدير كي اعترف عنده ، ولهذه الساعة لم اعترف عند غيره من تلك السنة . لانه نادرٌ جداً ان نرى كاهناً يعرف مثله ويريح ضمير المعترف .

كثيراً ما كنت اشاهده يقرّع السيدات اللواتي يلبسنَ الثياب القصيرة حتى الطفيفة .

٢ ــ في وقت مرضه الاخير

٣ شباط الى ٢٢ منه سنة ١٩٣٠

تواضعه ومحبته للقيام بحاجاته بنفسه: نهار الاثنين في الثالث من شهر شباط سنة ١٩٣٠ مررت امام غرفته فوجدته يخرج فراشه للشمس فقلت له يا ابت لماذا تعني نفسك ؟ اني مرسل لك خادماً في الحال يعمل لك ما تريد فأجابني « ما عليش . لا تحرز » . وبعد برهة بعثت باحد الخدم فكنس له الغرفة وعمل له ما اراد . وبعد الظهر بقليل مررت امام غرفته فوجدته يدخل اغراض غرفته من كرسي وسحارة ذكرت سبب وجودها في غرفته الخ . . . فقلت له يا ابت لا تجهد نفسك انتظر قليلاً وسأرسل الخادم بعد وقت لانه مشغول في المائدة ثم ذهبت الى شغلي .

بدء مرضه : الساعة السادسة والنصف من مساء الاثنين شعر بالم واخذ في الازدياد وقد مررت بالعرض امام غرفته فسمعت جلبة فيها . فهرعت ودخلت وقد وجدت بعض الاباء الرهبان يحتاطونه . وللحال جلبت قليلاً من الماء السخن ووضعتها في كيس من الكاوتشوك ووضعته محل الوجع . فهدأ قليلاً : انما لم يحتمل ذلك الكيس فرفعته عن موضعه . غير انه بعد مدة عاوده الالم ، واخذته نوبة قلبية صار بسببها يتقلب من جهة الى اخرى على فراشه ويقوم ويقعد على التخت . وكنت والاب موسى كايد ب م امسكه وكان تارة يضرب برأسه صدري ويتكي عليّ ويمسك يدي بيديه بقوة . وطالت هذه الحالة كثيراً ، وبقينا مع رهط من الاباء الرهبان ساهرين علية حتى الصباح . وقد ارسلنا وراء طبيب من صيدا ، فوصل الطبيب حنا الحداد الساعة ١٢ ٨ ليلاً . فعمل له حقنة في الجلد مقوية واعطى له دواء عمله في فرمشية

الدير فارتاح المريض وكان في هذا الوقت يطلب بالحاح: ان صلوا لاجلي امشحوني اعملوا لي واجباتي ، اعطوني الحلة . فاتممنا رغائبه .

تواضعه : صباح اليوم الثاني في ٤ شباط زرته ، وفي سياق الحديث قلت له يا ابت بشارة ماذا عملت لي امس ؟ وكم ضربة ضربتني ؟ فاجابني خجلاً صحيح ؟ واطرق بعينيه الى الارض وقال لي « سامحني » فقلت انا اضحك معك

ثم قال لي يوماً في وقت مرضه الاخير « يا ابانا اذا متُّ لا تخبروا احداً لئلا يظن الناس اني رجل مهمٌ »

وحين كنت اخبره ان فلاناً آتٍ لزيارتك كان يحزن ويقول « الله يرحمنا » .

حبه للقربان الاقدس : اسعدني الحظ ان ناولته مرات كثيرة وقت مرضه وكان ذلك دائماً بعد منتصف الليل بقليل ، وقد لاحظت مرة عليه صعوبة البلع فصغرت له الجزء المقدس وعندما ادخلته في فمه لم يشعر وقد ابقى فمه مفتوحاً ، واذ ذاك قال لي هل وضعت الجزء المقدس ولما اجبته بالايجاب قال لي بقلب كسير وحزين : لماذا صغرت لي القربان الطاهر هكذا ، وبعد ذاك غرق في بحر من التأملات ، وكان يغسل الحق دائماً بذاته ويشرب الماء بسهولة .

حرارته في الصلاة والتعزية التي يشعر بها : لاحظت بعيني ان هذا الاب الفاضل كان يهدأ وجهه عند تلاوة الصلوات وخصوصاً عند الترنيم ، ولذلك كنت ارنم له بضع قطع مثل : « انني اشاهد خدرك » (اكسابستلاري الختن) « وطروبارية الختن » (ها هوذا الختن . . .) ، واليوم علِّق على خشبة ، وبيوت المديح . والباراكليسي وطروبارية البشارة ، وافتح لي باب التوبة وما شابه ذلك . وفي هذا الوقت كنت اراه هادئاً يهز رأسه ويتبسّم ابتسامة الملائكة وعند ما كنت انجز ذلك كان يرفع يده على راسه مرتين او ثلاثة علامة الشكر .

مرة كنت عنده واذا به يقول طلبة العذراء. فأخذت اجيب عليه الى ان انجزها كلها . وكثيراً ما كان يطلب ان تقال له هذه الطلبة ، وقد طلبها مني ايضاً . وهو يسمع ويجيب في قلبه بكل خشوع . وكما كان في حياته لم يمل من الصلاة والتاملات ، هكذا لم يملّ في وقت مرضه ، واذا سكت القائمون بخدمته اخذ هو يصلي مسبحته ، ويرسل نوافذ وعواطف حبه للفادي الحبيب ولوالدته ولجميع القديسين .

وقت مرضه اتى لزيارته الخواجا وديع الرامي من فالوغا كي يباركه ويصلي لاجله لنيل مولود فسمعته يصلي بحرارة وبصوتٍ حنونٍ وقلبٍ ملتهبٍ حتى ان الشخص المذكور الجاثي اخذ يبكي لشدة تاثره وقد ارسل الرجل المذكور جورج افندي حيمري سكرتير رئيس الجمهورية . وقد نال جورج المذكور قبله مولوداً بشفاعات وصلوات الشيخ الجليل الخوري بشارة بعد سنين كثيرة من اقترانه .

محبته للقريب : كثيراً ما كان يرجو من الساهرين عليه وقد قال لي ذلك ايضاً ان يذهبوا الى النوم ولا يتعبوا نفوسهم بالسهر عليه .

ولما عرف اننا طلبنا الطبيب لمعاينته قال . لماذا ذلك ولماذا تتعبونه . ولما حضر قال له « اتعبوك يا دكتور الله يؤاجرك » : وهذه الجملة كثيراً ما كان يقولها للخادمين والساهرين عليه . وبعد ان ذهب الطبيب قال لي : هل قدمتم له ليأكل هل اعطيتموه اجرته

قبل ان يرقد بالرب بيوم واحد في ٢١ شباط كنت عنده فقلت له يا ابت باركني كي يوفقني الخلاص واكون راهباً اميناً في خدمته واموت ميتة صالحة . فرفع يده بتأنٍ زائد وباركني واذ ذاك قبلت يديه . ثم طلبت منه ان يبارك امي الرهبانية واهلي وذويّ فهز رأسه . الخوري اسطانوس الياس ب م

٢٦ شباط سنة ١٩٣٠ .

فضائل

الاب بشارة ابي مراد

نزولاً عند رغبة ابينا العام الفائق الاحترام الارشمندريت اغابيوس نعوم في اظهار ما اعرفه عن رجل الله الاب بشارة ابي مراد اقول والشاهد على صدق مقالي ضميري والله الذي سيدينني على كل ما ينافي الحقيقة

قد كنت سمعت ايام تلمذي في مدرستنا الرهبانية كلام مديح كثيراً عن قداسة وفضائل الاب بشارة ، ولقد شاءت العناية الالهية انني أمرت في بدء حياتي الكهنوتية سنة ١٩٢٠ ان اكون في ابرشية سيادة مطران صيدا اثناسيوس خرياطي الذي كان في شهر تموز من تلك السنة في قصبة دير القمر حيث كان الاب بشاره فتوجهت الى هناك وتحققت بعيني في رجل الله القديس ما كانت سمعت به اذني : شاهدت حياة ذات فضيلة سامية ، حياة فائقة الطبيعة بكل معناها ، تحققت ايماناً ثابتاً بالله سبحانه وتعالى ، واعتصاماً بنوياً به جلّت رحمته ، ومحبّة لله مضطرمة مقترنة بغيرة رسولية على خلاص النفوس . شاهدت طهارة نفس ملاكية ، تواضعاً عميقاً وطاعة كاملة وفقراً تاماً ، فطنة عدلاً شجاعة قناعة ، وبكلمة مختصرة رأيت رجلاً كاملاً ومسيحياً كاملاً وراهباً كاملاً وكاهناً كاملاً

اما ايمانه الثابت بالله جلّ صلاحه فقد ظهرت قوّته في الافعال العجيبة التي اتاها سحابة حياته ، ولا يمكنني اثبات كل ما يُروى عنه بهذا الشان اثباتاً تاماً، فقد ذُكر امامي كثير من الايات ، ولكن ثبت ان لصلاته قوّة عجيبة في وقاية دود الحرير من الهوام المضرة . وهنا اذكر حادثاً جرى لي في هذا الشان سنة ١٩٢٥ : كنت قد أُرسلت بمناسبة الاعياد الفصحية الى قرية عين زحلتا . وبينما كنت اتفقد ابناء طائفتنا وادعوهم الى الاعتراف والمناولة قياماً بالوصية الفصحية دخلت بيتاً

دعوت فيه ربة البيت الى تتميم واجباتها الدينية . لان الدليل رفيقي اخبرني ان لها زماناً طويلاً بلا اعتراف . فأجابتني المرأة على الفور : «يا ابونا انا لا اعترف» . فسألتها : ما السبب . اجابتني : «انا لا اعترف الا عند ابونا بشارة» قلت لها : ولماذا قالت : «لانه رجل قديس وليس لي ثقة الا به» وزادت على ذلك قائلة بكل بساطة : «كان النمل يلحق دود الحرير عندي كل سنة ويتلف الموسم . ففي احدى السنين كنت في دير القمر اتكلم بهذا امام معارفي فنصحتني امرأة ان اتوجه الى الاب بشارة ليصلي على كأس ماء . ارشُّ به الدود فلا يلحقه النمل . فعملت بنصيحة المرأة وتمَّ كما قالت لي .»

وروى لي كاهن عين زحلتا الحالي الخوري خليل المغبغب ان المبشر البروتستانتي فيها كان يوماً متوجهاً الى دير القمر فشاهد على مقربة من هذه البلدة امرأة من بلدته بيدها قنينة ماء . فسألها : «لِمَ هذا الماء» اجابته : «انه ماء مقدس لكي ارشه على دود الحرير» فقال لها : «ما لك وهذه الخرافات هذه خرافات خوارنتكم . انا اصلي لكِ على الماء فترشينه على الدود فلا يلحقه النمل» اجابته : «ولكن هذا ماء صلّى عليه ابونا بشارة» فقال لها : «اذهبي اذن . فهذا رجل قديس»

امّا اعتصامه بالله ورجاؤه بالله مخلصه فقد كنا وثيقين لانه كان كلّما تكلّم عن العواقب الاربع التي ترعب فرقاً كلَّ من يتأمل فيها كان الاب بشارة يتجدد ثقة بالله وبرحمته . وهذه الثقة هي التي ملأت وجهه بشراً حينما كلمني قبل وقوعه في مرضه الاخير ببضعة اشهر عن هذه العواقب وعما عمله الآباء النساك القديسون استعداداً لها فكان يقول لي : «اننا لم نشابه اولئك الابرار في شيء . لا في اماتاتهم ولا في فضائلهم ، فماذا يكون نصيبنا !» وزاد على ذلك حالاً مجدداً ثقته بجودة الله ورحمته قائلاً مع داود النبي : «على الرب توكلت فلا أخزى الى الابد» وهذه الثقة هي التي كان يوحيها لجميع الخطأة الذين يعترفون عنده وجميع المرضى الذين كان يعتني بهم او يؤازرهم على مفارقة هذه الدنيا كما تحققت ذلك بنفسي

حين ثقل عليّ مرض التيفوئيد بصيدا في اواخر سنة ١٩٢٣. وهي التي كانت تجعل لصلاته قوة عجيبة قلّما كانت تُطلب لأمرٍ وتخيب. منها وقايته دود الحرير من الهوام المضرّة كما سبق القول والمزروعات من الجراد. وهذه الأعجوبة الأخيرة كان الديريّون يرددونها أمامي كثيراً، وهي أنهُ حين انتشار الجراد سنة ١٩١٥ فكلُّ ارضٍ رُشّت بالماء الذي صلّى عليه الاب بشارة كان لا يطأها الجراد البتّة. وقد ظهرت ثقتهُ بالله واستسلامه له تعالى بأجلى بيان في مرضه الأخير إذ كان يُردّد حين تشتد عليه الاوجاع هذه العبارة: «يا ارادة الهي انتِ موضوع حبي». ولما كنتُ أقولُ له اطلب من الله تخفيف اوجاعك كان يجيب: «لا. ارادةُ الله فلتكن أو مثلما الله يريد»

ومحبّتهُ لله كانت تستبينُ خصوصاً في صلواته ولا سيما عندما كان يظنُّ أنهُ لا احد يراه فكنت ألاحظهُ كأن وجهه يسطع نوراً يتبسّم بوقار ناظراً إلى بيت القربان الأقدس أو إلى المصلوب وذارفاً الدموع. وإذا كان المصلوب بيده قبّلهُ في جنبه ويديه ورجليه وما ذلك إلّا لاشتعاله بلهيب الحبّ الالهي. وفي الصلوات العمومية اذ كان يقرأ في الخورص أيام كان في صيدا ودير القمر كان يقرأ عن عاطفة حبّ مضطرمة بالله. وما إقامته المتّصلة في الكنيسة الا دليلًا ساطعاً على حبّه الشديد ليسوع المختفي في سرّ القربان الأطهر الذي لم يكن يفارقه إلّا ليتفقده في شخص المرضى. وما اعمال غيرته الرسولية سوى برهان واضح على اضطرامه بحب الله. وأتذكر انني حينما كنت أحضر الى كاتدرائيّة النبي الياس في دير القمر لزيارة القربان كان يطلب مني ان أقرأ له صلاة الزيارة في كتاب القديس ليغوري ولما كنت أنتهي من تلاوة الصلاة كان يطلب أيضاً تلاوة صلاة الافعال الالهية الموجودة في آخر الكتاب المذكور. ثم يلحقها بصلوات سهميّة بارزة من اعماق قلبه مثل: «يا قلب يسوع الاقدس اضرم قلبي بحبّك او يا يسوع الوديع والمتواضع القلب اجعل قلبي مثل قلبك او ياقلب مريم الحلو كن خلاصي» وكان يطلب مني اعادة كلٍّ من هذه الصلوات عشر مرات. ولما

كنتُ اعرف عظم رغبته في مراجعتها كنتُ في مرضه الاخير أعيدها عليه وأذكّره بها . ولما كنت أكررها ثلاث او اربع مرات كانت تظهر على وجهه تلك الابتسامة اللطيفة الصادرة عن قلبٍ اضطرم حباً لقلب يسوع وقلب مريم فكان كأنه يشاهدهما وجهاً لوجه . كذلك كنت أعيد عليه تلاوة صلاة افعال الفضائل الالهية المذكورة . ولما كانت تشتد عليه الاوجاع او بالحري على ما اظن لما كان ذلك الشيطان اللعين يضيّق عليه بتجاربه كان يطلب تلاوتها بالحاح . وقبل وفاته ببضعة ايام قال لي : «اني اشعر ان قلبي كلهيب نار » واذ قلت له ان ذلك لاضطرامه بحب الله أدار وجهه وتغيرت هيأته حياء من انه باح بمثل هذه العاطفة . ومحبته الشديدة لله هي التي كانت تجعله يذرف العبرات حين مخاطبته لله كما تحققت ذلك مراراً مدة اقامتي في دير القمر حتى كنت أسمع صوت بكائه وكما قد لاحظت ذلك حين تقربي منه في الكنيسة في دير المخلص فكان يشهق بالبكاء حين فحص الضمير مساء وكان يدوم بكاؤه من اول فحص الضمير الى آخره فكأنه يتذكر بعض هفواته السالفة أو بعض سقطات حالية فكان ينوح باكياً . — والبار على ما يقول الكتاب يسقط سبع مرات في النهار — . وفي مرضه الاخير كان يطلب مرات كثيرة أن يعترف . ولما كنت اسأله «بماذا تريد ان تعترف ? انك لا تعمل شيئاً » لاني قلما كنت افارقه في مرضه الاخير . كان يجيب بكل بساطة وبدون تكلف : «لاكتساب نعمة السر» . اما في تقدمته الذبيحة الالهية فكان كأنه مختطف من هذا العالم لايهتم الا في تلاوة الصلوات بكل خشوع وعبادة غير مهمل ولا حركة مما يعينه كتاب القداس مستعداً الاستعداد الروحي منذ النهار السابق وقاضياً اكثر ساعات ليله في هذا الاستعداد لاني كل مرة كنت احضر اليه مساء كان يطلب مني تلاوة قانون المناولة في كتاب السواعي . وكان حين تلاوة صلوات القداس كلما قرب وقت التقديس والمناولة ظهر انه يزيد شوقاً وحرارة حبٍ ليسوع المسيح المزمع ان يقدمه ضحية للآب الازلي اويتناوله تحت اعراض الخبز والخمر .

اما غيرته على خلاص النفوس فيمكن ان يقال انها كانت ميزته الخاصة فقد كان يضطرم بسعيرها أيّ اضطرام وقد تجلّت فيما اجراه من الخير في دير القمر وصيدا وفي القرى المجاورة . فقد ردّ كثيرين من الخارجين عن الكنيسة الى وحدتها الكاثوليكية . وأخبرني هو نفسه في أيامه الاخيرة انه كان يذهب الى سجن بيت الدين داعياً المسجونين الى التوبة معرّفاً الكثيرين منهم سائراً بهم وبمعيّته فرقة من الجند الى كنيسة القديس مارون في تلك القرية مقدّماً لاجلهم الذبيحة الالهية ومناولاً القربان المقدس لمن تطهّر منهم بحميم التوبة . وكنت أراه لا يهمل زيارة كل مريض من جميع الطوائف المسيحية . واذا كان احد ابناء رعيته في خطر الموت لا يفارقه ما دام فيه رمق من الحياة ولا ينقطع عن الصلاة ما دام بجانب المحتضر . وهو نفسه في مرضه الاخير يمكن ان يقال ان العشرين يوماً الاخيرة من حياته كانت صلاة متصلة ما انتهت الا بلفظ انفاسه . على ان ذلك كان دأبه في جميع ايام حياته . فان مشى في الشوارع في المدن او ذهب الى المائدة او الى اي محل كان في دير المخلص كان مصلياً . وقبل وفاته التي تمت نحو الساعة السادسة والنصف صباحاً في الساعة الرابعة والنصف اذ حضرتُ اليه طلب إليّ ان اتلو صلاة السبحة . ولما وصلت الى نصفها رأيت انه لا يتابع الصلاة وان افكاره اصبحت في غير هذا العالم .

سناء عفته كان يتجلى في تلك الطلعة التي كانت تنعكس عليها انوار قلبه الطهور ، وكان ذلك السناء يتألق نوراً حتى آخر نسمة من حياته وتظهر طهارته في نظراته المطرقة بالارض دائماً وفي حثه النساء والفتيات اينما رآهن على اللبس المحتشم ولا سيما في الكنائس . واذكر له حادثاً رواه لي احد الشهود العيانيين يوم وقوعه في كاتدرائية دير القمر في سنة ١٩٢٣ وهو ان الاب بشارة رأى احدى الفتيات تتقدم الى القربان الاقدس وصدرها مكشوف فمنع عنها المناولة وطلب اليها بكل لطف ووداعة ان تتوجه الى بيتها تغير ثوبها وتستر صدرها وتعود تتناول . فاذ كانت الفتاة متأكدة اخلاصه وصفاء نيته عملت بمشورته وعادت

تناولت . وقد رايته في كاتدرائيتي صيدا ودير القمر يجانب مقاعد النساء فمن رآها بثياب غير محتشمة طلب اليها برقة ولطف ان تذهب الى بيتها تغير ثوبها او حرضها على ان تستر يديها او صدرها . وطهارته كانت تجعل لتحريضاته تأثيراً في النفوس فتلين خاضعة له ، ولهجة كلامه كانت تشف عن عفاف كامل وغيرة وقادة رسولية عندما كان يتحدث عن تيار الفساد الطامي في هذه الايام . وفي مرضه الاخير ظهرت طهارته وحشمته في جميع حركاته وسكناته ولا سيما عندما كنت اغير له ثيابه فكان يطلب بالحاح ان يستر بسرعة كل عضو اوجبت الضرورة ان يُعرّى .

ويمكن ان يقال عن تواضعه ان حياته جميعها كانت سلسلة افعال تواضع . يثبت ذلك هربه من كل ما يمكن ان يُظهره امام الناس . فكان عند ما تاتي الناس لتزوره لسماعهم باخبار فضائله يختبي في احدى زوايا الكنيسة ، الا انه كان يُكتشف فيسرع الزائرون يتباركون بلثم يديه واخذ قليل من الماء والزيت اللذين يكون صلى عليهما . وقد قال لي في ابتداء مرضه الاخير : « ارجو ان لا تعملوا حفلة ابداً بعد موتي ولا تستدعوا احداً من الخارج لحضورها . فالناس يظنون اني « ناس ملاح » (كذا) ولكن ويل لي اذا قال الناس عني خيراً فانا خاطئ ومن اكبر الخطأة . »

اما اخضاع عقله لله وكمال تواضعه فيظهر في طاعته الكاملة لاوامر الروساء اذ لم يكن يبدو منه ادنى تذمر على الروساء كيفما كانوا . ولما كان يتشكى البعض من احوال بعض الروساء ويوردون امامه نقائصهم ومعايبهم كان يجم صامتاً او ينصح بالاخلاد الى الصبر وبالصلاة لتصير الحال الى احسن . وعند ما كان يُراد منه قضاء امر كان يكفي ان يُقال له : سيادة المطران او الرئيس يامر او يرغب حتى يخضع بكل قواه العقلية . وفي مرضه الاخير امر له الطبيب بدواء كريه الطعم كل الكره ورأى الاب بشارة ان لا فائدة تحصل له منه فاظهر لي ان تركه اولى مع انه كان ياخذه دون ادنى تكرّه ولما عرف ان

الطبيب امر به صار ياخذه بكل ارتياح ولما انساه يذكرني به . واذ كان يعلم ان ايامه امست قليلة وان وقت انحلاله قريب وسيادة الرئيس العام غائب عن الدير تأسف على انه سيموت دون ان ياخذ بركة رئيسه .

وفقره كان هكذا عظيماً حتى كان لا يحفظ لنفسه شيئاً من الدراهم التي ترد اليه بل يرسلها الحين بعد الحين الى صندوق دير المخلص كما تشهد بذلك دفاتر الدير . ولم يوجد عنده دائماً سوى ثوب يلبسه وآخر يرسله الى الغسيل لانه كان شديد الحرص على النظافة حتى اخر ساعات حياته .

وما بلغ هذا الحدّ من الفضيلة الّا لتحلّيه بفضيلة الفطنة على اكمل نوع . فلمعرفته انه هو وكلّ خليقة انما هو لمجد الله كان يرضى بجميع المحن والمصائب لهذه الغاية الفائقة . وكان يردّد هذه العبارة « لمجدك يا الهي » في كل حركة من حركاته وكل وجع من اوجاعه في ايامه الاخيرة . ولهذه الغاية كان مخضعاً الجسم للروح والاهواء للعقل يردد كثيراً آية صاحب المزامير : « قلباً نقياً اخلق فيّ يا الله وروحاً مستقيما جدّد في احشائي » .

ولما كان العدل فضيلة بها يؤدي الانسان ما عليه من الحقوق لله وللقريب ولنفسه كان الاب بشارة يقوم بواجباته الكهنوتية والرهبانية اكمل قيام . وفي مدة اربع سنوات قضيتها معه في صيدا ودير القمر لم اسمع فماً ينطق بكلمة مذمّة للاب بشارة بل جميع الالسنة من الطوائف المسيحية وغير المسيحية كانت تثني على سامي قداسته وتقواه وحياته الفائقة الطبيعة ليس فقط من سكان البلاد اللبنانية بل من الافرنسيين الذين كانوا يحضرون الى صيدا او دير القمر فيتعرفون بهِ ويشاهدون فضيلته الراسخة وحياته السامية ويعودون مدهوشين من اعماله المبرورة .

اما نحو القريب فقد كان لا يغفل عن اية مساعدة يستطيع ان يمده بها متمماً نحوه جميع اعمال الرحمة غير مهمل عملاً تقتضي به الغيرة الرسولية والواجب الكهنوتي المقدس مخاطراً بحياته احياناً ليسعف ابناء رعيته في وادي دير القمر

ذاهباً اليهم والبرد قارص والثلوج متراكمة والانهار والسيول جارفة . اما نحو ذاته فقد كان لا يعطي الجسد الا ما لا بد منه لحياته وجانحاً بالنفس الى الله ومحبته مواظباً على تزيينها بجميع الفضائل الرهبانية والكهنوتية .

أما فضيلة القوة فكانت تتجلى في ملازمته الكنيسة دائماً وعدم مفارقته حبيبه يسوع المقيم في سر القربان الاقدس الا لكي يتفقد المرضى كما سبق القول. وتظهر في نهوضه من النوم في دير القمر وصيدا وفي دير المخلص نحو الساعة الثانية صباحاً ليتوجه الى الكنيسة . وكان يعود الى غرفته الساعة التاسعة مساء الا انه كان يقضي اكثر ساعات ليله في الصلاة كما لاحظتُ ذلك بنفسي اذ نمت في دير القمر في غرفةٍ تلاصق غرفته ولها باب يُدخَلُ به اليه وذلك في صيف سنة ١٩٢٠ . ثم ان مواصلة حياة ذات فضيلة سامية مزدانة بكل نوع من الفضائل مدة تنيف على خمسين سنة لدليل على قوة ارادةٍ وعزم لا مثيل لها الا في القديسين . هذا مع ظنه بنفسه انه اول جميع البشر في الشر والخطيئة . وكان يردد عليَّ في كل حديث روحي نتجاذبه : « اين نحن من فضائل انطونيوس وافثيميوس وآباء البرية القديسين ؟ » مع انه لكثرة اماتاته لم يبقَ في جسمه في آخر حياته اثر للحم بل كان العظم ظاهراً من جميع جهات جسده يستره جلد رقيق لطيف . وتتجلى فضيلة القوة فيه في محافظته على هدوءٍ وسلامةٍ كاملين لا يهزه فرح ولا يغيظه حزن مع انه كان ذا مزاج عصبي يتاثر لكل ما يفرح او يكدر . وقد سألته يوم عيد انتقال السيدة سنة ١٩٢٣ : « كم بقيت يا ابانا في كرسي الاعتراف ؟ » اجابني : « الى ما بعد نصف الليل . » وكان قد ابتدأ نحو الساعة الخامسة مساء .

اما اماتاته وتقشفاته فاكثر من ان تحصى في مأكله وفي مسيره الى القرى المجاورة دير القمر وصيدا وفي اسهاره الطويلة مناجياً الله وتكفي حياته لتكون اكبر دليل على اعظم الاماتات وقد دامت هذه الحالة اثنتين وثلاثين سنة في دير القمر لا يعرف فيها مقراً غير الكنيسة وبيوت المرضى الا اذا دعاه

الواجب للذهاب الى احدى القرى المجاورة ليتفقد المرضى ويقوم بتوزيع الاسرار واقامة الذبيحة الالهية وكان يذهب الى كل تلك القرى اكثر الاحيان صباحاً صائماً ليمكنه تقديم الذبيحة المقدسة وماشياً حافياً عندما كان يظن انه لا احد يراه . وكان يعود الى دير القمر احياناً قرب الظهر واحياناً قرب العصر او بعده صائماً ايضاً . واذا قُدِم له طعام قبله بعد الالحاح ووزعه على الفقراء الذين يراهم في طريقه . كذلك كان شأنه في صيدا فكان دائماً في الكنيسة او في المستشفيات او عند المرضى في بيوتهم او يجول مفتشاً عن الفقراء ليساعدهم بقدر الاحسانات التي تاتيه لهذه الغاية . ومرات كثيرة كان ياتيني الى المكتبة يطلب اليّ ان أبدّل له بعض الليرات السورية او انصافها بقطع صغيرة يوزعها على الفقراء . وقد رايته يجمع ما فضل عن المائدة من خبز وطعام ويذهب به الى الفقراء الذين كثيراً ما كانوا يقصدونه منتظرين اياه على ابواب دار الكنيسة او في ساحتها ولما كان ياتيه فقير في غير اوقات الظهر او العشاء كان يطلب الى الطباخة ما يقوت به ذلك المسكين .

وكان يمتنع عن اكل اللحوم كلّ مرّة لا يأمرُه بذلك الرئيس او سيادة مطران الأبرشيّة وقد اخبرني أحدُ الطبّاخين في ديرنا المخلّصي قبل وفاته ببضعة ايام انّ له اكثر من سنتين لا يطبخ للأب بشاره سوى الشوربا . وهيهات إن كان يكمِلُ ما يوضع له في الصّحفة . وكان يمزجه بقليل من الخبز قديم الأيام قد لعب فيه العفن . ولما كان يرى ان الشوربا دسمة او سخنة كان يضع لها الماء البارد . وفي مرضه الاخير كان يطلب اليَّ ان امزجها بماء فيشي محتجاً بانها ربما اضرته اذا كانت دسمة ولكن الحقيقة هي ليمنع اللذة الموجودة فيها .

ومن تقشفاته الشائعــة في دير القمر انه كان يصوم في اسبوع الآلام من ظهر يوم الخميس الى يوم احد الفصح المجيد بعد عودتــه من وادي الدير طاوياً كل هذه المدة لا يدخل فمه لا مأكلٌ ولا مشرب .

وكان قنوعاً يكتفي بالضروري لحفظ حياته لا يتطلّب شيئاً لا من مأكل

ولا من مشرب ولا من ثياب وقد رأيته في بعض ظروف يُقتَّر عليه في المأكل فلا يبدي ادنى تشكٍ . وفي مرضه الاخير اذ احضرت له فوطتين زيادةً على الموجودتين عنده لانهما توسختا قال لي : « يكفي اثنتان فقط . » وما اقتنع بلزومها الا بعد ان بينت له أن تينك ارسلتا الى الغسيل .

ولما كان التعبد للبتول والدة الاله ميزة المنتخبين للمجد كان رجل الله الاب بشارة مخصصاً لها ذاته بجملتها مشتركاً بثوبها الكرملي يتلو سبحتها الوردية بتمامها يومياً كما اعلن لي ذلك بنفسه في مرضه الاخير وكان يستفز قلبه فرحاً ذكر اسم مريم . وكل مرة نقرأ أمامه قانون المديح او قانون البار كليسي مدة مرضه الاخير كان يكشف عن رأسه احتراماً لوالدة الاله ويردد كثيراً هذه الصلوات : « يا قلب مريم الحلو كُن خلاصي . »أو هذه :«يا اماً حبيبة صلي لاجلنا . » او : « يا خلاص المستغيثين بك خلصيني . »

هذا ما وعته الذاكرة من حياة رجل الله الاب بشارة ابي مراد . وهبنا الله ان يُرفع فوق الهياكل وان يُكرم بلقب طوباوي وقديس لتعتز به امنا الرهبانية والكنيسة المقدسة جمعاً . ويتمجد اسم المخلص الالهي

في ١٥ اذار سنة ١٩٣٠ — الاب انطون كيورك

ب . م



ونجعل ختام هذا الفصل رسالة وردت الينا من احد المعلمين في مدرسة وادي الدير التي انشأها الاب بشارة كما تقدم القول عنها والمذكور من خريجي مدرسة دير المخلص

طلبتم مني كتابة ما اعلمه عن حياة الاب المرحوم الخوري بشارة ابي مراد . فعملاً برغبتكم وحباً باظهار فضائل هـذا الكاهن الجليل وخدمة للتاريخ وللرهبانية المخلصية المطوقة جيدي بقلائد فضلها اقول : بنى المرحوم الخوري بشارة كنيسة سيدة البشارة في وادي بحليه قرب وادي دير القمر . وتاريخ بنائها معروف عندكم . ولكي يتمم اعماله الخيرية بنى بجانبها لجهة الشرق مدرسة لتعليم اولاد القرية . وفي شهر ايار سنة ١٩٠٥ اتفقت معه على التعليم فيها براتب معين كان يدفعه لي كل شهر . وكان ياتي من دير القمر ماشياً كل احد وعيد لاقامة القداس الالهي ويصرف ذلك النهار متفقداً احوال الرعية في تلك القرية بكل همة ونشاط وكان عمره حينئذ ستين سنة كما قال لي لما سألته مرة . وكانت شدة تقواه وحرارة ايمانه يساعدانه على احتمال الصعوبات التي تعترض من كان بسنه في طريقه . فكانت همته لا تعرف الملل وينزل الى الوادي ماشياً على الاقدام باكراً جداً لا يؤخره مطر ولا صعوبة ويصرف النهار بعد القداس زائراً خصوصاً للمرضى والعجز . ثم يرجـع صاعـداً الى مقره بدير القمر . ومرات رافقته وكان يمشي مثلي وانا بسن دون العشرين . وكان يغالب البرد والحر على حد سواء اندفاعاً وراء الواجب وخدمة النفوس

وقد حكى لي كثيرون من اهل القرية انه مرة حملته مياه ساقية الباردة المعروفة هناك لغزارتها بسبب تساقط المطر اذ كان مضطراً ان يقطعها ليصل الى الكنيسة وقذفته بضعة امتار . ولولا العناية الالهية وتمسكه ببعض الاغصان المتدلية في المياه من شجر الدلب لكان هلك غرقاً . ولم يكن يثني عزمه خوف ولا تعب عن القيام بواجباته الكهنوتية . وكان يحب كثيراً تزيين ونظافة الكنيسة

والايقونات المقدسة والقناديل بنوع خصوصي . وكان يعمل اكثر هذه الاعمال بيده امامي وامام غيري من اهل البلد قبل ان يبتدئ القداس الى ان يجتمع الشعب لبُعد بيوت الكثيرين عن الكنيسة . وكان دائماً يعتمد على بمثل هذه الاشغال لما يكون بكرسي الاعتراف .

وكان يستعمل طريقة جميلة يجب بها الى المؤمنين الاعتراف فكنت ارى كثيرين في كل احد يتقدمون لمنبر الاعتراف وهي انه اذ يجلس للاعتراف يبقى منتظراً الداخل الى الكنيسة . فاذا كان رجلاً او امرأة يومي اليه برأسه كي يأتي لعنده وهو باش متبسم فيأتي الداخل مسرعاً نحوه حانياً رأسه ليلثم يده . فيبدأ بسؤاله عن صحته وصحة العيلة وعن شغله واجرة يومه وعن الموسم . واسئلة كهذه تبسط المسؤول وتجعله اسير لطفه وحنانه . وقد كنت اتقدم اذا كان المسؤول من اصحابي واسمع مثل هذه الاسئلة العذبة الى ان يقول له رحمه الله صار لازم يا ابني تعترف . ثم بالحال يتمم له سر الاعتراف . وقليل من كان يجيبه انه صار لي قدر جمعتين اعترفت فيقول له زيادة الخير خير يا ابني . وبهذا تقهر الشيطان ولا شي . يقهر الشيطان ويجعلك تغلبه الا الاعتراف والصلاة تعال تعال . حالاً يركع بايمان ويعترف وانا ارجع لشغلي .

وكان حنوناً جداً نحو الصغار تلامذة المدرسة وكان دائماً بعد القداس يسألهم اسئلة بالتعليم المسيحي ويوصيني غالباً بالاجتهاد عليهم وخصوصاً بالتعليم المسيحي وكان مسروراً من عملي كما كان يظهر لي منه . ومثله كانت اهالي البلد . واني دائماً اذكر لهم فضلهم ومعاملتهم الحسنة لي . ولحظ رحمه الله محبة الجميع لي فزاده هذا سروراً وثقة بي فصار يدلني الى ما يكنه ضميره الصالح وينويه من الاعمال . فمرة قال لي ان الاولاد يلعبون بدار الكنيسة بحرارة الشمس وهذا مضر بصحتهم والشعب ايضاً عند سقوط الامطار ونهاية القداس يبقى بالكنيسة فقصدي ان اعمل شاحط او سقف قرميد فوق الدار الشمالي يكون بطول الكنيسة ويتصل بالشاحط الغربي الذي فوق دار النساء . فيقي الجميع من

الامطـار وحرارة الشمس . وفعلاً لم يمضِ اسبوعان حتى قاوَلَ احد النجارين بدير القمر وتمم ما افتكر به وقالهُ لي . وكنت مع اولاد المدرسة نساعد النجار في صف القرميد . وكم كان عمله هذا مفيداً ومسراً للاهالي . وقد كلفهُ هذا مبلغاً كبيراً يُحسب في ذلك الوقت . وكنت اعجب كيف استطاع عليهِ مع انهُ لم يكلف احداً من اهـل القرية بدفع بارة . وهكذا قيـل لي عن بناء الكنيسة وبناء القبة ومشترى الجرس لها وبناء المدرسة .

هذا قليل من كثير من اعماله واذ ذكرت ما سمعتهُ من الكثيرين من اهالي القرية عن نجاته من الغرق بساقية الباردة بمساعدة العناية الالهية يجدر بي والحالة هذه ان اصف حادثاً خطراً حدث له بحضوري نجا منهُ باعجوبة سماوية وعناية ربانية وهو انهُ كما تقدم القول كان يجب ان يشتغل بيده في تزيين الكنيسة ونظافتها فمرة بحسب عادته كان يضع زيتاً بالقناديل ويضويها . فلما دخلت الى الكنيسة تقدمت لكي اساعده فقال لي خلصت وانما باقي بعد هذا القنديل . اذهب انت دق الجرس . فذهبت وفعلت كما أمرني . ثم وقفت قليلاً وانا ماسك حبل الجرس انظر اليه يصعد على كرسي لانارة القنديل المشار اليه الذي كان معلقاً بحبل رفيع امام المائدة او المذبح الكبير مقابل صورة السيدة صاحبة الكنيسة . وكان القنديل ثابتاً في مكانه لا ينزل ولا يرتفع اصلاً . ويقتضي لمن يقصد انارته — كما كنت افعل ذلك — ان يضع كرسياً على الدرجة التي يقف عليها الكاهن وقت قراءة الانجيل المقدس ويصعد فوقها لانارة القنديل . واذ ابصرت الاب بشارة يصعد على الدرجة وعلى الكرسي فوقها وحاول ان يضع الطوافة في القنديل متجهاً الى المذبح لانه لشدة احترامه لمذبح الرب لم يحب ان يجعله وراء ظهره فوجد القنديل فوق رأسه تماماً فاضطر ان يرجع قليلاً برجليه الى الوراء ليتمكن من وضع الطوافة في القنديل وكان حجر الدرجة ضيقاً لا يسمح بحركة مثل هذه . فصارت رجلاه متطرفتين وصارت رجلان من قوائم الكرسي متطرفتين بل خلتا من سند فمـالت الكرسي الى الوراء

وهوى معهـا بكل جسمه وكاد يسقط على البلاط من علو مقدار متر سقطة لا يقوى جسمه الضعيف على احتمالها . وعندما ابصرت ارتجاج الكرسي وميلها اسرعت اليه لاسنده لئلا يسقط ويقـع على ظهره . وكان بيني وبينه بضعة عشر خطوة . لكن مهما كانت المسافة قريبة ومهما اسرعت بركضي فان سقوطه كان اسرع واقرب لا محالة . ومـع هذا اسرعت اليه ومددت كلتا يدي لمعونته وكانت عيناي تحدقان اليه وما كانتا تنطبقان الا حذراً من ان ابصره واقعاً ساقطاً على البلاط حتى اني كنت اتخيل ان يدي كانت تسنده اذ سمعت صوته يقول يا عذراء . . . فابصرت الكرسي عادت واعتدلت قوائمها الاربع في مكانها فوق الدرجة واعتدل الاب بشارة بجسمه فوقها كما كان قبلاً ووجدت نفسي حينئذٍ بعيداً عنه مقـدار خطوتين فوقفت مبهوتاً مذعوراً جامداً من هذا المنظر الرهيب حتى قـال لي لا تخف يا ابني العذراء خلصتني لا تخف . .ونظرت وجهه قد صار احمر كالدم ولعل ذلك من اثار الرعب . وايقنت حينئذٍ ان اليد التي سندته وحفظته من السقوط ليست هي يدي . بل هي يد الله وعنايته به . وبعد قليل التفت الي وتبسم ابتسامته المعهودة وقـال لي : قلت لك يا ابني العذراء خلصتني . لكن اياك ان تحكي هذا لأحد . ومليح ما كان احد موجوداً غيرك نشكر الله . فقلت له لا ادعك منذ الان وصاعداً ان تضوي هذا القنديل ابداً . وقد حافظت على قولي كل مدة اقامتي في الوادي . وقد حكيت هـذا الحادث الى البعض من الكهنة والعلمانيين واكتبه الان ليحفظ في التاريخ مخلداً لاني اعتقد ان نجاته من هذه السقطة وعاقبتها كانت بعناية عجيبة من الله تعالى لحفظ حياة هذا الاب التقي الغيور ليكمل اعماله المرضية لله وللناس . ولا سيا الفقراء والخطاة رحمه الله واجزل ثوابه . وتفضلوا بالختام بقبول احترامي مكرراً لثم يدكم وطلب دعاكم .

ولدكم

بطمه في ٢٩ ايار سنة ١٩٣٠

بولس الخوري عازار

اصلاح خطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦	٢	اصطربت	اضطربت
٨	٢١	العزز	العزيز
١١	١٠	نتظرون	ينتظرون
١١	١٠	سف	يوسف
١١	١٠	بجدة	النجدة
١١	١١	الرجال	الرجال
١١	١٢	الفريمان	الفريقان
١٤	٩	وعيهم	وعليهم
١٤	٢٠	وبأولادهم	وباولادها
١٦	٢	وكنانسهم	وكنائسهم
٢٣	٢٠	ادارة	ارادة
٣٥	١٩	يوم	اليوم
٣٦	١٠	المسيحين	المسيحيين
٤١	١٨	يستطعون	يستطيعون
٤١	٢٠	للعلمانين	للعلمانيين
٤٣	١٠	مطرناً	مطراناً
٧٧	١٧	يكتنى	يكتفى

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٧٧	٢١	لبنيه	لنبيه
٨٥	١١	وولاداه	واولاده
١١١	٤	الطوئف	الطوائف
١٢٣	٦	الطوئف	الطوائف
١٥٢	١٢	الخفى	الخفي
١٦٢	١٦	لجليل	الجليل
١٦٤	٢٠	هى	هي
١٦٧	١٠	وإذ	وإذا
١٩٣	١٣	الرامى	الرامي
١٩٧	٢١	وهى	وهي
٢٠٥	١١	تجت	تحت
٢٠٧	٧	عمال	اعمال
٢٠٧	١٨	وانكبيتم	وانكببتم
٢٠٩	١٠	تخفى	تخفي
٢١١	٢١	واذ	واذا
٢٢٤	١٢	القدسين	القديسين
227	10	il	il
229	18	lé	le
229	29	rardieuse	radieuse
٢٥٦	٩	اليه	اليا

فهرس الكتاب

صفحة

